يقظة الأمّة العربيّة

نجيب عازوري

مؤسّس جامعة الوطن العربي في مطلع القرن العشرين

تعريب وتقديم: د. أحمَد بوملحم

المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنشر

نجيب عازوري

مؤسّس جامعة الوطن العربي
في مطلع القرن العشرين



يقظة الأمّة العربيّة

تعريب وتقديم
الدكتور احمد بو ملحم



المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
بناية صمدي وصالحة - ص.ب: ١١/٥٤٦٠
بناية برج شهاب - تلة الخياط - ص.ب: ١٩٥١١٩
برقيا: موكيالي - بيروت

LAU

اهـــداء :

الى روح أمي الطاهرة التي علمتني الجد ورعتني وحدبت علي وقضت قبل ان تقر عيناها بثمار جهدي ، أهدي هذا العمل المتواضع .

أحمد بو ملحم

تقـديـم

بقلم الدكتورة : زاهية قدورة

ان يكون نجيب العازوري موضوع دراسة ، عمل جيد ، لأن نجيب العـازوري شخصية لبنانية ، ولبنانية مارونية ، آمن بالقومية العربية ودعا اليها ، وان كان ايمانه بها ايمانا منطلقا من فكرة القوميات التي كانت سائدة في ذلك العصر ، والتي ساعدت على ترويجها بعض الدول الكبرى لمآرب اخرى . لذلك اقـام نجيب العـازوري لفـكرة القومية العربية في نفسه تصورا وفق مقتضيات الحقبة الزمنية التي كان يحياها . ولذا لا يجوز اخضاعه لمقاييسنا اليوم بعد ان تبلورت، وانتشر الوعي، واعطى الزمـن فرصـة وضعها على المحك ويجب ان ننظر الى عمله في إطار زمانه ، وبوعي ابناء ذلك الزمان ، ومن هنا نرى جرأة واقداماً وتفتحا في دعوته للقومية العربية ، ووعيا لمشاكل الوطـن العربي .

والعازوري فكر مغمـور ، دراستـه اعـادة لطـرح فكره من جديد امـام الاجيال الحاضرة ، واحياءً له ووفاءً لذلك الفكر، لأنه آمن بأن العروبة هي الاطار الذي يجمع بين المسلمين والمسيحيين، وأن الحضارة العربية اسهمت في تطور الحضارة الانسـانية ، وهي نظرات موضوعية اعطت للعروبة حقها واقرت بفضلها .

انطلاقا من الدراسة الموضوعية التي تقدم بها الدكتور احمد بو ملحم لكتاب يقظة الامة العربية وبعد اطلاعنا على هذه الدراسـة لابـد من تقـديم سريع فنضـع بعض الملاحظات حول جوانب فكر العازوري . لقد كانت له بعض التطلعات الايجابية كما كانت له بعض الشطحات السلبية .

كان العازوري من الرواد الاوائل الذين آمنوا بالقومية العربية ودعا الى تأسيس حزب قومي عربي اطلق عليه اسم « جامعة الوطن العربي » عام ١٩٠٤ كما اصدر في باريس مجلة اطلق عليها اسم « مجلة الاستقلال العربـي » ما بـين ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨ ،

وأسهم بنشر مقالات عدة في الصحف الفرنسية ، ثم انتقل الى مصر وعمل في الصحافة وكانت جل مقالاته ترمي الى نشر الوعي القومي العربي ، واشترك بتنظيم مؤتمرات عربية منها المؤتمر العربي الاول سنة ١٩٠٥ ، والمؤتمر السوري العربي سنة ١٩١٣ ، وايّد الثورة العربية ، ثورة الشريف حسين ، وعمل على ارسال السلاح الى الثوّار في سوريا .

آمن العازوري بأصالة الحضارة العربية وابعادها الحضارية ، وبأنها الإطار الذي يجمع المسلمين والمسيحيين ، فمن اجل ذلك دعا الى خلق مذهب قومي عربي ، وإلى تعريب المذهب الكاثوليكي ، وتأسيس بطريركية خاصة هذه الكنيسة : « وأي ضير يتأتى من أن تصبح اللغة العربية ـ لغة القرآن والاسلام العالمي ـ لغة المذهب الكاثوليكي ؟ وأن تؤسس بطريركة خاصة لهذه الكنيسة الجديدة تحتوي كل المذاهب الاخرى في سنوات معدودة وتنضم الكنائس الارثوذكسية تلقائيا ايضا لها لانها ستكون مدعومة بحركة الامة الشاملة ويتعاطف المسلمون والمسيحيون ايضاً لانهم يرونهم يقتربون منهم من أجل السلام والخير العميم للوطن المشترك ، الوطن العربي . »

آمن العازوري باللغة العربية وإمكاناتها وابدى اعتزازه بقيم الحضارة العربية الروحية والانسانية ، وبمنجزاتها الفكرية والعملية، وبنتاج العرب من العلوم والفنون ، وبالعدالة والتحرر « لقد ساهم العرب ، رغم انعزال وطنهم مساهمة فعالة في نتاج الانسانية المشترك واختصروا لأوروبا ليل العصور الوسطى الطويل . »

لقد دعا العازوري الى اقامة امبراطورية عربية تمتد من الفرات ودجلة الى خليج السويس ، ومن المتوسط حتى بحر عُمان ، ويكون في هذه الامبراطورية حرية المذاهب ، ومساواة المواطنين كافة امام السلطان . ولتحقيق ذلك دعا الى فصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية ، ولكنه اشار الى استبعاده مصر من هذه الامبراطورية لاسباب عرقية ، فهذه الفكرة كما نعلم كانت ولا تزال من بنات فكر الاستعمار بغية اضعاف الامة العربية .

إلا أنه عاد فاستدرك فوضع تصوراً لبداية الوحدة العربيةعلى أساس اللامركزية لصعوبة الانفصال عن الدولة التركية ، بإقامة وحدات صغيرة كوحدة الهلال الخصيب ،

فاقترح تعيين أحد افراد الأسرة الخديوية التي كان لها تاريخ مجيد في مكافحة السيطرة التركية في القرن التاسع عشر حاكما على الشام ربطاً لجناحي العالم العرب : الأفريقي والاسيوي ، وقطعاً للطريق على المستعمرين البريطانيين الذي سيعمدون بلا شك الى اثارة القلاقل في وجه الدولة الناشئة اذا أُتيحت لهم الفرصة ، مع إقامة خليفة من سلالة النبي لكل المسلمين في بلاد الحجاز يمارس سلطته الدنيوية في الحجاز ، والدينية على جميع مسلمي العالم ، داعياً للحكم الذاتي في لبنان والاماكن المقدسة والامارات المستقلة في اليمن .

لقد جاء العازوري بآراء جدية وجديدة تستحق التأمل والاهتمام ، منها أن الاتراك اضطهدوا المسلمين اكثر من المسيحيين وأضرّوا بالعرب جميعاً ، فكان مقته للدولة التركية واضحا ، كما تمنى وعمل للخلاص من حكمها .

ومن الافكار الجدية والجديدة ايضاً ، أن القناصل الأجانب في بيروت والقدس كانوا يعطفون على الصهيونية ويساعدونها ، ويدافعون عن مصالحها ، وقد لامهم لذلك وطالبهم بمقاومة حركة اسرائيل في فلسطين . ولذا ادرك الخطر الصهيوني وحذّر منه وأكّدَ حتمية الصراع ، ونبه العرب بأن مصيرهم ومصير العالم بأجمعه مرتبط بهذا الصراع ـ وتستمع الى قوله بالذات في هذا الموضوع الخطير :

« ظاهرتان هامتان ، لهما نفس الطبيعة بيد أنهما متعارضتان ، لم تجذبا انتباه أحد حتى الآن تتوضحان في هذه الآونة في تركيا الاسيوية اعني : يقظة الامة العربية وجهد اليهود الخفي لإعادة تكوين مملكة اسرائيل القديمة على نطاق واسع ،ان مصير هاتين الحركتين هو أن تتعاركا باستمرار حتى تنتصر احداهما على الاخرى ، وبالنتيجة النهائية لهذا الصراع بين هذين الشعبين اللذين يمثلان مبدأين حضاريين ، يتعلق مصير العالم بأجمعه » .

هكذا نرى أن نجيب العازوري كان سباقاً في ادراك أعماق الخطر الصهيوني ، وكانت رؤياه في هذا المجال واضحة وبعيدة المدى .

اما بالنسبة للدول الكبرى فكان بديهياً للعازوري ، كغيره من معظم الوطنيين

العرب في السنوات الأولى من القرن العشرين ، أن يلاحظ العلاقة القائمة بين العرب والترك في ظل الامبراطورية قد تخلخلت ، وأنه لا بدّ من اعادة تنظيم هذه العلاقة بما يضمن للعرب مصالحهم القومية سواء أكان ذلك باقامة نظام لا مركزي او بانتزاع استقلال تام . وكان العازوري يرى أن فجر الحرية العربية آتٍ اليوم او غداً . وتصويره هذا للأمور كأنها في طريقها للحدوث لا يستند الى برنامجٍ وضعه هو أو وضعته الحركات الوطنية العربية للتحرير ، بل الى موضوعةٍ مؤدّاها أن الدول الكبرى المتصارعة على اشلاء « الرجل المريض » هي التي ستمنح ـ أو احداها ـ الحرية للعرب وتعينهم على إقامة دولتهم المستقلة . ويدرك عازوري ان المصالح الخاصة من اقتصادية وسياسية هي المنطلق لهذا العون ، فامريكا مثلاً التي بدأت سياستها من شعور العطف والاحسان تحولت الى سياسة استعمارية من أجل مصالحها الاقتصادية . ونجيب العازوري يراهن ـ وبحماس ـ على فرنسا ، ففي حين تريد روسيا من وراء مساعدتها للارثوذكس العرب الهيمنة على الشرق العربي ، ولا يهم بريطانيا إلا مصالحها الاقتصادية وحماية طريق الهند ، تندفع فرنسا ـ التي يدرك العازوري أنّ لها استثمارات ومصالح ايضاً ـ في نشر افكار التحرر والقومية ، وهي لذلك الطرف المثالي الذي يمكن لتدخله ان يؤدي الى « تحييد » القوى الطامحة فيمكّن ذلك العرب من الاحتفاظ بحريتهم بعد تفكك الدولة العلية الوشيك .

ولو أن هذا الايمان بقدسية السياسة الفرنسية ، ونبل اهدافها كان قبل عام ١٩٠٣ ، لكان له ـ ربما ـ تبرير ضعيف ، فقد كانت بريطانيا مجلّية في مجال الاستعمار في المشرق العربي وافريقية ، وكانت فرنسا تشنّ ضدها حملةً على كافة المستويات يتخللها احياناً بعض الجدل الذي يبدو فوّاحاً بعبير معاني حرية ومساواة الثورة الفرنسية التي كانت قد انطوت بخيرها وشرّها منذ آماد الآماد ! ، وجاءت سنة ١٩٠٣ وحدث فيها التصادم العسكري بين القوتين الاستعماريتين الكبيرتين على ارض افريقيا فاضطرّت فرنسا الى ان ترضى بنصيب الشريك الأصغر باللعبة الامبريالية وحلَّ التنسيق محلّ التصادم بين فرنسا وانجلترا ، لقد اتفقتا اذن على تقسيم الشرق وما عاد بوسع فرنسا ان تدّعي الانتماء الى ايديولوجية متحررة تناقض الاستعمارية البريطانية الضارية .

ان هناك دلائل تشير الى انه كانت للعازوري وبعض زملائه صلات بوزارة الخارجية

الفرنسية التي كانت توحي ببعض توجهاتهم ، ثم إن تركة الرجل المريض كانت ماتزال محلّ نزاع في خطوطها التفصيلية بين الدول الاوروبية ، وليس ببعيد أن يكون الأمل قد داعب العازوري ورفاقه أن تلعب فرنسا رغم كل شيء دوراً ايجابياً في مستقبل العرب القريب .

كان العازوري لا يخفي تخوفه او على الأقل تحفظه بالنسبة للاقليات رغم دعوته الى تعريب الكنيسة ، والى رحابة القومية العربية التي تجمع بين المسلم والمسيحي على قدم المساواة ـ كما قال بنفسه ـ فكان يبدي ارتياحه الضمني لنظم الامتيازات الاجنبية ، ويدعو لاحترام الحكم الذاتي في لبنان والأماكن المقدسة والأمارات المستقلة في اليمن .

وهذا ما اوقعه في بعض التناقضات في نظرته القومية الشاملة مما يؤيد عدم وضوح الفكرة القومية عنده ، او على الأقل كان يترجح بين قوميته وطائفيته في هذا الجانب ، مما ينبهنا الى تناقض آخر بالنسبة لهذا الموضوع ، في انه كان ماسونياً ، والماسونية طريق تؤدي في نهايتها الى التناقض في الدعوة مع القومية العربية . وفي تصوري أن الماسونية ، لم تكن حينذاك واضحة بالنسبة للمفكرين العرب ، ولم يكن الوعي العربي في ابعاده الشمولية قد انطلق بعد .

ان الغائب الوحيد في الموضوع كله كان شعوب المنطقة الناطقة بالضاد ، ويبدو أن المصلحين الوطنيين ـ فيما عدا جمال الدين الافغاني ـ لم يحسبوا لهؤلاء الذين يريدون تحريرهم حساباً ، فقد تجاهل هؤلاء جميعاً جماهير الامة العربية واتجهوا الى الجزيرة العربية باحثين عمن سيتولى الزعامة في المنطقة العربية التي افترضوا أن الأتراك سيغادرونها .

ان النقد التحليلي لأحداث اوائل هذا القرن في بلاد الشام يبدو تجنياً بعض الشيء اذ يرى الأشخاص والأشياء والاحداث بمنظار سبعينات هذا القرن وفي ضوء مفاهيم ما كانت لتخطر للمشاركين في وضع الاحداث آنذاك ببال ، ثم إنه من السهل اليوم وبعد أن انقضى على تلك الاحداث والافكار ما يزيد على نصف القرن الصاق حسميّات وخلق روابط بين احداثيات وإدانة وتجيد شخصيات .

إن عذر الدارس يبقى على أي حال ان المشاكل التي كانت مطروحة انذاك ما تزال في

اكثرها مطروحة اليوم تبحث عن حلول ، وبكلمة اخرى : إن ايجابيات وسلبيات الامس صنعت ما نعيشه اليوم ولا مفرٌ من اصدار أحكام تبدو احيانا تقويمية وأحيانا اخرى غير مبررة موضوعياً ، الاّ أن ذلك لا يمنع من أن يكون للرجل دوره ، وهذا الدور يقدرّ بظروفه وبزمانه . ومن هنا تأتي اهميته بالنسبة لنا .

وتبقى بعد هذا كله لنجيب عازوري ، جديته ، وعصريته جديته في النضال من اجل فكرته ، وعصريته في التأكيد على الخطر الصهيوني وفي طرح حلول لمشكلات ـ ان لم تكن كلها موفقة ـ فهي على الاقل جريئة وجذرية وتستحق من العرب اكثر من وقفة تدبُّر.

ان اقدام الدكتور احمد بو ملحم على دراسة كتاب نجيب العازوري « يقظة الامة العربية » كشفت لنا بعض الحقائق الجديدة التي حدثت في بدء القرن العشرين ، وقدمت منهجاً فكرياً مرحلياً في النظر الى القومية العربية ، وفصلت اجزاءه وبيّنت مراميه ، هي خطوة طيبة ، ذات نفع علمي ووطني وعربي ، فيها جهد ، وفيها وعي عميقين .

زاهية مصطفى قدورة
عميدة كلية الآداب
في الجامعة اللبنانية

مقدمة

حدا ني على دراسة كتاب « يقظة الامة العربية » الذي وضعه نجيب عازوري في مطلع القرن الراهن ، وعلى تعريبه حوافز عديدة منها :

١)كون نجيب عازوري أحد المواطنين القريبين مني .

٢) كونه مغمورا ، بالرغم من الدور الكبير الذي لعبه في التهيئة للثورة العربية الكبرى ، كداعية وحلقة اتصال بين العرب والاوساط الاوروبية .

٣) قيادته لحركة استقلالية ، اعتبرت احدى حركتين استقلاليتين كبيرتين في الوطن العربي .

٤) كونه من الرواد القوميين الاوائل الذين حاولوا فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية .

٥) كونه أول من دعا لتأسيس حزب قومي عربي ، أطلق عليه اسم « جامعة الوطن العربي » .

٦) كونه أول من استشف الخطر الصهيوني ، وتركزت معظم مؤلفاته حول هذا الخطر .

٧) لم يكن هدفه التوجه الى النخبة من الشعب فقط ، وانما « تنوير كل الناس في مسألة ذات فائدة للجميع » .

٨) لم يكن هدفه ليجد أي تعارض بين مسيحيته من جهة وانتمائه العربي من جهة أخرى ، فلقد فهم الحكم الذاتي في لبنان ومصالح الدول الاجنبية الكبرى المتداخلة في بلادنا .

لذا يمثل بحثي فائدة مزدوجة ، وطنية وعلمية ، وذلك بكشفي عن مواطن مجهول ، ووجه جديد في عالم الفكر .

***

توطئة تاريخية

موطن الكاتب

لابـد للباحـث من التطرق الى الوسط الجغـرافي والاقتصـادي والاجتماعي والثقافي الذي ينتمي اليه الاديب موضوع البحث ، لانه لا توجد حقيقة معلقة في الهواء لا تشدها الى الواقع أواصر متينة . ونجيب. عازوري هو ابن بلدة عازور في منطقة جزّين هذه المنطقة التي ترتبط ارتباطا مباشرا ببلاد بشارة ، التي تؤلف جنوب لبنان وشمال فلسطين . لقد كانت هذه المنطقة ترزح تحت ظروف قاسية ، فمساحتها[١] لا تزيد على ثلاثمائة وأربعين كلم٢ ، وعدد سكانها لا يتجاوز الخمسة آلاف نسمة في مطلع القرن العشرين . وأما قراها فهي مائة وقريتان ، بينها احدى وخمسون قرية تعود لعائلات اقطاعية ، وثلاث وأربعون قرية تتوزعها ملكيات صغيرة[٢] .

اذن قلّة من الاشخاص تمتلك معظم قرى المنطقة ، مما أفسح المجال لفقر مدقع ، دفع بالجزينيين للهجرة والنزوح نحو فلسطين خاصة والى البلاد العربية وأرجاء العالم بشكل عام . مما جعل السيد ديمارج يعلن في رسالة له : « أننا نسير من سيء الى أسوأ ، واننا نخاف أن يتحول لبنان الى صحراء مقفرة[٣] لا صناعة فيها ولا تجارة ، والزراعة متخلفة والارض جبلية ، فمن أصل ٣٦,٣٪ من الاراضي الصالحة للزراعة ، لا تزيد نسبة الأراضي المروية على ٢,٤٪ ، لا يجب ان يتبادر

الى الاذهان وجود أرض مسطحة أو جلول واسعة ، فمعظمها جلول صغيرة لا يقوى الفدّان على الدوران فيها بسهولة ومعابير تترب لتزرع » .

لقد شكلت زراعة التبغ وتربية دودة الحرير المصدرين الرئيسين للمداخيل بالنسبة للقرويين الجزينيين خاصة ولسكان جبل لبنان عامة .

وفي مطلع القرن العشرين تركت زراعة التبغ حرة ، فخضعت لسيطرة أصحاب « المعامل »[٥] ، مما زاد في قساوة الاحتكار والاستغلال ، وبالتالي الفقر الذي أدى الى الهجرة . يقول شراباتي : « لم تكن هجرة المسيحيين هربا من الظلم فقط ، ولكن كانت لها دوافع اقتصادية »[٦] .

والهجرة هجرتان : واحدة قريبة الى فلسطين ومصر[٧] ، والاخرى بعيدة الى افريقيا وأميركا .

أما من الناحية الفكرية والثقافية ، فلقد تكاثرت المدارس في كل قرية ، حتى لتجد أكثر من كتاب في كل قرية : « قليلة جدا هي القرى المسيحية في الشرق التي ليس فيها مدرسة كاثوليكية وأخرى بروتستانية ، ولربما اثنتان أو ثلاثة لكل مذهب »[٨] .

وقريتنا ، التي لم يكن يزيد عدد سكانها في مطلع القرن العشرين على مائتي نسمة ، احتضنت أبناءها مدرستان ، وتنافستا على استقطاب الاهالي ، بالاضافة الى مدرسة ثالثة تعلم التركية في قرية عرمتى الملاصقة لقريتنا ، حتى بات معظم الكبار في السن يحسنون القراءة والكتابة[٩] .

أما من الناحية السياسية ، فقد عمّت الجمعيات المختلفة المؤلفة

من المسلمين والكاثوليكيين في البلاد ، تطالب بالاصلاحات[١٠] ، وتبلورت ثلاث اتجاهات للحركات السياسية ، توزعت كما يلي : حركة اسلامية ، وحركة عثمانية ، وحركة قومية[١١] .

القدس : مركز عمل نجيب عازوري

قسّمت فلسطين الى ثلاث ادارات ، جزئت كل منها الى حكومتين ، ما عدا القدس « بسبب مسألة المقدسات » ، اندمجت في حكومة واحدة ارتبطت مباشرة بالقسطنطينية[١٢] ، أما حكومتا نابلس وعكا فارتبطتا بدمشق وبيروت .

وصفت املي فرنسيس نيوتن بيتا فلسطينيا فقالت : « اقتصر البيت على غرفة واحدة سقفها من الطين والخشب ، وارتفع قليلا في هذه الغرفة حائط ، تجتمع العائلة في المساء لتناول العشاء ، وهي الوجبة الدسمة الوحيدة » .[١٣]

ويضيف أحد أبناء شيوخ المنطقة فيقول : « كان لكل أهل القرية بذلة واحدة أنيقة ، يرتديها من يشاء القيام بزيارة قرية او مسؤول »[١٤]

الحياة السياسية : في فلسطين

خيّم جوّ من عدم الرضى على حكم الوالي التركي الذي كان يبيع أرض العرب للصهاينة والوكالة اليهودية التي استقدمت ألف وخمسمائة يهودي روسي ، وقد وفّرت هذه الصفقة لجيب الوالي مبلغ ثلاثة ملايين[١٥] .

نلاحظ حتى سنة ١٩٠٧ هجرتين صهيونيتين : الاولى في سنة ١٨٨٢ ، عندما أرسلت حركة بللو عشرين يهوديا شكّلوا طلائع الهجرة الصهيونية الاولى والثانية في سنة ١٩٠٥ - ١٩٠٧ بامرة دافيد بن

غوريون واسحاق بن زفي . وبالتالي زاد عدد اليهود الذي لم يتجاوز خمسين ألفا في سنة ١٨٩٧ الى خمس وثمانين ألفا في سنة ١٩١٤[١٦] .

شعر الفلسطينيون بالخطر عندما رأوا أن الصهاينة يجدون كل الدعم[١٧] ، ولقد وصف نجيب عازوري وضع كل من الصهاينة والفلسطينيين فقال : « من جهة النزاع وعدم التنظيم والجهل والبؤس ، ومن جهة أخرى الاتحاد والغنى والمركزية والعمل الموجه بفكرة واحدة فقط تبعا لبرنامج صمم سلفا »[١٨] .

أما الحالة الفكرية فحدّث ولا حرج : لا وجود لمكتبات عامة ولا خاصة وعدد المدارس قليل ، وكذلك عدد التلاميذ . يتردد الى مدارس الارساليات الاوروبية نحو مائة الف طالب في لبنان وسوريا وفلسطين من اصل ثلاث ملايين وستمائة الف نسمة وهو عدد سكان هذه البلاد[١٩] .

مصر : ملجأ نجيب عازوري

أطاحت ثورة ١٩٠٨ بعبد الحميد ، ولكن الصراع بين العرب والعثمانيين لم ينته ، وأول ما قام به الاتراك ، هو ابعاد نجيب عازوري عن البرلمان ، فحكم عليه بالاعدام وهُرب الى القاهرة . وكذلك فعل جميع الشرفاء الذين لم يستطيعوا احتمال الاستبداد العثماني ، اذ هاجروا الى مصر ، حيث نعموا بحرية نسبية للنضال ضد العثمانيين . وأصدر اللاجئون الى مصر المجلات والجرائد : كمصر والاهرام والمقتطف والهلال ، وأسسوا الجمعيات والاحزاب وأقاموا العلاقات مع السفراء والدول الاجنبية . ومن بين هؤلاء نجيب عازوري .

شخصية نجيب عازوري : توفي عام ١٩١٦

ولد في عازور ، قرية صغيرة في جنوب لبنان ، والده جريس حنا عازوري وأخوه الاب يوسف اللعازري المدرس في كلية عينطورة الشهيرة . ابنته كورناليا الني تزوجت من يوسف اللحام ، وجيه من غزه . وابنه انطوان ، وقد عمل كمفتش لدى البعثة العلمية الامريكية في بني غازي[٢٠] .

التحق بمدرسة الفرير في بيروت وتابع دراساته العليا في العلوم السياسية في باريس ، حيث حاز على الدبلوم وهو لم يتجاوز العشرين من عمره ، من مدرسة الدراسات العليا .

يتحدث أجن جنك الكاتب والدبلوماسي الفرنسي عن ذكائه[٢١] ويعرف به جورج أنطونيوس[٢٢] فيقول : « عربي مسيحي ، باشر نضالاته في السنوات الاخيرة من عهد عبد الحميد » .

تبوأ بمساندة الاخوين ملحمة عضوي مجلس « المبعوثان » والبطريرك حايك منصب مساعد حاكم القدس ما بين ١٨٩٨ - ١٩٠٤ .

اعتزل منصبه سنة ١٩٠٤ ليتفرغ للعمل السياسي الهادف الى تحرير الاقطار العربية من الاستعمار العثماني .

أصدر في باريس مجلة « الاستقلال العربي » L'indePendance Arabe بالفرنسية التي استمرت في الصدور من آذار ١٩٠٧ حتى حزيران ١٩٠٨ ، وقد اطلعت عليها بنفسي في المكتبة الوطنية في باريس .

على أثر سقوط السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨ ، قرر نجيب عازوري العودة الى فلسطين لخوض الانتخابات ، الاّ ان الاتراك حكموا عليه بالاعدام لأنه « قام بنشاطات تمس أمن الدولة » وذلك بغية ابعاده عن البلاد فهرب الى القاهرة . وترأس في القاهرة تحرير جريدة يومية « مصر » Le quotidien d'egypte وأسس محفلا ماسونيا على طريقة L'ecossais ولكن بهدف مشابه للكربوناري أي تحرير الوطن .

أصابته سدادة دموية وتوفي على اثرها في حزيران ١٩١٦ .

مهامه ونشاطاته وموقف العثمانيين منه :

يمكننا تمييز ثلاث مراحل في حياة نجيب عازوري :

نشأته : التي تمتد من ولادته حتى سنة ١٨٩٨ ، ولا نعرف عنها تفاصيل كثيرة ، كل ما نعرفه أنه تلقى علومه الابتدائية والثانوية في مدرسة الفرير في بيروت ثم تابع تحصيله العلمي العالي في باريس بمساعدة الاخوين ملحمة المندوبين الى «مجلس المبعوثين» .

وهذه المرحلة لعبت دورا كبيرا في حياته المقبلة ، اذ انه تشبع خلالها بروح التحرر القومي والعدالة والتشبث بالحرية ، أما المرحلة الثانية وتمتد من ١٨٩٨ - ١٩٠٤ ، فكانت مرحلة المعاناة، بعدما لمس بيده وعايش الاستبداد والقهر والظلم العثماني على العرب . كيف لا وقد كان نائب حاكم القدس ، والقدس كانت وما زالت محط الانظار وساحة الصراع وملتقى الاضداد .

والمرحلة الثالثة ١٩٠٤ - ١٩١٦ : فكانت مرحلة العطاء الخصب والنضج والحركة الدائمة . وسوف نقصر الحديث حول مهامه ونشاطاته

في تلك المرحلة ، ونبحث فيها بالاهم فالهام .

١ ـ النشاطات السياسية :

لعل أكبر دور لعبه العازوري هو تأسيس حزب قومي عربي أسماه حزب « جامعة الوطن العربي » وأغلب الظن أن تأسيس هذا الحزب تم في سنة ١٩٠٤ بعدما أعد له خلال السنوات الاربع التي سبقت اعلان الولادة ، مما حمل الدولة العثمانية على الحكم عليه بالاعدام . وان مبادىء هذا الحزب لخصها النداء القومي المشهور الذي صدر عن المؤتمر العربي الاول المنعقد في باريس سنة ١٩٠٥ ، والذي حرره نجيب عازوري بالذات . يقول هذا البيان : « ان امبراطورية عربية او اتحاداً كونفدرالياً للاقطار العربية سيضمن ازدهار الملايين وسعادتهم ويضع حداً للإضطهاد الذي يمارسه الموظفون الاتراك ، وتسمح ببعث الحضارة القديمة التي الّقت العربية في القرون الوسطى . نريد بوحدتنا أن نحكم أنفسنا بأنفسنا ، بلغتنا ، وحسب عاداتنا »[٢٣] .

بدأ نشاط الحزب بالظهور منذ سنة ١٩٠٤ ، وتلاحقت نشاطاته في سنة ١٩٠٥ ، وبلغت ذروتها في الشهور الاولى من سنة ١٩٠٦ ، اذ ازدادت الامال المعلقة على هذه « الجامعة » التي يلعب فرعها في باريس دور حثّ لاوروبا للالتفات الى شعب يناضل من أجل حريته .

أما تأسيسه لمحفل ماسوني في القاهرة على غرار الكربوناري ذي الاهداف التحررية الوطنية فيعكس تأثره بالحركة القومية الايطالية التي استطاعت توحيد ايطاليا وما لبث هذا المحفل أن انتشرت فروعه في جميع الاقطار العربية ، حيث ضمّت الامراء وابناء العائلات الكبرى والطلاب[٢٤] .

ولا يخفي نجيب عازوري اتصالاته بالدول الكبرى ، فهو يصرح حينا بانه لا يمكننا بلوغ التحرر والوحدة الا بمساندة هذه الدول عبر حيادها .والظاهر ان تجربة ابراهيم باشا في التحرر من سيطرة الاتراك لم تزل ماثلة امام عينيه لذلك يقول : « نحن لا نطلب من الدول الكبرى ان تقوم باي تضحية لنا ، وان تقدم على اي خطوة مسلحة من اجلنا ، فقط اننا نرجو الدول المستنيرة والانسانية في اوروبا وامريكا الشمالية ان تساعد حركتنا بفضل حيادها فقط وتشجعنا بعطفها فاننا لعارفون كيف نبلغ بقضيتنا المقدسة والمجيدة الى حسن الختام »[٢٥] .

وهو دائم الحركة فمن اتصال مع القائم باعمال ايطاليا الى مقابلة مع قائد القوات البريطانية في مصر ماكسويل الى زيارات للسفير الفرنسي .

اما في الصحافة ، فلقد كان من المجلين . بدأ يتعاطى الكتابة ، بمساعدة السيد لاتليه *Letlellier* والسيد هنري سيمون ، وفتحت *L'echo de Paris* و *Le Figaro* و *La Liberté* صدورها لمقالاته ابتداء من عام ١٩٠٥ وبعدها اصدر « مجلة الاستقلال العربي » بدءا من نيسان ١٩٠٧ حتى حزيران ١٩٠٨ التي « استهدفت التعريف بقضايا الشرق ، ولقد كانت المجلة جد مقروءة في الخارج » .

وبعد انتقاله الى مصر أصبح مدير جريدة يومية « مصر » فترة من الزمن ، الا ان جلّ اهتماماته في مصر كانت تنظيمية ، سواء منها تنظيم المحافل الماسونية أو المؤتمرين ، المؤتمر العربي الاول سنة ١٩٠٥ ، والمؤتمر السوري العربي سنة ١٩١٣ ، أو في مجال تأمين السلاح وايصاله الى الثوار . فلقد جاء في احدى رسائله ، أنه طلب مائة ألف

قطعة من نوع «Wetterli» مع مائتي خرطوشة لكل منها ، ولم يكتف بذلك بل قرر الانتقال بنفسه الى سوريا لحمل السلاح بوجه الاتراك . وهذا واضح في رسالة بعث بها الى آجن جنك جاء فيها : « مما لا شك فيه أن شريف باشا هو أفضل صديق لي ، ولكنني لست أكيدا من سفره معي الى سوريا لقتال الاتراك »[٢٦] . ولكن يظهر ان الموت اختطفه قبل أن يحقق أمنيته في القتال ضد الاتراك .

أما موقف نجيب عازوري من اللامركزية ، فيدل على تكتيك هادف ووعي متقدم يقول ، انه هو الذي حثّ على طرح برنامج اللامركزية في الصحف والمجلات الفرنسية وهو الذي دفع باتجاه اقامة رابطة القاهرة ، بهدف فتح العيون على الاكثر تعصباً. اذ لم ير تناقضا بين حركته القومية واللامركزية ، فلنسمعه يفسر بنفسه تكتيكه : « هو تكتيك بمواجهة الذين يعتقدون بأن انفصال العرب عن تركيا سيضر بالاسلام . هذه الحركة لن تؤدي الى أية نتيجة ، لان الاتراك لن يوافقوا أبدا وبالتالي سيتولد صراع انفصالي واذا وافقوا ستكون عدم الثقة في التنفيذ ، والنتيجة واحدة لصالحنا »[٢٧] . فنجيب عازوري دبلوماسي محنك يضع التكتيك في خدمة الاستراتيجية .

يصفه صديقه آجن جنك في كتابه «الثورة العربية» فيقول: «في لندن والقاهرة وباريس كما في جميع المحافل الديبلوماسية اعترف بأهمية دوره » .

ويعزو جورج انطونيوس في « يقظة العرب » فشل نجيب العازوري الى أنه ركز اهتماماته على الخارج جاليات ومحافل دولية[٢٨] ونحن نعتقد أنه عندما حكم عليه بالاعدام في الداخل لم يجد خيارا الا النضال في الخارج .

مقولاته وكتاباته :

وضع نجيب عازوري عددا من المؤلفات لم يصلنا منها سوى كتاب واحد هو « يقظة الامة العربية » ، الذي عرّبناه . أما الكتب الاخرى التي ذكرها هو بنفسه وذكرها صديقه آجن جنك في « الثورة العربية » ، فاننا لم نعثر عليها حتى في المكتبة الوطنية في باريس ، ويظهر ان الصهيونية العالمية قد أخفت هذه الكتب بسحبها واتلافها . وهذا ثبت بكتبه :

١) يقظة الامة العربية .

٢) الوطن العربي : دراسة معمقة للوضع الراهن ودراسة مستقبل الاقطار العربية الآسيوية .

٣) الخطر اليهودي العالمي ، تصريحات ودراسات سياسية .

٤) الدول الاجنبية ومسألة المقدسات المسيحية في الارض المقدسة ، خلاصة تاريخية وعرض للوضع الراهن .

بالاضافة الى مقالات وأبحاث في مجلة « الاستقلال العربي » والجرائد الفرنسية .

مقولاته :

الفكرة الرئيسية هي ضرورة وعي العرب لقوميتهم ، وضرورة فصل الدين عن الدولة ، باقامة خليفة لكل المسلمين من سلالة النبي يمارس سلطاته الدنيوية في الحجاز وسلطته الدينية على جميع مسلمي العالم . كما أن عازوري كان من أنصار اللامركزية يدعو لاحترام

الحكم الذاتي في لبنان والأماكن المقدسة والامارات المستقلة في اليمن ويؤمن بأن الاستقلال العربي سيؤدي الى تحرر مختلف شعوب العالم ونيل استقلالنا بالاعتماد على أنفسنا عن طريق الكفاح المسلح ، أما الدول الكبرى فيكفي أن تقف على الحياد في هذا الصراع لنبلغ امانينا في الاستقلال والوحدة . وينبه الى الخطر الصهيوني وحتمية الصراع معه فيقول : « ظاهرتان هامتان ، لهما نفس الطبيعة بيد أنهما متعارضتان ، لم تجذبا انتباه أحد حتى الان تتوضحان في هذه الآونة في تركيا الاسيوية أعني : يقظة الامة العربية وجهد اليهود الخفي لاعادة تكوين مملكة اسرائيل القديمة على نطاق واسع ، مصير هاتين الحركتين هو أن تتعارضا باستمرار حتى تنتصر احداهن على الاخرى . وبالنتيجة النهائية لهذا الصراع بين هذين الشعبين اللذين يمثلان مبدأين متضاربين يتعلق مصير العالم بأجمعه . وليس للمرة الاولى على كل حال تناقش في الاقطار العربية مصالح اوروبا في حوض البحر المتوسط لأن هذه المنطقة تصل بين ثلاث قارات وثلاثة بحار ، كانت على مدى عهود متفاوتة مسرحا لاحداث سياسية أو دينية قلبت مصير الكون »[٢٨] .

هذه رؤية تكاد تكون نبوءة عميقة وجذرية وشاملة .

ويرد على منطق الصهاينة بحقهم باقامة دولة عنصرية لهم على تراب فلسطين معتمدين على تفسير حرفي ومادي للتوراة فيقول : « ان التفسير الظاهري والحرفي الذي يقتصر عليه اليهود يجعل هذا الكتاب خطيرا ولا أخلاقيا ، يشكل ادانة رهيبة بينما المعنى المجازي والروحاني الذي يضفيه اللاهوتيون المسيحيون على قصص التوراة أخلاقي تماما ويرفع كثيرا من قيمة العهد القديم »[٢٩] .

لاشك أن أفكار نجيب عازوري شكلت منارات لاحزاب

تولد من اصطراعها الوعي العقائدي . مما لاريب فيه أن « وحدة الهلال الخصيب » كانت من بنات أفكار نجيب عازوري ، مع عدم نسيانه لارتباط هذا الهلال العربي بالشطر الافريقي العربي عندما يوصي بضرورة تنصيب أحد أفراد العائلة المالكة الخديوية المصرية أميرا على بلاد الشام ليتسنى الجمع والتنسيق بين الشطرين الاسيوي والافريقي . أما العلمنة فأنها أمنية لا زالت تراود نفوس العرب .

السياسة الدولية :

بعد الوصف الممتع لفلسطين من كافة النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية يعالج نجيب عازوري ، بثاقب نظره ، الاوضاع الدولية لما لها من علاقة وثيقة بالاوضاع المحلية في الوطن العربي .

ان معالجة نجيب عازوري تكشف عن حس مرهف ونظرة شاملة وبعد في التفكير قلما توافرت في مفكر وسياسي عاش في تلك المرحلة فهو يشرف من علٍ ، فتبدو ساحة الصراع واضحة المعالم ، ويبدو اللاعبون بحيلهم ومراميهم القريبة والبعيدة بأتم صورة .

لم يعد تفسير العلاقات بين المجتمعات والدول قائما على تخيلات وأوهام ونزوات ، بل هو تفسير علمي قائم على كشف كنه المصالح الاقتصادية لتلك الدول والمجتمعات . لذا نرى نجيب عازوري يثور في وجه هؤلاء الذين يعتبرون أن كل سوريا لا تعادل خمسة من مباني الوزارات الفرنسية ، ويبين أن هذه الرقعة أغنى بكثير من فرنسا وبريطانيا وروسيا والمانيا والنمسا والكرسي الرسولي والولايات المتحدة الامريكية وأخيرا تركيا .

السياسة الروسية :

تشكل وصية بطرس الاكبر السياسية البرنامج الذي يفسر السلوك الروسي منذ القرن التاسع عشر حتى اليوم . فما هي نقاط البرنامج الاساسية :

اتجاه روسيا نحو كريستانيا وكوريا والدردنيل لحرمانها من أي اتصال مباشر مع البحار والمحيطات : الاطلسي والهادي والمتوسط . وبالتالي بات الاستيلاء على القدس وسيناء أهم من الاستيلاء على الهند . هذا بالاضافة الى عامل ديني يخدم مطامعها الاقتصادية . اذ كرّست روسيا نفسها لرسالة إلهية بتجسيدها للارثوذكسية لاتمام نبوءة الانجيل عندما يتحدث عن صراع واحد وقطيع واحد . وما الراعي الواحد سوى القيصر ابن الشمس والقطيع الواحد هو مختلف الشعوب التي يتسنى للروس السيطرة عليها[٣٠] . والاستيلاء على فلسطين ، مهبط المسيح ومسرح أفعال في حياته ومعجزاته المختلفة ، يعطي القيصر وروسيا رفعة وسحرا .

الا أن الخلفية الاستعمارية كانت واضحة من خلال سياسة الاحتواء الشديدة العنف التي مارستها روسيا على الشعوب المغلوبة ، والتي تجسدت بضرورة التحدث باللغة الروسية .

دأبت روسيا للوصول الى غايتها بالاستيلاء على فلسطين ، على تضخيم تعسف الكهنة اليونانيين أمام أعين الرعايا وزيادة الاستياء والاعتراضات وزيادة الوعي عن طريق ارسال شبان عرب للتعلم في موسكو ، فعاد هؤلاء يحملون فكرا تحرريا ومقاوما للسيطرة اليونانية وللاستعمار التركي الذي يحضن السيطرة اليونانية .[٣١]

وبالنهاية لخص أحد الدبلوماسيين الروس في مؤتمر برلين الخيارات المطروحة فقال : « التمزق أو الاستقلال . . التمزق مستحيل أما الاستقلال فأمر سهل عادل ومنطقي »[٣٢] . ويدعو نجيب عازوري الروس لكي يأخذوا بالخيار الثاني ألا وهو ضرورة دعم الاستقلال وعدم اضمار الحلول مكان المستعمرين .

السياسة البريطانية :

تتلخص سياسة بريطانيا بأنها : تمثل النقيض للسياسة الروسية ، وتأتي الثانية بعدها في الاهتمام بالمسألة الشرقية . فمن ناحية التعامل مع الشعوب المقهورة يتميز الاسلوب الانكليزي بالتغلغل بالوسائل السلمية والبطيئة لفرض حضارتهم ولغتهم على مستعمراتهم بدل العنف ، ويحترمون مؤسسات وتقاليد البلاد التي يسيطرون عليها ، ويتركون القوانين القديمة سارية المفعول ، ويتركون الموظفين القدماء ويهيئون قيادة جديدة تبدو وكأنها تنبعث من ارادة الاهلين . يولون مواطني البلد الوظيفة التي تضع صاحبها في احتكاك مباشر مع الشعب ، فلا يشعر الشعب الخاضع بثقل وصاية من أخضعه . وتهدف السيطرة الانكليزية الى اثراء الامة وليس الى توظيف بعض الافراد الانكليز ، يساعدهم على ذلك توفر الخبرة والعلم والرساميل الضرورية بالنسبة الى المواطنين الفقراء المتخلفين[٣٣] .

تتمثل أهداف الاستعمار الانكليزي بالابقاء على الهند وعلى وحدة الصين تجاه التوسع الروسي ، وتنمية ممتلكاتها الافريقية بغية الحلول مكان الهند فيما لو انتزعت منها ، ولن يتم لها ذلك الا بالسيطرة على جبل طارق ومالطة ومصر وقبرص وعدن والا تصبح تحت رحمة أول غازٍ .

يرى نجيب عازوري ضرورة التصدي للروس ، ليس لانهم أسوأ من الاتراك ، بل لانهم أقوى وأخطر ، وهو لا يغفل عن أخطار السياسة الانكليزية التي تقوم على دعم أي جهود تواجه التوسع الروسي ، وهي بالتالي ترى نفسها حليفة للباب العالي ومحافظة على وحدة أراضي السلطان وعلى الاوضاع المتخلفة في الامبراطورية التركية .

ولكن الامل يشع دائما في روح نجيب عازوري فيقول : « من بين هذه التناقضات استيقظت مختلف الامم الخاضعة للسلطان ووعت ذاتها وهي تحلم بالاستقلال ، يتهيأ الارمن والاكراد والعرب معا لخلع عبودية الاتراك الممقوتة بغية تكوين ممالك حرة دستورية[٣٤] » .

سياسة فرنسا :

تتباين الادوار بين الدول الكبرى فبينما تتبع روسيا الفكرة الدينية « نشر الارثوذكسية » ، تجعل فرنسا من نفسها رسولا نشيطا متحمسا للفكر الحر ويتوسط الانكليز الذين يتميزون باللامبالاة الكلية حيال كل ما يتعلق بالاخلاق والروح والحفاظ على الاديان والطوائف والمؤسسات الغريبة والعجيبة حتى يسمح لها بالعمل على قدم المساواة ، وتخضع للقوانين ذاتها على جميع أراضي الامبراطورية البريطانية الشاسعة التي تشكل مملكة الحرية المطلقة . اذن تلعب فرنسا أجل الادوار .

ولفرنسا ارساليات ورؤوس أموال ضخمة ، بالاضافة الى امتياز حماية الكاثوليك « قليلة جدا هي القرى المسيحية في الشرق التي تخلو من مدرسة كاثوليكية أو بروتستانتية أو من اثنين أو ثلاث لكل طائفة » .

وبفضل فرنسا ومنافسة الدول الاخرى لها في مضمار التعليم :

« أرسل الارثوذكس والمسلمون أولادهم الى المدارس أسوة بالكاثوليك » . هكذا نجد اليوم أناسا مثقفين واعين وبتنا نعي قوميتنا . . ونبغ بفضل تعليم اليسوعيين والقساوسة الامريكيين كتاب معاصرون مشهورون وتألقت اللغة العربية . . »[٣٥] .

تتفق سياسة روسيا وفرنسا في أوروبا ، ولكنها تتباين في الشرق . وذلك لان « الامبراطورية العالمية ستخضع للامة التي تحسن ايجاد أكبر الاسواق وأفضلها ، وعلى العكس من ذلك ، مع الاسف بالنسبة للذي لا يعرف كيف يهيء لصناعته تصريفا كافيا اذ سيكون الضحية الاولى لثورة اجتماعية وغزو أجنبي »[٣٦] .

الا أن نجيب عازوري ينسى نفسه فيندفع بالقول : « لا يملك أحد الحق في حكمنا غير فرنسا ، ولن يهتف بحرارة لاية دولة غيرها في الاقطار العربية يوم يتقرر تجزئة الامبراطورية التركية . . »[٣٧] . الا أنه يتابع بعدها مباشرة ، ويرفع الصوت بأن الوسيلة للتغيير هي في الانفصال عن الشجرة النخرة ، ويعبر عن ثقته بأن فرنسا ستتعاطف مع مشروعنا في التحرر والاستقلال . وليس هذا فقط ، فهو يعتبر أن للعرب رسالة خالدة في تحرير كل العالم إذ يقول : « ان الطاغي الذي ذبح الارمن لن يتمكن على الاطلاق من أي أمر ضد العرب ، والاتراك ، والارمن ، مجتمعين مع الالبانيين والبلغاريين ؛ ولن يكون هذا التكتل ضروريا ، فمجرد أن يرفع العرب العلم الوطني ، يختفي الاتراك وتسترد الامم المسترقة حريتها ،وتنحني الدول الأوروبية المستنيرة أمام الامر الواقع »[٣٨] .

سياسة المانيا والنمسا :

ليس للنمسا مطامع في ممتلكات السلطان الآسيوية ، ولكنها تتطلع نحو تركيا الاوروبية . وأما المانيا فهي تتهيأ لتحل مكان سلالة همبورغ المتداعية . بحيث تتسرب البضائع والتأثير الالماني خلال الوجود النمساوي في تركيا الاوروبية فيما تلحق المنتوجات المصنعة في مملكة النمسا ـ هنغاريا ، انتشار التأثير الالماني في تركيا الاسيوية . هكذا تتبادل المانيا والنمسا المصالح .

لقد فكر غليوم الثاني بأن فرنسا « تستطيع أن تتحمل بدون عناء قيام دولة ثالثة كحاجز في البلدان العربية ، حيث تمتلك حقوقا غير منازعة ، لتبعد جارا خطرا وصديقا مزعجا غازيا . وهكذا تستفيد المانيا في آسيا بشكل عجيب من التحالف الفرنسي الروسي الموجه ضدها . ان اقامة مصالح المانيا في البلاد العربية ليس بهدف احتلالها بعد فترة ولكن لإنتزاع تنازلات من الأطراف التي لها مصالح منتظرة في آسيا الصغيرى .

وينتهي نجيب عازوري من تحليل سياسة المانيا الى ضرورة عدم الأخذ بالقشور من الامور بل بضرورة النظر الى الجوهر . فعلى الرغم من اظهار امبراطور المانيا الصداقة مع عبد الحميد الا أنه لم يخف امتداحه للجيوش العربية التي استعرضها في دمشق سنة ١٨٩٨ ، وهي الرثة الثياب ، في حين انه لم يوجه كلمة ثناء واحدة للجنود الاتراك المزينين بالذهب والفضة التي قامت بمناورات أمامه في القسطنطينية ، ووضع اكليلا من الزهر على ضريح العربي صلاح الدين ، بينما قدم كلبا وعصا لسلطان الاتراك . أمام هذه الشواهد ، نستطيع الاعتقاد بأن استقلال البلدان العربية سيحظى بعطف غليوم الثاني[٣٩] .

سياسة الولايات المتحدة الامريكية :

المنطلق هو سياسة الاحسان والعطف على الناس المضطهدين والبؤساء هكذا يرى نجيب عازوري السياسة الامريكية تجاه العرب ، ولا ننسى الفترة الزمنية المتقاربة التي كتب خلالها المفكر ما كتبه . ولقد فسّر هجرة المتعلمين الى أمريكا بالضغوط التي يمارسها الاتراك ، لا الى حاجة المصانع الامريكية الناهضة الى المزيد من اليد العاملة .

ومع تطور الاحداث بدأ التوجه الامريكي نحونا يأخذ طابع الجد والعمل ، فمن انزال أمريكي مباشر خلال الاحداث في مطلع القرن العشرين . . الى وضع شروط مستمرة على السلطان لانتزاع مكاسب متلاحقة .

ان السلطان عبد الحميد ، الذي لا ينقاد الا بالقوة ، سرعان ما يتراجع ويغير الانظمة تبعا لما تتطلبه أمريكا . ويخلص الى القول بأننا ، نحن العرب ، يمكننا أن نأخذ بعين الاعتبار مؤازرة أمريكا المعنوية والدبلوماسية في اليوم الذي ننعتق فيه من عبودية الاتراك والشركس . ولم يستشرف نجيب عازوري التطور الاقتصادي العالمي الذي جعل أمريكا تقبض على زعامة العالم وتفتش عن أسواق لبيع بضائعها ، وبالتالي فان سياستها ستتحدد من خلال مصالحها الاقتصادية ، لا من خلال منطلق الاحسان والعطف .

سياسة الكرسي الرسولي :

تنبع أهمية سياسة الكرسي الرسولي من وجود المقدسات المسيحية في الوطن العربي ووجود كنائس ترتبط بروما وكنائس أخرى منشقة .

ولكن سياسة الكرسي الرسولي ادت الى نشوء الكنائس المنشقة . ان الانقسامات المذهبية شائعة جدا ، حتى لا تكاد تحصى . وتتحمل الادارة البابوية - الرومانية المسؤولية إذ « ارتكبت غلطة ضخمة ، عندما علّقت أهمية كبرى على بعض المسائل المذهبية التي لا معنى لها ، والتي لا يتأثر بها العالم أكثر من تأثره بالشعور القومي ، وجزأت سبعمائة وخمسين ألف نسمة لا تعادل مطرانية فرنسية صغيرة الى خمس بطريركيات وثلاث بعثات رسولية وسبع وثلاثين أبرشية ، لقد اعتمدت سياسة التفرقة في القطر الذي هو بأمس الحاجة الى الاتحاد »[٤٠] .

الحل في احلال مذهب كاثوليكي قومي عربي تتلى بموجبه الصلوات كلها بالعربية وأن تؤسس بطريركية خاصة لهذه الكنيسة الجديدة تحتوي كل المذاهب الاخرى في سنوات معدودة »[٤١] .

سياسة تركيا :

لكل الدول سياسة مرسومة لاقتسام الامبراطورية التركية ، ما عدا السلطان فليس له أي منهج مرسوم .

فالارهاب والمنفعة الشخصية والرشوة هي مميزات هذا النظام ، لقد اتبع عبد الحميد أسلوب الدسيسة لاستمالة شيخ الاسلام ، فأعطى شهادة تثبت جنون السلطان مراد واستنادا اليها خلع السلطان وتسلم عبد الحميد السلطة . رأس السلطة هذا يمضي كل وقته في دراسة التقارير الطويلة لجواسيسه ، واخفاء وتسميم الادباء ، كما حصل مع يوسف بك مطران والمعلم جمال الدين الافغاني . والصاق تهم القتل بمن يريد تصفيتهم والاستفادة من المناقشات بين الدول الكبرى لاقتسام

الامبراطورية . والسلطان ينحني أمام الاجانب بقدر ما يتغطرس أما رعاياه .

ان في هذا الفصل وصفا مفصلا للحياة الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية التي يعيشها الشعب ، وارهاصات لمشاعر الشعوب المضطهدة ، تعتبر وثيقة قيمة كتبت في تلك الفترة من قبل انسان عانى ما يعاني الشعب ! وتطلع الى ما يتطلع اليه الشعب ، وقد ورد مضمون اقتراحات المفكر في ما تقدم .

* * *

احمد بو ملحم

الهوامش

١) عبد الله عاصي ، صراعنا مع اسرائيل ، ص ١١٨ .

٢) الجريدة الرسمية رقم ٢٨ ـ ٦/ ٤/ ٦٧ ، احصائيات سنة ١٩٦٥ . مع الاخذ بعين الاعتبار أن الملكيات الاقطاعية اخذت بالتفتت منذ الحرب العالمية الأولى .

٣) خير الله خير الله ، المسألة الشرقية ، ص ٦٩ .

٤) عبد الله عاصي ، نفس المرجع ، ص ٢٣٣ .

٥) ادوارد غالب . التبغ وانتاجه ، ص ٢٩ .

٦) هشام شراباتي ، المثقفون العرب والغرب ، ص ٢٨ .

٧) لذا تكثر الفنادق القديمة في جزين ومنها الاهرام وفلسطين وغيرها من الاسماء المصرية والفلسطينية ، اذ كانت جزين تعتبر مصيف مصر وفلسطين المفضل .

٨) نجيب عازوري ، يقظة الامة العربية ، ص ١١١ ، الطبعة الفرنسية .

٩) مليخ وعرمتى ، قريتان من قرى جبل الريحان في منطقة جزين .

١٠) جن جنك، الثورة العربية ، (١٩٠٦ ـ ١٩١٦) ص ، ١٧ .

١١) هشام شراباتي ، المثقفون العرب والغرب ، ص ٤٣ .

١٢) اميلي فرانسيس نيوتن ، خمسون عاما في فلسطين .

١٣) مقابلة مع حسين بو ملحم (١٨٥٥ ـ ١٨٧٥) .

١٤) آجن جنك، الثورة العربية ، (١٩٠٦ ـ ١٩١٦) ص ١٧

١٥) عبد الوهاب الكيالي بتاريخ فلسطين الحديث ص ٣١ .

١٦) اميلي فرانسيس نيوتن ، خمسون عاما في فلسطين ص ١٤٧ نقلا عن جوقرس ص ٦٢١ .

١٧) نجيب عازوري ، يقظة الامة العربية ص ٤٤ ، الطبعة الفرنسية .

١٨) آجن جنك، الثورة العربية ، ١٩٠٦ ـ ١٩١٦ ، ص ١٢ .

١٩) *La revue du Libanet de L'orient* رقم ٨٦٧ تاريخ ١٦ آب سنة ١٩٧٥ .

٢٠) آجن جنك، الثورة العربية ، ص ١٧٢ .

٢١) أنطونيوس ، جورج ، يقظة العرب ، ص ١٧٢ .

٢٢) آجن جنك، الثورة العربية ، ١٩٠٦ ـ ١٩١٦ ، ص ٢٠ .

٢٣) نجيب عازوري ، يقظة الامة العربية ، ص ٣٠ الطبعة الفرنسية .

٢٤) آجن جنك، الثورة العربية ، ١٩٠٦ ـ ١٩١٦ ، الجزء الأول ص ٣٣ .

مع اعتقادي بأنه يصعب جداً التوفيق بين انتائه للماسونية ، بارتباطاتها مع الصهيونية ، وتوجهه

بشكل أساسي لمحاربة الصهيونية عبر مؤلفاته ونشاطاته السياسية في وقت لم تكن الصهيونية بحاجة الى ان تدس عناصر في حركة التحرر العربي لحرفها ، اذ ان هذه الحركة كانت ما تزال في دور التكوين .

٢٥) أجن جنك، الثورة العربية ، ص ١٠٩ .
٢٦) آجن جنك، الثورة العربية ، ص ٦١ (١٩٠٦ - ١٩١٦) .
٢٧) انطونيوس ، جورج ؛ يقظة العرب ؛ ص ١٧٢ - ١٧٣ .
٢٨) نجيب عازوري ، يقظة الامة العربية ص ٤١ المعربة .
٢٩) نفس المرجعص ٤٢المعربة .
٣٠) نجيب عازوري ؛ يقظة الامة العربية ؛ ص ٧٩ المعربة .
٣١) نجيب عازوري ؛ يقظة الامة العربية ؛ ص ٨٥ المعربة .
٣٢) نجيب عازوري ؛ يقظة الامة العربية ؛ ص ٩٦ المعربة .
٣٣) نجيب عازوري ؛ يقظة الامة العربية ؛ص ١٠٠ المعربة .
٣٤) نجيب عازوري ؛ يقظة الامة العربية ؛ص ١٠٦ المعربة .
٣٥) نجيب عازوري ؛ يقظة الامة العربية ؛ ص ١١٦-١١٧المعربة .
٣٦) نجيب عازوري ؛ يقظة الامة العربية ؛ص ١٢١المعربة .
٣٧) نجيب عازوري ؛ يقظة الامة العربية ؛ ص١٢٩المعربة .
٣٨) نجيب عازوري ؛ يقظة الامة العربية ؛ ص١٢٩المعربة .
٣٩) نجيب عازوري ، يقظة الامة العربية ، ص١٣٨المعربة .
٤٠) نجيب عازوري ؛ يقظة الامة العربية ؛ ص١١٦و١٦٢المعربة .
٤١) نجيب عازوري ؛ يقظة الامة العربية ؛ نفس المرجع .

يقظة الامة العربية

نجيب عازوري[1]
مساعد حاكم القدس سابقا

١) ورد في يقظة العرب لجورج انطونيوس الطبعة الثانية : ترجمة الدكتور ناصر الدين الاسد والدكتور احسان عباس ، نشر دار العلم للملايين ، وبالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر ، بيروت - نيويورك ، ١٩٦٦ ، ٦٥٣ ص « عزوري » ولكن اهل عازور وهي قرية في جنوب لبنان ، قضاء جزين ، بجوار بلدة روم ، يكتبون ويلفظون « عازوري »

مقدمة

وجه الحزب القومي العربي[1] في تركيا مؤخرا بيانا الى الدول الكبرى[2] جاء فيه ما يلي :

« ان تحولا كبيرا هادئا على وشك الحدوث في تركيا .فالعرب الذين لم يضطهدهم الاتراك إلا لاستمرار تجزئتهم بمسائل تافهة مذهبية ودينية ، قد وعوا تجانسيتهم القومية التاريخية والعنصرية ، وهم يريدون الانفصال عن الشجرة العثمانية[3] المسوسة ليكونوا دولة مستقلة بذاتهم » . وسوف تمتد هذه الامبراطورية العربية الجديدة ضمن حدودها الطبيعية ، من وادي دجلة والفرات حتى برزخ السويس ، ومن البحر الابيض المتوسط حتى بحر عمان ، وسوف يحكمها سلطان عربي حكماً ملكيا دستوريا متحررا » . وستؤلف ولاية الحجاز الحالية مع منطقة المدينة المنورة ، امبراطورية مستقلة يكون حاكمها في الوقت نفسه الخليفة الديني لجميع المسلمين . هكذا يكون قد وجد حل لصعوبة كبيرة بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية في الاسلام من اجل خير الجميع الاكبر .

« وسنحترم كل مصالح الاجانب الحالية المباشرة في بلادنا وجميع الامتيازات التي منحهم اياها الاتراك الى يومنا هذا . وسنحترم ايضا الحكم الذاتي[4] في لبنان والوضع الراهن لمقدسات المسيحيين في فلسطين كما نحترم الامارات المستقلة في اليمن والخليج الفارسي . فما من رجل شريف مخلص يستطيع ان يكون معاديا لهذه الحركة الخيرة التي

ستفتح منفذا واسعا امام التجارة العالمية وستؤمن عددا لا يحد من التوظيفات المفيدة والاكيدة لرؤوس الاموال الاوروبية . »

« فمن جراء انفصالنا عن تركيا ستستعيد سائر القوميات المضطهدة ،من اكراد وارمن والبان الى اخره » حريتها ، لانه بالعرب يخضع الاتراك الالبان ،وبالالبان يسحقون البلغار ، كذلك يضغطون بالعرب على الاكراد وبالاكراد يقتلون الارمن . ما ان ننفصل عن السلطان حتى تعلن كل امة استقلالها وينعتق العالم من جذوة الشقاق التي تسمى بالقضية الشرقية .

نحن لا نطلب من الدول الكبرى ان تقوم باي تضحية ، ولا ان تقدم على اي خطوة مسلحة من اجلنا ، اننا نرجو الدول المستنيرة والانسانية في اوروبا واميركا الشمالية ان تساعد حركتنا بفضل حيادها فقط وتشجعنا بعطفها ، فاننا لعارفون كيف نبلغ بقضيتنا المقدسة والمجيدة الى حسن الختام » .

نحن اثنا عشر مليونا من العرب مضطهدون ببضع مئات من الموظفين الاتراك الشراكسة كلهم على استعداد لخيانة « البادیشاه »[٥] حالما يرون اننا نحن الاقوياء » .

هذا الكتاب هو توسيع استدلالي لهذا البيان من وجهات النظر الثلاث : الخارجية والسياسية والاقتصادية . وننبىء القارىء ان هذا الجزء معد لاكمال مؤلف ضخم ننشره عما قريب تحت هذا العنوان « الخطر اليهودي العالمي[٦] تصريحات ودراسات سياسية » لمن اراد ان يتعمق بمعرفة الحسنات التي ستقدمها القوميات في الامبراطورية العثمانية لأوروبا . ونحن نحث الجمهور على قراءة الكتابين .

من الممكن ان نسأل عن الدافع الذي دفعنا الى الكلام عن اليهود في كتاب سياسي يتناول الشطر الآسيوي من القضية الشرقية .

ذلك ان حركتنا تظهر ، في وقت توشك فيه اسرائيل[٧] على النجاح في خططها الهادفة الى السيطرة على العالم، لتقضي على تلك الخطط. ومن اجل تبسيط فهم « الخطر اليهودي »، ومن اجل ان نوفر على قارئيه وصفا مطولا للبلدان العربية ، سوف لن ندرس من هذا الكتاب سوى جغرافية فلسطين المفصلة التي تشكل صورة مصغرة كاملة للامبراطورية العربية المنتظر تحقيقها .

ان التمهيد التالي سيسمح للقارىء بأن يطلع على الفكرة الوحيدة التي نعرضها في المؤلفين .

الهوامش

١) جاء في المرجع السابق ، في الصفحتين ١٧٢ ـ ١٧٣ ، ابان حديثه عن نجيب عازوري ما يلي : « اسست جمعية عرفت باسم « جامعة الوطن العربي » وكان هدفها الذي اعلنته تحرير الشام والعراق من السيطرة التركية واصدرت عدة نداءات عنيفة تدعو العرب الى الثورة .

٢) هو تعبير كان يقصد منه بالتحديد الدول التالية : روسيا ـ انكلترا وفرنسا والمانيا والنمسا وايطاليا والولايات المتحدة الاميركية بالاضافة الى الكرسي الرسولي .

٣) اي سلالة السلاطين العثمانيين .

٤) يعني بذلك ، النظام الذي اقترحه (مترنيخ) مستشار النمسا ، بعد فشل نظام القائمقاميتين واصبح لبنان بمقتضاه لاول مرة في التاريخ مدولا بشكل رسمي وذلك بتدخل الدول الاوروبية وبموافقة الدولة العثمانية . وقد وضع هذا النظام اسس السياسة الطائفية في لبنان ، ودام حتى اعلان الحرب العالمية الاولى .

٥) لقب من القاب السلطان العثماني

٦) ورد عنوان هذا الكتاب مرات عديدة في سياق كلام المؤلف نجيب العازوري ، الا اننا لم نعثر له على اثر حتى الان .

٧) يشير النص الى المنظمة الصهيونية التي انشئت على اثر المؤتمر الصهيوني الاول سنة ١٨٩٧ م ودعت الى قيام دولة اسرائيل ، في فلسطين وقد اعلن بن غوريون قيام هذه الدولة في ١٥ ايار سنة ١٩٤٨

التمهيد

ان ظاهرتين هامتين ، متشابهتي الطبيعة بيد انهما متعارضتان ، لم تجذبا انتباه احد حتى الآن تتضحان في هذه الآونة في تركيا الآسيوية اعني : يقظة الامة العربية وجهد اليهود الخفي لاعادة تكوين مملكة اسرائيل القديمة على نطاق واسع . ومصير هاتين الحركتين هو ان تتعاركا باستمرار حتى تنتصر احداهما على الاخرى وبالنتيجة النهائية لهذا الصراع بين هذين الشعبين اللذين يمثلان مبدأين متضاربين يتعلق مصير العالم باجمعه. وليس للمرة الاولى على كل حال تناقش في الاقطار العربية مصالح اوروبا في حوض البحر الابيض المتوسط ، لان هذه المنطقة تصل بين ثلاث قارات وثلاثة بحار كانت على مدى عهود متفاوتة مسرحا لاحداث سياسية او دينية قلبت مصير العالم بأسره .

ان الذين كتبوا حول القضية الشرقية حتى وقتنا الحاضر حصروا درسهم في البلقان وتركيا الاوروبية معتقدين انه يوجد في مقدونيا الحل الوحيد لهذه المعضلة الشائكة ولم يعيروا اي اهمية لممتلكات السلطان الآسيوية في حين ان البلاد العربية تشكل العقدة الحقيقية في اللغز . كذلك الذين عالجوا المسألة اليهودية ، وضعوا أنفسهم من وجهة نظر خاصة تتوافق مع مصالح البلد الذي ينتمون اليه لم يأخذوا بعين الاعتبار بما فيه الكفاية ، ما ينتج عنها من تهديد للسلام العالمي. وبما اننا قصدنا ان نملأ هذه الفجوات ونكشف للعالم اهمية الحركة العربية من جهة والخطر الذي يتعرض له من جهة اخرى ، وهو خطر يتعاظم الخوف منه لانه يهيأ في الظل وفي السر ، فقد دفعنا للحديث عن السياسة

وعن نزعات كل من الدول الكبرى في اوروبا وعن الولايات المتحدة في
اميركا الشمالية ، وعن الادارة البابوية الرومانية ، والى مناقشة مسائل لها
فائدة ملموسة جذابة ،اذ توجد ايضا في موقع وجهة نظر جديدة تمام الجدة
مجهولة تمام الجهل .

بما ان اغلبية قراء هذا الكتاب ليسوا على علم كاف بالموضوعات
التي يعالجها ،فقد بدا لنا انه لزيادة الايضاح يجب ان نتعرض لتفاصيل قد
تبدو غير مفيدة للبعض ،عذرنا عند هؤلاء اننا لا نبغي ارشاد عدد قليل
من الناس فقط ، وانما ينبغي تنوير سائر الناس بشأن قضية تحظى باهتمام
كبير .وقبل ان نصور اليهود كما نعرفهم ، وكما هم عليه اليوم ، اردنا ان
يعرفوا اولا بما كانوا عليه وفق الكتاب المقدس، وبما فاخروا به حسب
كتبهم المقدسة وتقاليدهم الاكثر قدما ، لأن ماضي الشعب هو الصورة
الاكثر امانة لحاضره ومستقبله . على هذا النحو لن نجازف مثل الآخرين
كي لا نتهم بالمبالغة ،ان لدينا براهين من الكتاب المقدس اذا شئنا سندا
لمزاعمنا . إننا احتكمنا لهذا الاحتراز الضروري بسبب أن الذين
يعرفون الكتاب المقدس وقرأوه قلة ، بالرغم من ان الكثيرين منهم قد
حدثوا به غالبا وحفظوا قسما من الاخبار الواردة فيه محرفة بعض
التحريف عن معناها الحرفي حسب مفهوم اليهود لها .

إننا بذلك لا ننوي اطلاقا نقد الطريقة التي تفسر بها الكنيسة
المسيحية الكتاب المقدس .نحن بالعكس نجل التعليم الكتابي المسيحي
لان المعنى المجازي والروحاني الذي يضفيه اللاهوتيون على قصص
التوراة اخلاقي تماما ، ويرفع كثيرا من قيمة العهد القديم . بينما التفسير
الظاهري والحرفي الذي يقتصر عليه اليهود ، يجعل هذا الكتاب خطيرا
لا اخلاقيا يشكل ادانة رهيبة لهم . إننا في تأليف كتابينا « يقظة الامة

العربية » و « الخطر اليهودي العالمي » نرتفع فوق الاحكام الدينية
المسبقة ونتجرد من عواطفنا وقناعاتنا غير ناظرين الى القضية الا من
وجهة سياسية محض كالتي درسناها خلال ست سنوات في منصب[1] قد
تركناه منذ قليل بملء حريتنا وضد السلطان نفسه ، لنلتزم بعمل مقدس
في سبيل الوطنية والعدالة الانسانية . طوال كل هذه المرحلة كنا نعايش
مواطنينا وكنا على اتصال وثيق باليهود الذين راقبناهم في البلاد التي هي
المسرح الاكثر نشاطا لجهودهم الصامتة والمؤذية .

الفصل الأول

صفة فلسطين

الشعوب القديمة في فلسطين .

فلسطين ، كما يريد اليهود المعاصرون اعادة بنائها اكثر اتساعا من التي امتلكوها في مختلف مراحل وجودهم التاريخي . لم يستطع اليهود احتلال الحدود الطبيعية للبلاد لا في زمن يشوع ، ولا في ظل مملكة داود وسليمان ، كي يصدوا الغزاة والفاتحين . حتى في عهد هذين الملكين ، لم تأو فلسطين في حضنها شعبا واحدا فقط يحكي اللغة ذاتها وله الاصول نفسها وكان يمارس العبادة نفسها والعادات نفسها ؛ لان اليهود لم يستطيعوا ان يبيدوا ويستعبدوا مختلف الامم التي كانت تقطن وادي الاردن وارض كنعان . كان الفلسطينيون يحتلون السهل الممتد من نهر العوجا حتى غزة ، وكان العمالقة والآدوميون[٢] والمدينيون يعيشون في الهضبة الخصبة المحصورة بين غزة وبئر السبع والطرف الجنوبي للبحر الميت وبرزخ سيناء. وكان الآدوميميون[٣] والاموريون والحوييون يحتلون هضبة شرق الاردن الكبيرة من قمة حرمون حتى صحراء سيناء . وزرع الكنعانيون كل السهل الساحلي للبحر الابيض المتوسط ، من نهر العوجا حتى نهر الليطاني في الشمال بالاضافة الى الجزء الافضل من سهل مرج ابن عامر . لم يتمكن الاسرائيليون من استيعاب هذه الاقوام ولا من العيش معها بسلام لكنهم كانوا دائما في حذر حينا من البعض وحينا من الاخرين ؛ ان الاثنتي عشرة قبيلة اسرائيلية مجتمعة لم تكن اكثر عددا من اي قوم في الوسط الذي كانت

تقيم فيه . وكل واحد من هذه الشعوب الكنعانية اخضع اليهود بدوره لسيطرته ؛ في الواقع ، ان عدم نجاح اليهود في استيعاب مختلف هذه الامم ، وعدم قدرة هؤلاء الناس على احتواء اليهود يبرهن على انها كلها كانت على قدم المساواة في الحضارة.وهكذا اذا وضعنا القضية الدينية جانبا ليس اليهود بالنسبة للمؤرخ بأهم من أي قبيلة بدوية كالعمالقة او المؤابيين مثلا .

الحدود الطبيعية للبلاد

في الاساس لم يمتلك اليهود من فلسطين سوى الضفة الغربية لنهر الاردن وسلسلة الجبال الممتدة غربي هذا النهر من الخليل حتى بحيرة الحولة . الا ان الكتاب المقدس يظهر لنا اختلاط اليهود بالكنعانيين بنسب مرتفعة في هذا الجزء من البلاد .

اذا ، كانت فلسطين مفتوحة من كل الجهات للغزوات الاجنبية : من الشمال كان باستطاعة الغزاة ان يدخلوها من وادي نهر الأردن او من ساحل البحر الابيض المتوسط ، لانه ، من الجهتين كانوا متأكدين من وجود حلفاء لهم من اهل البلاد يكرهون اليهود . ولم يكن على الجيوش الجنوبية الا ان تقوم بحملة ضد اسرائيل لتحصل حالا على المساعدات الضرورية لاجتياز الصحراء . هذه الاوضاع تفسر جيدا الغزوات المعتادة لفلسطين من قبل المصريين والسوريين والاشوريين من جهة الشرق ، كانت تتداول مختلف اقوام هضبة شرق الاردن فيما بينها احيانا لتقوم بغارات ضد شعب اسرائيل،ولكن هؤلاء السلاب لم يكن خطرهم كبيرا جدا بسبب الخلافات التي كانت تفرقهم والحواجز الطبيعية التي كانت تفصلهم عن اليهود ، نعني بها الاردن وبحر الميت

وعلاوة على ذلك كان لليهود طليعة حرس مؤلفة من قبائل رؤوبين وجاد ومنسى التي استقرت على الضفة الشرقية لنهر الاردن .

من الممكن انه لو عرف اليهود كيف يحتوون كل الاقوام الكنعانية ، ويبسطون حدودهم حتى قمة حرمون ووادي الليطاني ويقيمون طليعة حرس تحتل كيليكيا حتى حدود صيدون ، ولو كان الفساد والتنافر في الداخل اقل ،والصدق والحكمة في علاقاتهم مع جيرانهم في الشمال والجنوب اكثر،لأوجدوا مملكة مستقلة حتى الوقت الحاضر ولمنعوا بزوغ فجر المسيحية نفسها .

ميدان عمل الصهاينة

ادرك يهود عصرنا اخطاء اجدادهم تماما ، لذا يسعون باناة لتجنبها اثناء اعادة بناء ما يسمونه وطنهم القديم باستيلائهم على الجزء الذي لم يستطع اسلافهم امتلاكه وباحتلالهم التخوم الطبيعية للبلاد قبل كل شيء ، هاتان نقطتان هامتان في ميدان عمل الصهاينة .

ان الحدود الطبيعية بالنسبة اليهم هي ، جبل حرمون الذي يحوي منبع نهر الاردن ووادي الليطاني في الشمال ، بالاضافة الى المنطقة المحصورة بين راشيا وصيدا كطليعة حراسة ، وقناة السويس وشبه جزيرة سيناء في الجنوب ، والصحراء العربية في الشرق ،والبحر الابيض المتوسط في الغرب . ان فلسطين المؤسسة هكذا تصبح بلادا لا تؤخذ من ايدي شعب يعرف كيف يدافع عنها . يحيط النظر من قمة جبل حرمون بامتدادات شاسعة يشرف عليها بكاملها من القدس حتى سهول الفرات ومن البحر الابيض المتوسط حتى هضبة نجد . بتحصين سفوح هذا

الجبل يصبح النفاذ الى وادي الاردن مستحيلا .يكفي للدفاع عن ممر وادي الليطاني الضيق الشديد الانحدار ، بعض الحصون القائمة على قمم الجبال الاكثر ارتفاعا في بلاد بشارة[٤] ؛وتشرف الرؤوس الثلاثة : الكرمل والناقورة والابيض على البحر ابتداء من بيروت حتى ابعد من يافا ، بينما الشاطىء الذي يمتد بين غزة وبور سعيد صخري ومرمل ومعرض لجميع الرياح ومنفذه خطر جدا .

في الجنوب ، تشكل قناة السويس وصحراء العريش حاجزا خطرا ضد اجتياحات مصر ، وفي الوقت نفسه يتحكم جبل سيناء بشمال البحرالاحمر .وفي الشرق تشكل الصحراء العربية مسافة لا يستهان بها بين القبائل البدوية المحاربة في نجد والهضبة في بلاد المؤابيين والاموريين . ان مساحة فلسطين الممتدة ضمن هذه الحدود تبلغ حوالي خمسين الفا من الكيلومترات تقريبا .

لدرس جغرافية هذه البلاد بسهولة اكثر نقسمها قسمين متساويين تقريبا : شرق الاردن وغرب الاردن يفصلهما عن بعضهما من طرف لآخر، ومن الشمال الى الجنوب وادي نهر الاردن الذي يجري بخط مستقيم من سفح جبل حرمون حتى الطرف الجنوبي للبحر الميت ، ومن هناك يمتد باسم وادي عربة حتى خليج العقبة .

شرق الاردن

ليس شرق الاردن كله سوى هضبة عالية رائعة متوسط ارتفاعها ثماني مئة وخمسون مترا، تمتد من سفح جبل حرمون حتى البحر الاحمر ومن نهر الاردن حتى الصحراء العربية . وهي تتجه نحو الشرق والجنوب وتنحدر ببطء نحو الصحراء والبحر الاحمر بينما تنتهي

الثلاث الاكثر علوا نحو٢٨٧٥م . وترتفع الى الشمال الشرقي عند تخوم الصحراء وبمواجهة حرمون المرتفعات البركانية لحوران التي يبلغ ارتفاع بعض قممها ١٦٠٠ م ، منها ٨٠٠ م فوق سطح الهضبة . والى الغرب تدعم هذه الهضبة المرتفعة سلسلة جبال مؤاب التي تنفصل عن حرمون وتنبسط من الشمال الى الجنوب حتى خليج العقبة حيث تعود لتتصل بمرتفعات سيناء محاذية ساحل البحر- ليس في هذه السلسلة سوى عدد قليل من القمم التي ترتفع ارتفاعا بسيطا عن الهضبة التي تنهض فوقها .

غرب الاردن

تتخلل غربي الاردن من الشمال الى الجنوب سلسلة جبال تتجه لتتصل بمرتفعات سيناء . بعد وادي الليطاني ، ينتصب جبل لبنان من جديد ليتابع سيره نحو الجنوب ، تقاطعه وديان خصبة زاهية حتى مرج ابن عامر حيث يتوقف . في الماضي كان هذا القسم يدعى الجليل الأعلى .اما اليوم فيعرف باسم بلاد بشارة[٤] ان سهل مرج ابن عامر هضبة رائعة مستوية تبرز في وسطها ثلاث مرتفعات صغيرة وديعة منعزلة وهي جبل تابور وجبل حرمون الصغير وجبال جلبوع . بعد هذا الانقطاع تنبعث سلسلة الجليل الاعلى الى الجنوب من مرج ابن عامر وتتابع انبساطها حتى الطرف الجنوبي للبحر الميت حيث تفسح في المجال لسهل واسع ، وبعد ذلك تظهر بشكل تلال صغيرة محيطة بالضفة الغربية لوادي عربة لتتصل بجبال مؤاب عند خليج ايلات ،ومن ثمة تسير مجتمعة لتلتحم بمرتفعات سيناء وتمتد سلسلة الجبال هذه من الشمال قرب جنين نحو الشمال الغربي لتنتهي في البحر مشكلة رأس الكرمل الذي

يحمي بشكل رائع مرفأ حيفا الطبيعي من جهة الاردن ، يتجاوز ارتفاع بعض قممها القليلة الف متر ولا يكاد يبلغ معدل ارتفاع السلسلة ٧٥٠ م .

ينتهي اللحف الشرقي لسلسلة الضفة الغربية فجأة بمنحدر شديد بينما يتناهى ببطء من جهة البحر الابيض المتوسط حتى السهل الساحلي الخصب الجميل ذاك الذي يمتد من الليطاني حتى وادي رفح .

ينبسط الساحل بخط مستقيم من الشمال الى الجنوب ابتداء من مصب نهر الليطاني حتى غزة حيث يميل نحو الغرب ويتابع انبساطه ليشكل نصف دائرة في بور سعيد .

يوجد بين قسمي فلسطين اللذين وصفناهما ، وادٍ كبير يتراوح عرضه بين ١٥ و ٢٥ كلم يجري في وسطه نهر الاردن . ان هذا الوادي فريد في العالم بسبب الاختلافات الهائلة في مستوى ارتفاعه على طول مجراه ؛ فهو تارة يرتفع فوق سطح البحر وطورا ينخفض عنه . ويبلغ ارتفاعه ٥٠٠ م عندما يخرج هذا النهر من خانق حرمون ويبلغ ٤٣ م عند ملتقى نهر بانياس بنهر الاردن ولا يبلغ سوى مترين عند بحيرة الحولة وينخفض فجأة الى ٢٥٦ متر تحت سطح البحر عند طبريا والى ٣٧٥ م عند جرش والى ٤٠٠ م عند البحر الميت . ثم يعود الى ٣٦٠ م عند مدخل وادي عربة ويستمر في الارتفاع بانحدار خفيف ليصل الى مترين عند خليج ايلات . ويبلغ طوله من منابع نهر الاردن الى العقبة ٤٣٠ كلم . ان نهر الاردن هو مجرى الماء الاكثر اهمية في فلسطين ، فهو الذي يشكل ثلاث بحيرات اثناء مجراه ويبلغ طوله الكلي ٢٥٠ كلم من منبعه حتى مصبه في البحر الميت . يخرج هذا النهر من قصر عنتر في حرمون

على ارتفاع ٢٨٦٠ م ويجري اولا من الشرق الى الغرب في اخاديد ثم يميل نحو الشمال ليتبع خطا مستقيما متجها من الشمال الى الجنوب لا يتخلى عنه قبل ان يشكل بحيرة الحولة ، يتلقى نهر الاردن من جهة اليمين بعض الانهار القليلة الاهمية بينما يحمل اليه من الجهة اليسرى نهر بانياس مياه نهرين ضخمين نهر العسل اللّدان . يتلقى الاردن ايضا ، من بحيرة الحولة حتى البحر الميت ، عددا من الانهار الصغيرة اهمها اليرموك والزرقا ووادي شعيب ووادي حسبان .

يتلقى النهر أيضاً ، من الجهة اليسرى : وادي الزرقا ، وماعين ، ووادي الموجب (قديما ارنون) ووادي الكرك . ومن الجهة اليمنى يتلقى نهر الاردن عددا من الانهار الصغيرة من بينها يمكن ان نشير الى وادي الشرار ووادي الفرا ووادي الخلد .

نهر الليطاني

ان النهر الاكثر اهمية بعد الاردن في فلسطين هو نهر الليطاني الذي ينبع من سوريا الداخلية عند سفح جبل لبنان . يجري اولا من الشمال الى الجنوب على موازاة نهر الاردن ثم يميل فجأة الى اليمين لكي يتخذ اتجاها من الشرق الى الغرب ويصب في البحر على بعد بضعة كيلومترات الى الشمال من صور ويفصل واديه الضيق والسريع الانحدار بين جبل لبنان وجبال الجليل الاعلى .

نهر النعامين والمقطع :

ان مجاري المياه الاخرى في فلسطين هي : نهر النعامين الذي ينحدر من جبال الجليل الاعلى ويسقي سهل عكا الجميل ، ثم نهر

المقطع الذي ينبع من سفح جبل تابور ويقطع سهل مرج ابن عامر ويصب في جون حيفا. ثم انهر الزرقا وابو زابور والفلايق والعوجا ورؤ بين التي تسقي كلها السهل الساحلي وتصب في البحر الابيض المتوسط .

الينابيع المعدنية الحارة :

تشبه فلسطين سويسرا كثيرا بعدد بحيراتها المتفردة بتفاوت ارتفاعاتها عن سطح البحر .

ينخفض البحر الميت الى ٤٠٠ م تحت مستوى سطح البحر ويبلغ طوله ٥٥ كلم وعرضه ١٤ كلم وعمقه ٢٥٠ م . تنخفض بحيرة طبريا الى ٢٥٦ م تحت مستوى سطح البحر الابيض المتوسط وطولها ٨ كلم وعرضها ١١ كلم وعمقها ٥٥ م . ترتفع بحيرة الحولة الصغيرة مترين فوق سطح البحر . البحيرات الثلاث في هضبة شرق الاردن التي ترتفع ٦٠٠ م هي : ماتك البراك ، وبحر البعلة ، وبحيرة الهيجانة ؛ وتتغذى البحيرات الثلاث بانهار دائمة تنحدر من حرمون وحوران .

يمكن اعتبار وادي الاردن رغم ضيقه البلد الاغنى بالينابيع المعدنية والحارة . يوجد في وادي الزرقا ـ ماعين عشرة ينابيع كبريتية فقط ، تتفجر بغزارة من الارض بحرارة + ٧٠ درجة مئوية . اطلق عليها اسم حمامات منذ زمن جيرود الكبير ، اشتهرت بعلاج الروماتيزم والامراض الجلدية . توجد ينابيع الحمة الثمانية الكبريتية والحديدية الى الجنوب من طبريا وعلى ضفافها، حاويةً ملح المانيزيا وتخرج من الارض بحرارة تتراوح بين + ٦٥ و٧٠° استعملت لمعالجة الروماتيزم والامراض الجلدية ووهن الجسم .

يوجد ايضا الى الشمال من طبريا في تابغة سبعة ينابيع كبريتية حرارتها ٣٢° درجة + وفي غديره الى الجنوب الشرقي من بحيرة طبرية عدة ينابيع كبريتية درجة حرارتها ٦٥°مئوية . ويوجد أيضا على اليرموك ثلاثة ينابيع كانت معروفة جيدا من قبل الرومان ؛ ونرى النبع الفاتر الكبريتي لعين فاسقة ٣٠° ؛ ومياه عين جدي الفاترة الكلسية على ٢٧° . ويوجد ايضا عدة ينابيع اخرى الى الجنوب من البحر الميت في وادي عربة . وكذلك نجد منها عددا كبيرا في حوران .

اخيرا ليس البحر الميت نفسه سوى حوض واسع من المياه المعدنية والحارة . اذ انها تحتوي على ملح المانيزيا والكلس والصودا والبوطاس الذائعة الصيت لمعالجة الامراض الجلدية ؛ ومن جهة ثانية تحتفظ حتى في اوج الشتاء بحرارة كافية يمكن الاستحمام فيها .

الثروات المعدنية

تمتلك فلسطين ايضا ثروات معدنية لا يستهان بها فضلا عن انها لم تستخرج حتى الآن . يوجد فيها من الحجارة الكريمة : الياقوت والفيروز ، والعقيق . وتوجد مناجم للفحم الحجري على شواطىء البحر الميت وفي جبال مؤاب ، وفي عجلون وحوران ، ومناجم ملح لا تنفد في جبل سدوم وعلى شواطىء البحر الميت . والنحاس في جبال مؤاب وسيناء . والحديد في عجلون وحوران . والرخام الجميل الاصفر والاحمر في جبال مؤاب وحوران والقار بالقرب من صور وعكا وبكميات كبيرة في حاصبيا وعلى شواطىء البحر الميت . ويوجد ايضا على شواطىء هذا البحر ملح البروم والكبريت والفوسفور . توجد ينابيع بترول في عجلون وعلى شواطىء البحر الميت . يوجد رمل ممتاز

لصناعة الزجاج في الخليل وعلى ضفاف نهر النعامين ، كما نصادف على ضفاف نهر المقطع صدف الموركس وهو نوع من الحلزون الذي كان يوفر في الغابر قاعدة الصباغ الارجواني الفنيقي .

الوضع الراهن :

لا شيء اكثر صحة من قول مونتسكيو : « عندما يريد متوحشو لويزيان قطف اثمار يقطعون الشجرة من جذعها ويقطفون اثمارها ، وهكذا تفعل الحكومة المستبدة » . اذا اراد احد درس تأثيرات حكومة عمياء بربرية على بلاد غنية ، انصحه بالتجول في فلسطين وسوريا والعراق ،واذا اراد احد ان يتحقق من الاثر الاخلاقي السيء لهذه الحكومة نفسها على شعب كبير ذكي نشيط ، فانني اقول له :اقرأ تاريخ الخلافاء الامويين والعباسيين وبعد ذلك العرب المعاصرين في ظل الحكم التركي . ان فلسطين بلاد زراعية من الطراز الاول ، لان تربتها عجيبة الخصوبة ومنتوجاتها ممتازة النوع يمكن بسهولة استصلاح ثمانية اعشار مساحة فلسطين الكلية . ولا يكاد يزرع منها سوى عشر واحد . ان شرق الاردن بائر اجرد ، لا يسكن هذه الهضبة العجيبة سوى مائة الف نسمة ، وهي التي كانت تمون المدن الكبرى الثلاث البتراء وجرش وعمان في زمن الرومان . يجب ان نحذف منها خمسين الفا في حوران لان الدروز الذين يسكنون هذه الجبال ظلوا مستقلين تقريبا عن الاتراك ، يزرعون بلادهم جيدا بما فيه الكفاية . وفي الواقع ينتج الدروز وحدهم سنويا مائة وستين الف طن من القمح ومائة وسبعين الف طن من الشعير وتسع وثمانين ومائة الف طن من الذرة وخمس وتسعين الف طن من الحبوب الاخرى تمثل بمجموعها اربعا وثمانين مليون فرنك وما يتبقى من

هضبة شرق الاردن البالغ اربعة اضعاف حوران والذي لا يقل خصوبة عنه لا ينتج ربع هذا الرقم . اما بقية المنتوجات الاخرى لهذا الجزء من فلسطين فقوامها حبوب الدخن والترمس والسمسم والفول والعدس والكروم الممتازة .

حوران ووادي الاردن :

ان خصوبة وادي الاردن عجيبة ومناخه اشد حرارة من الدلتا المصرية ، والنهر الذي يرويه اكثر غرينا من النيل ، ويمكن ان يعطي ثلاثة محاصيل في السنة،وتنمو فيه الزراعات الاكثر انتاجية مثل اللوز والقطن والبن وقصب السكر بشكل مدهش ، ومع ذلك قطعت هذه الناحية العجيبة من الشمال الى الجنوب ، دون ان اصادف قرية واحدة آهلة ، ولا نصف هكتار مفلوحا ، حتى ولا مترا واحدا مرويا . الكل صحراء . تجري مياه نهر الاردن الساكن الحزين المخصب دون فائدة نحو البحر الميت . هذه هي اللوحة الاكثر تعبيرا عن الدمار الذي احدثته الحكومة التركية في البلاد التي لا زالت خاضعة لها حتى الآن .

المدن العشر[٥] :

يمتدح المؤرخ اليهودي يوسف فلافيوس[٦] كثيرا خصوبة هذا الجزء من فلسطين المهمل تماما في يومنا الحاضر . لقد كانت ترتفع حول بحيرة طبريا عشر مدن كثيرة الخيرات وكانت تمخرها في كل الاتجاهات اساطيل الباعة والصيادين التي لا تحصى سفنها . زرت هذه البحيرة الجميلة في شباط الاخير من سنة ١٩٠٤ عدا مدينة طبريا الآهلة باليهود فلم اجد أي مزرعة على شواطئها الرائعة ويستعمل السائحون اربعة او خمسة مراكب بائسة حلت محل الاساطيل في غابر الزمن .

يمتلك السلطان كل وادي الاردن وهو لا يريد استصلاحه ولا تأجيره ، ولا بيعه . وسنقول فيما بعد ، كيف تملك عبد الحميد هذه الأراضي. واتماما للمعنى ، نضيف أن نهر الاردن وبحيرة طبريا كثيرا السمك ويتراوح وزن السمكة التي تصطاد غالبا بين ٢٥ و٣٠ كلغ . وتقدم سلسلة جبال غربي الاردن المثل على الجرود القفراء اذ ينقب الحطابون بطن الارض ليجدوا الحطب وينتزعوا جذور الاشجار التي كانت تؤلف في الماضي الغابات. وتختفي تحت ضربات فؤوس الفلاحين المعوزين يوماً فيوماً بعض اشجار الزيتون التي ما زلنا نصادفها حول المزارع الفقيرة . يعلمنا الكتاب المقدس ان ستين مدينة قامت في سهل مرج ابن عامر حيث لا نكاد نجد اليوم سوى خمس وعشرين قرية . وتضيع في البحر كل الجداول والانهار التي تجري في السهل الساحلي ابتداء من نهر الليطاني وانتهاء بصحراء العريش ، دون فائدة ودون ان تسقي هكتارا واحدا من الارض لهذا السبب يزرع عشر الاراضي فقط من هذا السهل الخصب .

الصناعات المحلية :

يعطي غرب الاردن المحاصيل ذاتها التي يعطيها الجانب الآخر من النهر تقريبا ، على الرغم من ان الاشجار والنباتات الخاصة بالبلدان الحارة تنمو في شرق الاردن مثل الزيتون والبرتقال والحامض وقصب السكر ، والاثمار من بطيخ وشمام يوجد في الجزء الغربي من فلسطين بعض الصناعات الصغيرة التي لم تستطيع تركيا ان تخنقها تماما . لقد عرف صابون نابلس واللد وغزة والرملة الخ . . في كل الشرق . وتبلغ قيمة الصادرات من هذه السلعة ثلاثة ملايين في السنة. ويمون ايضا زجاج

الخليل سوريا وقسما من مصر رغم المنافسة الاجنبية . وتصنع غزة والمجدل الحبال والاواني الفخارية . بالرغم من كل هذا فان الصادرات الزراعية والصناعية لغرب الاردن من المرافىء الاربعة : صور وحيفا ويافا وغزة لا تبلغ عشرة ملايين. نحن بعيدون جدا عن الاربع والثمانين مليونا التي تنتجها حوران . الا ان انتاج القبائل البدوية في هضبة بئر السبع والتي تعيش في شبه حالة استقلال ، يبلغ وحده ثمانين الف طن من الشعير وستين الف طن من القمح واربعين الف طن من الذرة وخمسين الف طن من الحبوب الاخرى تساوي قيمتها جميعا ثلاثين مليون من الفرنكات بالرغم من ان البلاد التي تسكنها هي اصغر بكثير من السهل الساحلي . وهكذا فان هضبتي بئر السبع وحوران تغلان عشرة اضعاف ما يغله القسم الباقي من فلسطين لا لشيء الا لانهما شبه مستقلتين . من هنا نستطيع ان نصوغ المسلمة التالية : بقدر ما يخضع شعب للاتراك يشتد فقره وتقحل ارضه ، وبالعكس من ذلك بقدر ما يستقل شعب يغنى ويزدهر .

احصائيات :

اذا لم نعول الا على سكان الريف ، فليست الضفة الغربية اكثر سكانا من الجزء الاخر من فلسطين بالرغم من كبر مساحتها وكثرة مجاري المياه التي تخترقها ، وموقعها الجغرافي المتميز على البحر الابيض المتوسط . لا يتعدى عدد الريفيين ، من الليطاني حتى هضبة بئر السبع ، مائة الف نسمة مطلقا . واذا اضيف اليهم سكان المدن في الخليل وغزة ويافا والقدس ونابلس وحيفا وعكا وصور والناصرة وطبريا وصفد ، يصل العدد الى مائة وسبعين الف نسمة ويجب اضافة ثلاثين

الف بدوي من الرحل في هضبة بئر السبع ليصبح العدد مئتي الف نسمة. ولا نحصي ضمن هذا العدد اليهود الذين يبلغون مئتي الفا ايضا ، لاننا نعول على الذين يعيشون من الارض فقط .

في عهد سليمان ، كانت مدينة صور تأوي وحدها مليون انسان ، ويجب ان يتراوح عدد سكان كل من عكا وقيسارية ويافا وعسقلان وغزة والقدس ، استنادا الى فلافيوس يوسف والمؤرخين العرب القدامى بين ثلاثين الفا وخمسين الفا . كان يوجد في فلسطين تحت سيطرة داود مليون وثلاثمائة الف محارب يهودي استنادا الى الكتاب المقدس.وحتى نضع النقاط على الحروف ، يجب ان نعطي للاخرين من ابناء البلاد العدد نفسه ، فيكون لدينا مليونان ونصف من الصالحين للخدمة العسكرية . ان تجنيد مليونين ونصف يرتكز على خمسة عشر مليونا من المواطنين . هكذا ، كانت فلسطين الممتدة ضمن الحدود الطبيعية التي وضعناها اعلاه ، توفر الغذاء لخمسة عشر مليونا من البشر ، يحكمهم ملوك وامراء تحيط بهم بلاطات متألقة من العواصم الكبرى كالقدس وصور والبتراء وجرش ويعيشون بترف.اما اليوم فهي لا تكاد تكفي ثلاثمائة الف بائس يعيشون حياة خاملة ويسكنون في اكواخ نتنة ، لا يعرف لون ثيابهم تقريبا ولا يتناولون سوى وجبة طعام خبيثة واحدة في اليوم .

المعاصرون :

مع ان هؤلاء الثلاثمائة الف تعيش يتكلمون لغة واحدة ولهم اصول واحدة وتقاليد تاريخية واحدة ويقطنون بلادا واحدة ويرسفون في اغلال عبودية واحدة ، بالرغم من هذا فهم بعيدون عن الاتفاق واكثر بعد عن التفاهم . في الواقع من بين الثلاثمائة الف نسمة يوجد خمسون

الفا من الدروز وعشرة آلاف لاتيني وخمسة عشر الف يوناني ارثوذكسي ، وستة آلاف يوناني كاثوليكي وخمسة آلاف ماروني والباقي يتألف من المسلمين المغلوبين على امرهم ، كسكان المدن والفلاحين ، ومن مسلمين لا مبالين وكالبدو الرحل الذين لا يعرفون أي شعائر دينية ولا ظاهرية ولا الصلاة الاسلامية .

كل معتنقي الاديان والمذاهب يتباغضون دون ان يعرفوا لماذا ؟ كل المقامات الدينية من بطرك ومطران واسقف وارشمندريت وخوارنة ومفتيون . . الخ الخ . . يكرهون بعضهم البعض ويحثون الذين يطيعونهم على تقليدهم . وبسبب هذه الحالة ، تضطهد عصابة من الاتراك والشركس تتراوح بين ماية وماية وخمسين ، هؤلاء الثلاثمائة ألف مسكين من الناس ، ويؤججون الخلاف فيما بينهم وبالتالي يحتقرونهم كلهم على السواء ويستغلونهم دون رحمة.هذه هي حالة الشعب العربي في فلسطين وهي كذلك في بقية الولايات العربية في كل من سوريا والعراق .

الامن والعدالة في تركيا :

اما الحكومة التركية ، اذا كان من الجائز ان يطلق هذا الاسم على جماعة من قطاع الطرق يقودهم مجرم ، فهي لا تكتفي فقط بالا تعمل شيئا لتحسين وضع الفلاح ، ولكنها تعمل بانتظام لتخرب هذا البلد التعيس تدريجيا . لا امن ولا سلام ولا عدالة في تركيا . باستطاعتك ان تغتال احدهم ، فاذا القي القبض عليك يكفي ان « تدفع رشوة » حتى يطلق سراحك . مثلا « اذا هربت من ناحية مجاورة فيرسلون الدرك للتفتيش عنك ، ادفع لهم يتركوك آمنا ويقولوا انهم لم يجدوك قط . واذا

طلبوك من ناحية التجأت اليها ، يعلن [المسؤ ول] انك لم تدخل ابداً الى ناحيته اذا دفعت له . واذا فاجأت لصا متلبسا بجرمه ووضعته بين يدي السلطة ، يرميه البوليس في السجن امامك وحالما تخرج يتقاسم واياه محصول اسلابه ويطلق سراحه . يتعهد اللص بتقديم مبلغ معين خلال الاسبوع الى مختلف قطاع الطرق الذين يؤ لفون « السلطة » لينعم بالسلام في طيب حمايتهم . هذا ما يحدث ايضا مع قطاع الطرق الاخرى وممتهني القتل والمهربين وناهبي البيوت والنصابين . واذا اردت ان تثأر او كان هناك رجل يزعجك ، فما عليك الا ان تشتري شاهدي زور يتهمانه بانه ارتكب جريمة قتل خيالية او تكلم ضد السلطان . تملك السلطة المتعطشة دائماً لاستغلال الناس حق تبرئة هذا الرجل أو إدانته حسب ما يدفع اكثر او اقل من خصمه . وفي حالة إطلاق سراحه سوف يكون هناك تعادل بين سجنه ومصاريفه دون ان يستطيع الاحتجاج على المفتري عليه .

الشرف والمصالح العامة :

وهكذا في امبراطورية السلطان ، يتحكم الرجال الاقوياء والموظفون بالحياة والشرف والمنافع العامة جميعها في كل لحظة . اعرف احد هؤ لاء اللصوص ، فهو يدب الرعب في عشرين قرية من القرى المجاورة لقريته . ولا يحترم أياً من نساء أو فتيات الفلاحين التعساء الذين يرهبهم . لقد تبجح امامي بانه لم ينم ابدا ليلتين متتاليتين مع امرأة واحدة ، يفعل هذا بموافقة الآباء والازواج الذين يلزمهم بأن يرسلوا له بناتهم وزوجاتهم في يوم كذا وكذا . الويل للذي يجرؤ على الرفض فهو اما ان يقتل بالخفاء او يرمى في السجن باي سبب وكما يحصل غالبا ، تخطف امرأته بالقوة وعلاوة على ذلك يضرب دون ان

يستطيع تقديم شكوى . في يوم من الايام تجرأ احد هؤ لاء التعساء على ان يرفض الخضوع لهذه الخسة . لكن منذ الصباح التالي ترك البلدة مع عائلته ، لانه رأى انهم يريدون قتله ، واقام بعيدا تاركا اراضيه التي استملكها رجل العصابة . تقدم بالشكوى التي ، جعلته يصرف كل ما تبقى معه كي يستمع الى شكواه . ولكنه طرد وامر بالسكوت لقد اردت انصاف هذا الرجل المسكين ولكنني لم انجح لان مضطهده اشترى كل السلطات .

المظلومون :

يتوهم الاوروبيون عادة انه لا يضطهد في تركيا سوى المسيحيين . انهم على وهم ، لانه يساء الى المسلمين اكثر من المسيحيين : يثور هؤ لاء ضد المضايقات والتجاوزات لانهم اوسع ثقافة من غيرهم وينادون لنجدتهم اوروبا المسيحية المتمدنة ، بينما لا يجرؤ المسلمون ابدا على رفع صوتهم لانهم يعرفون جيدا بان صرخاتهم لن تجلب لهم سوى الانتقام . ان مسلمي البلدان العربية خاصة لا يقلون عن المسيحيين شوقا الى الاستقلال في قرارة نفوسهم .

ساعود فيما بعد الى هذا الموضوع وسأكتفي حاليا بتعداد بعض الحقائق التي تسند مزاعمي .

قتل ابن شيخ البدو في جوار مأدبا ، منذ بضع سنوات ، فلاحا من تلك الناحية وألقي القبض عليه ونقل الى القدس ليحاكم فيها . حكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة خمسة عشر عاما ولكن اهله سارعوا بحمل عشرة آلاف فرنك ، الى ترجمان الحاكم بشارة حبيب ، الذي احتفظ لنفسه بخمسة آلاف فرنك واستخدم الباقي لرشوة الموظفين

والاخرين ، حينئذ وقع طبيب البلدية تقريرا يثبت بأن المحكوم شديد الاوجاع يحتاج الى عناية خاصة في احد المصحات فنقل الى مستشفى البلدية حيث كان يوجد هناك متوف اسلم الروح في الصباح التالي لدخول متمارضنا . في الليل اطلق سراح ابن شيخ البدو واشيعت ضجة بانه هو الذي توفي في المستشفى .

بسبب هذا الاستغلال يمتلك بشارة حبيب اليوم ثروة ، تبلغ خمسة مائة ألف فرنك ، يعنى باخفائها كي لا تلفت الانتباه ، وهو المستخدم لقاء مائة فرنك شهريا .

سعادة كاظم بك

ظهر ، في آب وفي ايلول من عام ١٩٠٢ ، وباء الكوليرا في مصر ، فاجرى الحجز الصحي لمدة اثني عشر يوما على المسافرين القادمين من وادي النيل . وتقام في تلك الآونة سوق واسعة جدا تجمع قرابة مائة الف انسان ، يضربون خيامهم في الصحراء في جوار يافا حول مرقد رأوبين بن يعقوب .

يأتي المصريون كل عام ، في مثل هذا العيد ، باعداد ضخمة سالكين طريق الصحراء عبر العريش وغزة وبدل ان يمنع كاظم بك والي القدس السوق ويطبق القواعد الصحية تجاه المصريين فرض ضريبة تعسفية على الاشخاص والدواب من حمير واحصنة وبغال وجمال وعلى البضائع ليتركها تمر دون الخضوع للحجز الصحي وللتطهير . لقد عاد هذا التدبير بمائتي الف فرنك على سعادته وبمثلها على شركائه الذين اسهموا باكثر واقل في تحقيق هذا المردود وبعد هذه المناورة باسبوع تفشت الكوليرا في فلسطين وسوريا واستمرت سنة كاملة وفتكت

بعشرين الف ضحية .

اثناء شيوع الوباء هذا ، قدم كاظم بك الى يافا لاتخاذ التدابير ضد الوباء هناك على حد زعمه فنظم لجنة لحث افاضل الناس على التبرع بستين فرنك او بخيمة لنجدة اهالي غزة الذين قاسوا الامرين من الكوليرا . جمعت هذه اللجنة الفي فرنك من الذهب ومائة خيمة احتفظ كاظم بك بالالفي فرنك وارسل المائة خيمة الى حاكم غزة الذي باع الواحدة بمائتي فرنك لانها كانت مطلوبة جدا من قبل سكان هذه المنطقة الذين هربوا من المدينة وذهبوا للاقامة على شاطىء البحر . اتى هذا البيع بربح يقدر بعشرين الف فرنك وهكذا يكون كاظم بك قد قبض اثنين وعشرين الف فرنك دفعة واحدة .

اذا اشتريت قطعة ارض في تركيا ، تعطى سند مليكة رسمي . بعد اسبوع تقريبا ، يحضر آخر مع سند ملكية رسمي وشرعي مماثل للذي معك . وسينازعك في حقوقك بالارض التي دفعت ثمنها ومن الطبيعي انك ستشكو للسلطة التي لا تستمع لكما الا لتستثمركما وسيعطى الحق لصاحب اكبر عرض . لقد خلق كاظم بك موردا كبيرا لمدخوله بالتسويف اللامتناهي . وهناك دعوتان من هذا النوع في يافا ، منذ ثلاث سنوات واحدة بين السيد امين ناصيف والشيخ ابو رباح والثانية بين السيد طاسو والسيد ميال .

شرف الخليفة التركي :

في احد الايام من سنة ١٩٠٣م . اراد بعض اليهود ان يثأر من شاب مسلم اتهموه باهانة السلطان.وسطوا بضع سحاتيت فتوصلوا الى ما يريدون مدعين بانهم استرقوا السمع اليه فسجن . توسل ابو التعيس

اليَّ بواسطة اصدقاء يستخدمونه ، فقبلت بان اهتم بابنه . قمت بمسعى لصالحه لدى قاضي التحقيق ورجوته ان لا يعير هذا الافتراء المضحك اهتماما . اجابني قاضي التحقيق بتهذيب انه يأسف لعدم استطاعته ادخال السرور الى قلبه « قال لي : اهان هذا الرجل جلالته العليا ولا استطيع ان اظهر بمظهر اللامبالي عندما يتعلق الامر بشرف الخليفة والا لسوف يكون سجلي أسود . انت نفسك موظف وتعرف كم تعير حكومتنا من الاهتمام لهذه الحوادث الصغيرة » . حيال هذا الجرم لم اكن لاستطيع ان اقول شيئا . نصحت والد الشاب المسكين ان يجد وساطة ويقدم المال لقاضي التحقيق . ما ان بعثت اليه بخمسين فرنك بواسطة رجل لا اريد تسميته حتى اطلق سراح الابن في اليوم التالي .

في كانون الاول من سنة ١٩٠٠ب . م ـ عدت من القاهرة الى القدس وبما انه يلزم القادمين من مصر يومان للمراقبة الصحية ، اقلنا المركب الى بيروت ليخضع لها هناك . وبينما كنا في الحجز الصحي خارج المرفأ كلف حارسان بمراقبتنا لمنعنا من الاحتكاك بأهل المدينة .كان موظفا الصحة يحملان في عنقيهما لوحة نحاسية كبيرة يقرأ عليها بالتركية والفرنسية (حارس صحي) وكان قد سلح كل منهما بمسدس ملقم وسيف كبير كانا يذرعان المركب ذهابا وايابا . في احد الايام طلبت بهدوء الى رئيسهما . :

ماذا سيحصل لي اذا حاولت الهرب ؟

قال : سأطلق النار عليك وسأقتلك ولي الحق في ذلك .

اجبت : واذا اعطيتك عشرين فرنكاً ؟

اجاب : عندئذ سوف اتركك تخرج

صرخت : والآخران ؟

اعلن بصراحة : كلنا متفقون

العشور في تركيا[٧]

اخيرا ، في كانون الاول سنة ١٩٠٣ ب . م وفي كانون الثاني وشباط سنة ١٩٠٤ ب . م تفشى في فلسطين مرض معد شديد فنفقت كل الماشية ولم يبق حيوان واحد للحراثة وبدل مكافحة هذا الوباء فرضت الحكومة التركية ضريبة جديدة هي اربعة فرنكات على الرأس الواحد من جميع الحيوانات الاليفة .حصل الجباة ضعفي هذه الضريبة بالرغم من الكوليرا والقحط اللذين اجتاحا البلاد من قبل . كانت الضرائب في تركيا منذ القديم باهظة يضخمها الموظفون كثيرا ويجبونها مضاعفة ست مرات.تضمن الحكومة في كل سنة ضريبة عشور القرى الى مزارعين محترفين في الاصل لا يجب ان يفرض هؤلاء الا العشر في المحاصيل التي اشتروا عشورها ولكن لتحصيل العشور يضطر هؤلاء الى افساد مختلف الموظفين ، والمبالغ التي يصرفونها لهذه الغاية هي اضخم من الانتاج الكلي لضريبة العشور . يذهب الجباة الى الريف بحماية الدرك الذين امروا بمديد المعونة اليهم فيخطفون من الفلاحين التعساء ثمانية اعشار محصولهم بعد ان يسوموهم كل انواع العذاب مع نسائهم وبناتهم واذا تجرأ هؤلاء الناس المساكين على الشكوى لا يصغى اليهم ، وان الحوا يزجون في السجن ولا يستطيعون الخروج الا بعد دفع الغرامة .

في هذه الظروف لا يزرع الفلاح ويحصد الا ما يكفيه للمحافظة على رمقه والله يعلم مقدار جلده والنتيجة هي اقفار البلاد وخرابها.وسواء اثمرت الاشجار ام لم تثمر فتقدير الضريبة واحد ويجبر المالك على دفعها

كما لو كانت المواسم مقبلة. لهذا يقطع الفلاح الشجرة ليتخلص من هذه العبودية .

يوجد في تركيا ، ضريبة خاصة على الماعز والخراف. يدفع الفلاح هذه الاتاوة في المقاطعة التي يسكن فيها . عندما تمر قطعانه بعد ذلك في المقاطعة المجاورة سعيا وراء الكلأ يطلب جباة الضرائب منه هناك الاتاوة وذلك ، لانه في المرة الاولى لم يكن قد اعطي وصلا وان اعطيه فهو مزور ، وهذا سهل فالفلاح الذي كبل بالعبودية ردحا من الزمن لا يعرف القراءة والكتابة على كل حال ، انه يجبر على الدفع ثانية حتى لو كان يحمل إفادة حسب القانون وينفذ التعيس ذلك ولا يجرؤ على الشكوى كي يتجنب ثأر ظالميه .

الرشوة والسرقة :

اذا قدم فلاح او اي فرد آخر عريضة تتعلق بموضوع مدني او اداري او قضائي تقضي اوامر الوالي او حاجب المحكمة بان يطلب اليه دفع اربعين او خمسين وربما مائة فرنك. ولكي يسمح له بتقديم هذا المستند للوالي او لرئيس المحكمة يتطلب هؤلاء بدورهم مائتين او خمسماية وربما الف فرنك او اكثر حسب الحالة ، يدفع هذه المبالغ لاتمام المعاملة. كذلك بالنسبة للموظفين الآخرين الذين مر هذا المستند في ايديهم ، لا يرفضون فقط ان يفعلوا شيئا ولكن يهددون ايضا بتمزيق المستند اذا لم « يدفع » لهم . على هذا النحو تصبح تكاليف العدالة والادارة في تركيا مرتفعة جدا واكثر مما هي عليه من اي مكان آخر . هوذا الاسلوب في جميع ادارات الدولة : لستم آمنين على رسائلكم وحوالاتكم في البريد ولا على بضائعكم في الجمرك . لهذا السبب نرى

موظفين يتقاضون ثمانين او مائة فرنك في الشهر يحيون حياة ترف تكلفهم اثني عشر الف فرنك في السنة ، ويجمعون خلال بضع سنوات ثروة تبلغ خمسماية الف فرنك او ما يزيد . هذه حالة كاظم بك الذي عين حديثا واليا على القدس براتب يبلغ عشرين الف فرنك في السنة بعد ما اقام فيها سنتين ونصف جمع مبلغ مليونين من الفرنكات .

علم الامة العربية :

عموما يختار الموظفون الاتراك من بين جهلة الناس عديمي الضمير الذين يخطف السراب ابصارهم . انهم وقحون مع الشعب اذلاء جبناء امام رؤسائهم ، وعلى كل حال ليس رؤساؤهم باعلى منهم الا بالرتبة . حتى ان الرجل الاكثر اعتبارا في البلاد لثروته وعلمه وثقافته يتعرض في كل لحظة لمضايقات هؤلاء اللصوص وتعسفهم . بسبب هذا النظام يترك كل الرجال الودعاء والمثقفين والمستقيمين في فلسطين وسوريا والعراق ارض الوطن ويذهبون للتفتش عن السلام والهدوء في ظلال العلم البريطاني الذي يرفرف على ضفاف النيل . هكذا ، اصبحت مصر بالنسبة لعرب تركيا ملجأ ومدرسة . لان كل الذين اثروا في التجارة والذين شغلوا المراكز الرفيعة في الادارة البريطانية والمصرية ، يعرفون اليوم كيف يتمنون المنافع التي لا تقدر لحكومة صالحة . وفي اليوم الذي سيرتفع فيه العلم القومي العربي في دمشق وبغداد سنجد فيهم مساعدين ممتازين لتنظيم وطننا العزيز والتعيس .

كيف نحسن بلدا ؟

بيد انه يلزمنا القليل [من الجهد] لنجعل من فلسطين ، في بضع سنوات فقط ، بلدا عظيما : ان ادارة صالحة وعدالة صارمة متجردة ،

وشرطة مستقيمة كافية ،وقوانين حكيمة تتكيف مع طبيعة البلاد تكفي .
ولكن كيف نستطيع الحصول على كل هذا ؟ اعط الموظفين والقضاة
رواتب معقولة ، ادفعها لهم بانتظام ، اكفل لهم ترقية عادلة تدريجية
واحالة على التقاعد كريمة وستحصل على ذلك - بهذه الطريقة صنع
الانكليز في مصر ما تراه اليوم ؟ تعود فلسطين على السلطان كما درسناها
بثلاثين مليون فرنك في العام ، هذا المبلغ باهظ جدا بالنسبة لشعب يبلغ
تعداده ثلاثمائة الف نسمة . يصرف منها ثلاثة ملايين فرنك على الادارة
المحلية ويذهب ما تبقى وهو سبع وعشرون مليون فرنك الى الاستانة
لتنفق فيها ويعرف الله كيف يتم ذلك ؟ يمكننا ، بنصف هذا المردود اي
بخمسة عشر مليون فرنك ، ان نضاعف رواتب المستخدمين اربع
مرات ، ونبني الطرقات ومشاريع الري ونشجع الزراعة وننهض
بالصناعة المحلية واخيرا نخلق فلسطين جديدة غنية جدا خلقا لم تشهد
له مثيلا منذ اوج عزها . لم يكن مردود مصر السنوي مذكورا في ظل
الادارة التركية ، اما اليوم ففوائد الخزانة المصرية تفوق عوائد
الامبراطورية العثمانية .

منتوجات فلسطين :

يوفر الانحدار المتراوح بين ثلاثة واربعين مترا فوق البحر
واربعمائة متر تحت سطح البحر في وادي الاردن لهذا النهر مجرى
سرّيعا وبالتالي سهوله كبيرة في ري وتخصيب المساحة الواسعة التي
يجتازها . وبقليل من التكاليف يمكن ري كل السهل الساحلي وهضبة
شرقي الاردن ايضا . يسقي بدو هضبة بئر السبع قطعانهم ، غير
المحدودة ، من آبار مثل ابار « ملح » و « بئر السبع » المحفورة منذ عهد

ابراهيم والقبائل البدوية في عصره . لقد طمر الاتراك بعضها بدل ان
يحفروا غيرها لجعل هذه المنطقة اكثر خصوبة ومنعوا العرب من اعادة
فتحها ، وينبت في فلسطين الارز وكل الاشجار الحرجية ، ويكفي منع
الفلاحين من استئصال جذور الاشجار من باطن الارض حتى تبعث
الغابات القديمة من جديد . هكذا نجمل البلاد ونسهم في خصوبتها
وغناها . تُطلب منتوجات فلسطين في كل مكان بفضل جودتها التي لا
تضاهى . ان شعير بئر السبع ، والسهل الساحلي ، ووادي الاردن
مرغوب جدا في انكلترا من اجل صناعة البيرة ، وتصل اولا الى لندن
صادرات غزة ، في كل سنة من شهرايار وتحصل على ارفع الاسعار . لقد
حبذت اوروبا كثيرا قمح حوران وشرقي الاردن جملة ومفرقا ، وذلك
لصناعة النشاء والمعاجين الغذائية . وكذلك بالنسبة للمنتوجات
الفلسطينية الاخرى : من برتقال وعسل يحمل طعم زهر برتقال يافا ،
وزيت نابلس وصابونه وكروم الخليل وبلسم وجرش وعين جدي
الشهيرة في القديم ، الخ . . .

جسر بين ثلاثة بحار :

من جهة اخرى تتمتع البلدان العربية الآسيوية ، فلسطين ،
وسوريا ، والعرّاق ، والحجاز ، بموقع جغرافي فريد في العالم ، يشكل
وحده مصدراً للغنى لا ينضب ، لانها تؤلف جسرا يصل بين ثلاثة بحار
هي المحيط الهندي والبحر الاحمر والبحر المتوسط ويصل بين ثلاث
قارات هي اوروبا واسيا وافريقيا . فلسطين هي النقطة الاكثر اهمية
وكما قيل هي المفتاح لهذا الجسر . ان من يستولي على هذا البلد يبسط
سيطرته على كل البلاد الاخرى ويصبح الوكيل والممَوِّن للقارات الثلاث
دفعة واحدة ، وبالتالي يصبح سيد التجارة العالمية .

مناخ فلسطين :

في العالم كله يعتبر مناخ فلسطين اكثر تنوعا واعتدالا في آن واحد . عندما يحل الجليد في الشتاء (بين كانون الاول وايار) ، في سفوح حرمون وحوران ، بحرارة تتراوح معدلها بين - ٣° و+ ٨° ، يتمتع الشاطىء بحرارة لطيفة من صور حتى غزة . ويبقى ميزان الحرارة محافظا على معدل يتراوح بين +١٤° و+ ٢٠° في سهل مرج ابن عامر وتكون الحرارة اكثر دفئا بقليل من وادي الاردن حيث تتراوح بين +١٨° و+ ٢٠° في طبريا ، وبين +٢٠° و+ ٢٤° في جرش . في الوقت الذي تتراوح فيه الحرارة على جبال اليهودية ، وعلى هضبة شرق الاردن بين +٨° و+١٦° . في فصل الربيع ابان شهر نيسان وايار ينشرح الصدر في جميع انحاء البلاد على السواء . وتتراوح الحرارة في الفترة المحددة من ايار الى تشرين الثاني بين +١٨° و+ ٢٤° عند سفح حرمون وحوران . وبين + ١٦° و+ ٢٦° في جبال اليهودية وعلى هضبة شرق الاردن ، وبين + ٢٠° و+ ٢٧° على الساحل وسهل مرج ابن عامر ، وتبقى + ٥٠° اثناء النهار و+٣٥° اثناء الليل في وادي الاردن . هكذا نستطيع ان نعيش طوال السنة في ظل حرارة ثابتة اذا تنقلنا قليلا حسب الفصول . وتمتلك فلسطين ايضا جواذب مميزة اخرى فضلا عن الحسنات المناخية والصحية وفضلا عن كثرة الينابيع المعدنية والحرارية التي تحتويها . وتنطوي فلسطين على المشاهد الطبيعية الجميلة الخلابة التي لا تضاهى بالاضافة الى مقدسات مختلف الديانات الموحدة والذكريات التاريخية المودوعة فيها . لقد شعرت بفتنة البوسفور وجماله الساحر ولكني لم اشعر في القسطنطينية بالاحساس الذي غمرني به جلال رقاد الشمس مساء يوم من شهر كانون الاول ١٨٩٩ في عين جدي على البحر الميت . قضيت عدة فصول شتوية في القاهرة ولكنها لا تساوي الاسبوعين اللذين

قضيتها على بحيرة طبرية في شهر شباط الاخير من سنة ١٩٠٤ . وانصح الذين يحبون التأملات السوداوية الفاتنة بالذهاب لتمضية عشرة ايام من شهر اذار عندما تكون اشجار الليمون مزهرة .

بالتأكيد ، ستزدحم شواطىء بحيرة طبريا الجميلة الضاحكة وضفاف البحر الميت المهيبة بالدارات الرائعة والفنادق الباذخة ، دون ازعاج الحكومة البربرية ومضايقاتها ودون الدمار والهموم المختلفة الاشكال التي يتعمدها الاتراك في البلاد ، وسيأتي الاجانب كل عام باعداد ضخمة لقضاء فصل الشتاء في الاراضي المقدسة حيث سينشرون الغنى والراحة عندما تزول هذه المكدرات .

ادارة فلسطين :

قسمت فلسطين ، كما درسناها ، الى ثلاث ادارات مختلفة : يتبع شرقي الاردن ولاية دمشق العامة . وانيط ببيروت غرب الاردن الذي يحده خط مستقيم يمتد من مصب العوجا حتى نهر الاردن . ويتبع القسم الممتد ما وراء هذا الخط حتى بئر السبع ولاية القدس التي مثلت بحكومة عامة تتصل مباشرة بالقسطنطينية بسبب معضلة المقدسات . يتعلق القسم المحصور بين بئر السبع وسيناء وقناة السويس بمصر منذ معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ م .

تقسم منطقة شرق الاردن الى ادارتين هما حوران والكرك وتقسم الاولى الى خمس نواح او مديريات هي : القنيطرة وبصرى ودرعا ، والسويداء وعجلون . اما الثانية فتحتوي على ثلاث هي : السلط ومعان والطفيلة . بينما تناط مديريتا حاصبيا وراشيا عند سفح حرمون بدمشق مباشرة . ثم ان منطقة غرب الاردن التابعة لبيروت تقسم الى

ادارتين : نابلس وعكا ، الاولى تضم ثلاث مديريات هي : جماعين وبني صعب وجنين والثانية تضم اربع مديريات هي : حيفا وطبريا وصفد والناصرة ، اما صور ومرجعيون في اعلى الجليل فتؤلفان مديريتين تتصلان مباشرة ببيروت . وتقسم ولاية القدس الى اربع ادارات هي : يافا وغزة والخليل وبئر السبع . ان الموظفين المنصبين على رأس مختلف هذه الادارات أكانوا حكاماً عامين أو حكاماً أو نواب حكام ، مزودون بعقلية واحدة وتتبع الأهداف الثلاث : استغلال الشعب ، وملء الجيوب ، وإرسال المال الى القسطنطينية حتى يرقوا او بكل بساطة ليستمروا في مراكزهم المحترمة . ويجهل كل منهم ما يحدث عند جاره واكثر من ذلك لا يعرف جغرافية المديرية التي يحكمها .

ان هذا يرينا كيف ان الادارة ، اذا جاز ان نطلق عليها هذا الاسم ، مجزأة ومشتتة في هذه البلاد ، واي فوضى تسيطر عليها . ان اليهود الذين لا يعرفون الا الصيد في الماء العكر يتواجدون اذن في الوسط الاكثر ملاءمة . من جهة يوجد الشقاق وعدم الانتظام والجهل والبؤس ، ومن جهة اخرى : يوجد الاتحاد والمركزية والجهة الموجهة بالفكرة الواحدة بناء على تصميم رسم سلفا .

ثمة ثغرتان تضعفان السلطات القنصلية في فلسطين امام الغزو اليهودي : بادىء ذي بدء ان عددها ليس كافيا ، ثم انها ليست اكثر مركزية من السلطات التركية اذ تحتفظ كل من الدول الاوروبية بقنصلية عامة في بيروت ، ولبعضها قنصليات في دمشق تتبع بيروت وتحتفظ فرنسا والمانيا فقط بنائب قنصل في حيفا يتبع بيروت . لكل من هذه الدول الكبيرة نفسها قنصلية عامة في القدس ونائب قنصل في يافا . ونادرا ما

يبقى ممثلو الاجانب اكثر من سنتين او ثلاث في مناصبهم . ويتجول القليل منهم في دائرة اختصاصه ولا اعرف بينهم من زار كل فلسطين . ينشغل هؤلاء الموظفون عامة بنقلياتهم وترقياتهم الى منصب اعلى . ويلوذون ايضا بمكاتبهم معظم الوقت يصرفون الاعمال اليومية بوعي ونشاط يدافعون عن المصالح التجارية لاممهم ويدبجون تقارير عن ازمات قناصل الدول الاخرى وعن السلطة التركية . وعلى هذا النحو لا يعرف اي قنصل البلاد ولا يدرك الخطر اليهودي . وانني متأكد بأن الحكام الاتراك والقناصل العامين لم يرفعوا الى حكوماتهم تقارير يلفتون انظارها الى خطط اليهود وتنظيمهم وغزوهم لفلسطين .

ارسل السلطان اخيرا في كانون الثاني سنة ١٩٠٤ ب م مفتشا عاما تركيا الى سوريا وفلسطين ليدرس الوضع السياسي في هاتين المقاطعتين . في احدى الامسيات بينما كان يلعب « البكارا » عند كاظم بك ، تحدث رجل امن صدفة عن مستعمرة اسرائيلية مجاورة بعدما كان هذا الموظف العالي قد قضى ستة اشهر في بيروت والقدس دون ان يهتم بمسألة اليهود . « آه هذه حقيقة ! . صرخ سعادة المفتش العام . يجب ان ادبج تقريرا عن الاستعمار الصهيوني في فلسطين ، ارجوك اذا ان تكتب لي على طرف ورقة ما تعرفه عن هذا الموضوع » . لا يعرف رجل الامن اشياء كثيرة لكنه كتب ما يعرفه ، وكتب سعادة المفتش تقريره وعاد الى القسطنطينية بعد اسبوع .

القناصل الاجانب :

يوجد في بيروت والقدس قناصل عامون ، يدافعون عن مصالح الصهيونيين ويساعدونهم على التقدم لانهم انخدعوا باليهود ولم يحسبوا حسابا للخطر الداهم . مع ان واجبهم الملح يكمن في مقاومة حركة

اسرائيل في فلسطين وإضمار العداء لما يرمي اليه اليهود .

العرب الآسيويون :

اضف الى ذلك ان العرب الآسيوين اكثر شعوب العالم هدوءا واسهلها انقيادا لانه بالرغم من الفوضى الحكومية التي تسيطر على تركيا وقابلية شراء كل الادارات وعدم كفاية الشرطة ، فان وجود الجرائم والجنح في البلدان العربية العثمانية اقل منه في اي مكان اخر . ومع ان العرب اعترتهم الاخطاء الملازمة للشعوب التي افقرت وارهقت بعبودية طويلة فانهم ما زالوا يحتفظون ببقايا الفضائل السامية التي تميزهم منذ زمن هارون الرشيد وصلاح الدين . ولن نتحدث عن الفوضى المزمنة في بيروت لان لها اسبابا عميقة ومجهولة سوف نكشفها فيما بعد .

جواسيس موسى :

بهذا الوصف اليسير ، يستطيع القارىء ان يحكم على الجواسيس الذين ارسلهم « موسى » لزيارة فلسطين أنهم كانوا على حق عندما مدحوها بما يلي : « كنا في البلد الذي ارسلتنا اليه ، الحق ان هذا بلد يجري فيه اللبن والعسل وهذه من ثماره » . يقول الكتاب المقدس : « لقد ابدوا للعيان تينا ورمانا وغصن كرمة مثقلا بعناقيد العنب حملها اثنان بواسطة رافعة » .

بما ان الجغرافية الاقتصادية لفلسطين وحالتها السياسية تشبهان الى ما لا نهاية جغرافية سوريا وبلاد ما بين النهرين وحالتها السياسية اذ ان كليهما اذا صح القول تكونان الزبدة ، فاننا نرجو القارىء ان يضفي على بقية البلدان العربية التأملات التي اضفيناها على وادي الاردن بغية فهم ما سوف يأتي وهو يدور حول اهمية حركة القومية العربية

وموقعها بالنسبة للدول الاجنبية الكبرى والقوميات الاخرى في تركيا .

ان الدراسة المعمقة التي نضعها عن سياسة كل من الحكومات الاوروبية الاساسية والولايات المتحدة الاميركية الشمالية والكرسي الرسولي والسلطان في المقاطعات العربية وفي آسيا الصغرى ، تفيد الذين سيقرأون « الخطر اليهودي العالمي » لتبيان مقدار ملائمة الظروف الحاضرة لتحقيق المشاريع الصهيونية في البلد الذي كان حلم اجدادهم والذي يثير مطامعهم[٨] في وقتنا الحاضر .

روسيا وانكلترا :

سنعالج بالدرجة الاولى ، سياسة روسيا وانكلترا لانهما ، من بين جميع الدول الاوروبية التي لها مطامح كبيرة في اسيا الصغرى والتي لها مطامع بممتلكات السلطان الآسيوية تتبعان بدأب فكرة ثابتة وتصميماً مسبقا وتكرسان كل جهودهما لتحقيق ذلك .

الهوامش

١) شغل منصب مساعد حاكم القدس مدة ست سنوات (١٨٩٨ - ١٩٠٤)

٢) الآدوميون نسبة الى آدوم كما ورد في الكتاب المقدس ، سفر يشوع الفصل الخامس عشر صفحة ٣٨٦ تعريب للفظة *Les Edomites*

٣) الآدوميميون نسبة الى آدوميم تعريب للفظة *Les Iduméens*

٤) ورد في كتاب « تاريخ جبل عامل » ص ٢٨ ، تأليف محمود جابر آل صفا « قيل نسبة الى بشارة بن مقبل القحطاني وقيل انه الامير حسام الدين بشارة بن اسد الدين بن مهلهل بن سليمان بن احمد بن سلامة العاملي ابن فتحون . وورد في كتاب ، « للبحث عن تاريخنا في لبنان ، تأليف علي الزين : ص ٢٠٤ « اما ابرز الزعماء اللبنانيين في عهد المماليك ، فهم بنو صبح وبنو بشارة زعماء العشيرة في القرن الرابع عشر . »

٥) كلمة تطلق على مجموعة مدن عشر في كل من فلسطين وايطاليا .

٦) مؤرخ يهودي (٣٧ م - ٩٥ م) كتب عن تاريخ اليهود في القديم .

٧) ورد في كتاب النظم الاسلامية نشأتها وتطورها للدكتور صبحي الصالح ص ٣٦٨ في تعريفة للعشور ما يلي : (تؤخذ في الاسلام على انها ضرائب على بضائع التجار فتؤخذ العشر من بضائع التجار الكافرين اذا قدموا بها من دار الحرب الى دار الاسلام ورخص لهم بذلك . . ولا يزيد الاخذ على مرة . . . خلال السنة)

٨) راجع الخرائط التفسيرية عن فلسطين في « الخطر اليهودي العالمي » . (المؤلف)

الفصل الثاني

السياسة الروسية

وصية بطرس الاكبر :

من الممكن ان تكون وصية بطرس الاكبر السياسية صحيحة او خاطئة فهي لا تدل الا قليلا على المثل الاعلى الذي ، اذا صح القول ، كانت روسيا مدفوعة اليه حتما . ان كانت صحيحة فهي تثبت ان قاهر شارل الثاني عشر كان سياسيا عريقا كما هو ضابط ماهر واداري ممتاز ، فهم تماما مصلحة بلاده ومستقبلها ووضع لها تصميا ، اذا اتبع بذكاء وعناد كان عظيما وكانت امكانية تحقيقه متوافرة . واذ كانت خاطئة فهي تدل على ان واضعها كان يملك معرفة كبرى بمصالح روسيا . والذي لاحظ السياسة التي تنتهجها هذه الدولة الكبرى منذ معركة بلطافا في سنة ١٧٠٩ ب م حتى ايامنا هذه يستدل على ان القياصرة الروس منذ نهاية القرن السابع عشر استخدموا الفكرة نفسها واتبعوا البرنامج ذاته المشابه تقريبا للبرنامج الذي ننسبه لمؤسس [مدينة] « سانت بطرسبورغ» .ان السلوك الروسي خلال القرن التاسع عشر والاحداث التي دارت في الشرق الاقصى تؤيد بشكل واف ما تقدمنا به .

كريستيانيا وكوريا والدردنيل :

اتجهت الامبراطورية الموسكوفية الشاسعة الارض ، وكأنها

مرغمة على ذلك ، الى المراكز الهامة الثلاثة : كريستيانا وكوريا والدردنيل ، لحرمانها من اي اتصال مباشر وحر ومستقل مع البحار التجارية الثلاثة : الاطلسي والهادي والبحر المتوسط . وغدت روسيا بهذه المحيطات الاستراتيجية والاقتصادية الضرورية لازدهارها المادي، اقوى مما لا نهاية له من اوروبا مجتمعة وغدا باستطاعتها ان تتحكم في الوقت نفسه بسائر القارات والبحار ، وفي هذا حياة الدول الاوروبية الكبرى الاخرى وموتها،وهو خطر يبقيها جميعها متيقظة ، ويرغمها على ان تراقب بانتباه شديد كل مسعى توسعي من جانب روسيا لمواجهته وقت الضرورة . وقد ادى هذا الوضع في النصف الثاني من القرن الذي شارف على نهايته الى حرب القرم ومؤتمر باريس ومؤتمر برلين وتكتل الحلف الثلاثي حتى الآن . كان على روسيا ، تجاه يقظة الدول الكبرى الفعالة ان تتخلى مؤقتا عن اطماعها في البلاد الاسكندنافية ، وان تعدل الى الارتداد عن حدودها الشمالية الغربية مما يتيح لها ان توجه جهودها نحو الهدفين الآخرين وهما كوريا وآسيا الصغرى حيث تجد حرية حركة اكبر . بيد ان هذين البلدين بعيدان عن اوروبا التي لا تجني بالدفاع عنهما الا فوائد ثانوية نسبيا . لقد اصبحت روسيا سيدة البحار من المتوسط الى المحيط الهادي بفضل سيادتها على البحر الاصفر والبوسفور والدردنيل وبالتالي اضحت آسيا ثمرة ناضجة يقطفها القيصر دون عناء. من جهة اخرى لم يعد امام الجيوش الروسية الا ان تنقض على الصين الضعيفة عن تلقي معونات خارجية ، وعلى الهند التي تؤجج الاطماع ، فلا يعود الاسطول البريطاني قادرا على الذهاب الى ممر بامير للدفاع عنها . ومن جهة اخرى ، لا تقوى الامبراطورية التركية على ادنى مقاومة للغزو الروسي ، وهي الضعيفة والممقوتة جدا من رعاياها . وباستطاعة روسيا المتمركزة في الدردنيل والسميرن والاسكندرية

والقدس وجبل سيناء ان تغلق حين تشاء طريق آسيا في وجه الاساطيل الاوروبية ،وبقوتها العملاقة التي توفر لها سيطرتها على جميع آسيا تتصرف وكأنها صاحبة الامر والنهي في اوروبا التي ارغمت على العبودية . يهم روسيا الاستيلاء على القدس وسيناء قبل الاستيلاء على الهند لمنع انكلترا من ان تنقل عبرها قواتها وتجعل فتوحاتها اسهل .

وتثير القدس شهية القياصرة ، بدافع آخر ذي طابع ديني ، لكن اهميته ليست قليلة . تتألف الامبراطورية الروسية من قبل ، من عناصر غير متجانسة لا ترتبط بها باي رابط تاريخي أوعنصري اواخلاقي ، ولا تخضع لها الا بسبب المسافات الشاسعة التي تمنعها من الاتحاد ، ولان كلا منها على حدة يعجز عن الثورة . وكان الحكم القيصري الابيض على كل حال العين اليقظة من اجل سحق كل مؤامرة .ونتذكر في هذا المجال التدابير المتخذة ضد الارمن والاعدامات التي كانت بولونيا مسرحا لها في ٢٦ نيسان ١٩٠٤ . ب م .اذن ماذا ستفعل بعد ذلك اذا تحققت مشاريعها الضخمة في اسيا مع وجود الشعوب المختلفة التي لا تحصى والتي ستكون مستعبدة لها ؟ اعملت الميكافلية الروسية فكرها ، فكرست نفسها لرسالة آلهية آمن الشعب السلافي الجاهل بها مخلصا .

قدسية روسيا :

ان قدسية روسيا ، حيال هؤلاء الطيبين ، هي في تجسيدها للارثوذكسية ، الدين الحقيقي الذي يجب ان يهيمن على كل الارض من اجل اتمام نبوءة الانجيل عندما يتحدث عن راع واحد وقطيع واحد . والقيصر الابيض ابن الشمس هو القائد المنظور لهذا الدين العالمي . بيد ان القدس تحوي قبر المسيح بالاضافة الى المقدسات الاخرى المتصلة

بافعال من حياته الانسانية ومعجزاته المختلفة . ويعطي فتح المدينة المقدسة ، المنتزعة من الكفرة ، للقيصر سحراً دينيا كبيرا تجاه جميع الارثوذكس ويمنحه شيئا من الرفعة الخلقية على البابا الذي اضطر ان ان يقبع في مدينة سجن فيها ولم يسكنها المسيح .

احتواء بلا هوادة :

نهجت حكومة « القديس بطرسبورغ » مع الشعوب المقهورة والشعوب التي تخضعها تباعا سياسة احتواء شديدة العنف . لم يعد هناك محل للمغلوبين ، يجب التحول الى الارثوذكسية والتحدث باللغة الروسية وترك دين الاجداد ولغتهم .

حينما تريد امة احتواء امم اخرى تجد ان الحكمة تقضي باستعمال جميع الاساليب عدا القوة . على الفاتح ان يظهر تفوقه على المقهورين وان يكون وديعا عادلا حذرا منهم وان يفرض عليهم حضارته الاخلاقية قبل حضارته المادية ، لان الاضطهاد لا يفيد الا في زيادة ارتباط المضطهدين بتقاليدهم . واذا نجحت هذه الطريقة من بعض الوجوه في روسيا مع التجمعات البربرية المتخلفة في بخارى وتركستان ، فهي لن تجدي نفعا مع الارمن كما فشلت مع البولونيين .

تكفي كلمة واحدة من القيصر لايقاف المجازر في ارمينيا . لو ساعدت الحكومة الروسية الارمن لتحسين مصيرهم بدل مشاركة السلطان في المؤامرة ، لجعلت منهم اصدقاء يحفظون لها الجميل ، ويخدمون مخططات القيصر في آسيا الصغرى . ينجح الانكليز بفضل هذه السياسة البحت ويخفق الروس حتما بانتهاج خلافها . وقد اتبعت روسيا في الداخل نهجا رجعيا فاستخدمت جميع الوسائل في سبيل

ابقاء الشعب على جهله وتخلفه في الارثوذكسية ودين القيصر الابيض وجعلت من المحرم ايضا على الاجانب فتح المدارس الخاصة في روسيا ومنعت الكهنة الكاثوليك من ارتداء ثوب لا يرتديه الكهنة الارثوذكس ، ولم تسمح للعملات الاجنبية بالتداول لانها لا تحمل صورة ابن الشمس . لذلك بقي الروس وكهنتهم متخلفين في الوقت الذي اخذت الشعوب المسيحية الكاثوليكية والارثوذكسية الاخرى من بولونيين وبلغاريين ورومانيين وارمن تلك التي كانوا يريدون احتواءها اخذت تتقدم حضاريا ولم تستسلم ابدا .

دور انكلترا

من المؤكد أن الاجتياح الروسي النشيط للهدفين البعيدين اللذين تحدثنا عنهما سابقا : كوريا والدردنيل ، سيتوج بالنجاح طالما انه ليس من دولة كبرى واحدة تمثل اوروبا كلها تقف في طريق روسيا لتنقذ حرية العالم . تنوب بريطانيا عن اوروبا وتراقب بثبات السياسة التوسعية الروسية وهي التي لها مصالح على جانب كبير من الاهمية في آسيا . وكان عليها أن تقصف بالمدافع خمس مرات على الأقل خلال سبعين سنة لارغام الدب الشرقي على التراجع الى وكره ، كما انها انقذت آسيا خمس مرات من عبودية شاملة وهي التي تدخلت في سنة ١٨٣٣ ب م بين السلطان ومحمد علي من اجل منع الروس من اجتياز آسيا الصغرى والنزول في القسطنطينية بحجة مساعدة تركية ، والتي هي بالرغم من تعاطفها مع نائب السلطان ، ارغمته على التخلي عن سوريا ليبعد عنها حربا طويلة ضد روسيا ، حربا غلبت فيها على امرها ولم نستطع فرض اتفاقية المضائق (١٨٤١ ب م) وتعطيل اتفاقية انكيار سكلي سنة ١٨٣٣ ب م التي جعلت من البحر الاسود بحيرة روسية . وقد تسببت انكلترا

ايضا في ١٨٥٤ ب م بحرب القرم ، ومؤتمر باريس حيث اغلقت الطريق الى القسطنطينية في وجه الروس عبر اوروبا وهي التي دعت سنة ١٨٧٨ ب م لعقد مؤتمر برلين وحرمت روسيا من ثمار انتصارها وسدت عليها تماما الطريق الذي اغلقته سنة ١٨٥٤ ب م في مؤتمر باريس. واخيرا لم تستطع انكلترا جر اوروبا الى الشرق الاقصى فصنعت من اليابان ما هي عليه الآن وخلقت بها عقبة كاداء في طريق توجه الروس نحو البحر الاصفر والمحيط الهادي.وبفضل هذه السياسة الحكيمة اصبح الدردنيل وكوريا قضيتين اوروبيتين تهمان الدول الكبرى تقريبا كما يهمها استقلال اسكندينافيا . اجبرت روسيا على التخلي مؤقتا عن كل غزو مسلح واعتماد منهج الغزو السلمي الذي يهيء بشكل طبيعي للانتصارات الكبرى .

لقد تفانى في خدمة روسيا للوصول الى الاهداف التي ارادتها رجال اعتبروا انفسهم رسلا للارثوذكسية.ومن المفيد الحديث عن التوسع والتأثير الموسكوفي في البلقان لدى شعوب السلاف التي يدعى الروس مخاتلة انهم اخوة لهم في العنصر والدين.ولكننا سنكتفي بدراسة[هذا التأثير والتوسع] في فلسطين والبلدان العربية الاخرى حتى لا نخرج عن اطار بحثنا .

الكنيسة الارثوذكسية في تركيا :

تنقسم الكنيسة الارثوذكسية الى اربع بطريركيات هي : القسطنطينية وانطاكيا والقدس والاسكندرية .وكانت بطريركية القسطنطينية تدعى البطريركية المسكونية اي العالمية لانها تملك حق السيطرة الدينية والقيادة على الثلاث الاخرى وتمتد سلطتها القضائية المادية على كل مقدونيا والاناضول، والادبية على كل الكنائس ذات

الادارة الذاتية والراغبة في الخضوع للكنيسة المسكونية في الصرب واليونان ورومانيا وروسيا اما البلغار فقد حرموا من البطريركيات الارثوذكسية الاربع لكونهم انفصلوا عن تركيا وخضعوا لكنيسة وطنية ذاتية الادارة كالبلدان المستقلة الاخرى في الصرب والجبل الاسود مثلا . تمتد سلطة بطريركية انطاكيا على كل سوريا والعراق ،وتشرف بطريركية القدس على فلسطين حتى حدودها الطبيعية ،وتتبع مصر باكملها بطريركية الاسكندرية . ينتخب البطاركة على التوالي من قبل المجامع المحلية المؤلفة من كبار رجال الدين ووجهاء الابرشية ويثبتون من قبل البطاركة الآخرين . اما البطريرك المسكوني فينتخب من قبل مجمع القسطنطينية بالاضافة الى البطريركيات الاخرى . يحتاج كل بطريرك ينتخب وكل اسقف الى موافقة الوالي العثماني قبل مباشرة مهامه الجديدة .

روسيا والبطريركيات العثمانية :

من جهة وجدت روسيا المقدسة نفسها محتقرة باتباعها بطريرك اليونان مع انها لا تسهم في انتخابه ،ومن جهة اخرى يخدمها استيلاؤها على البطريركية المسكونية في سياستها بشأن الجامعة السلافية والجامعة الارثوذكسية لان ذلك يمنحها السلطة الدينية على الكنائس ذات الادارة الذاتية ،وبفضل قوتها تحول تلك السلطة الى سلطة مادية تخولها التدخل في الشؤون الداخلية للدول الارثوذكسية . لكن اليونانيين يسيطرون على الحضرة البطريركية في القسطنطينية بالاضافة الى كل توابعها في آسيا الصغرى ومقدونيا وهؤلاء يدركون تماما المطامع الروسية ويقاومونها بكل ما اوتوا من قوة. وبما ان الكنائس المستقلة لا تريد ابدا ان يحتويها الروس فهي لذلك تدعم بقوة معارضة اليونانيين .

اليونانيون والسلاف :

من اجل اضعاف البطريركية المسكونية تدس روسيا في المجمع وتشجع التبذير والعبث في المجالس الكهنوتية المكلفة بادارة مصالحها,واذ تثقلها الديون وتمد اليد اليها عندئذ لا تهب الدراهم الا لحفظ حقوقها في التدخل ؛وفي الوقت ذاته تشجع التماس البلغاريين من الباب العالي استبدال الاساقفة الغناريين[1] في مقدونيا باحبار صوفيا فترفض تركيا بالطبع وتحتج البطريركية على تلك المطالب ولكنهم في صوفيا يعرفون كيف يصبرون لاقتناص الفرص .وهكذا في سنة ١٨٩٧ ب م وبينما كان عبد الحميد في حرب مع اليونان حركت بلغاريا قطعاتها على حدود مقدونيا وهددت باجتياح تركيا اذا لم تمنح اسقفين مقدونيين .رضخ السلطان المضطرب مرحبا ومما زاد سروره ان البلقان لم يتقدموا بمطالب اخرى . وإذا كانت كل الابرشيات المنتخبة في القسطنطينية تتألف من يونانيين يحكمهم رجال دين يونانيون لا غير ويقابلون الروس بمقاومة حية فلم تكن الحال كذلك في بقية البطريركيات .

الارثوذكس العرب :

تضم بطريركية انطاكية خمس عشرة ابرشية وتعد بطريركية القدس احدى عشرة ابرشية وتضم هذه الابرشيات الست والعشرون اكانت مطرانيات ام اسقفيات كلها مجتمعة ما يزيد عن اربعماية الف ارثوذكسي وجميعهم من العرب ، في الوقت الذي كان كبار الكهنة في ابرشيات البطريركيتين من اصل يوناني يجهلون لغة الشعب ولا يبذلون ادنى عناء لتعلمها .

ومن ناحية اخرى كان الاسقف الهليني مكروها من قبل العرب بسبب استئثاره وطمعه واحتقاره لكل ما هو عربي . . . وهكذا كان القساوسة العرب يبعدون بناء على خطة عن الاعمال حتى الثانوية منها . ولم يكونوا يتدرجون في الاكليريكيات ، ويختارون من بين العمال والفلاحين الذين يعلمونهم ببشاعة ان يقرأوا باليونانية صلوات لا يفهمونها ثم يبعثون بهم الى الريف المحتقر من قبل الهليني او يبقون عليهم في المدن من اجل معمودية الاطفال الفقراء او لدفن الاموات المهملين . بينما كانت المهام المربحة والفخرية الاخرى مقصورة على اليونانيين بالنسبة لمردود الابرشيات والرعويات . فالهلينيون يتصرفون بها بتكتم ودون تقديم الحساب لاي انسان وكان من الطبيعي ان لا تستخدم الاموال هذه الا لاثراء هؤلاء وعائلاتهم ونادرا ما كان يتصرف حبر يوناني من اجل مصالح البلد كفتح مدارس وبناء كنائس . وقد يرى ارشمندريون ومطارنة وبطاركة قدموا الى دمشق باخفاف عتيقة ثم يخلفون وراءهم مواريث طائلة لابناء اخوتهم واخواتهم وبناتهم .اما الابرشيات فترزح تحت الديون الطائلة في الوقت الذي لا توجد فيه اي مدرسة حبرية ولا اي كنيسة لائقة .ولقد امسك سعاة التوسع الروسي تماما بنقطة الضعف في البنيان الهيليني هذا في الاقطار العربية وبهذا خطوا الخطوة الاولى حسب خططهم من اجل الهدف التالي : لقد شجعوا تبذير الغناريين وسوء معاملتهم للعرب من جهة ومن جهة اخرى بالغوا في تضخيم تعسف الهلينين امام اعين ابناء رعيتهم ليزيدوا من الاستياء والاعتراضات او بالتالي جعلوهم يعون رويدا رويدا قوتهم وحقوقهم .لقد ارسلوا شبابا ارثوذكسيا عربا للدراسة في روسيا فرجع هؤلاء الى دمشق يحملون فكرا تحرريا ومقاوما . قال هؤلاء الشباب للمرتبطين بهم : انظروا الى المذاهب الكاثوليكية العربية

والى الموارنة واليونان الكاثوليك والى الكلدانيين انهم يخضعون للبابا كما
ان المذاهب الارثوذكسية الاخرى من نساطرة ويعاقبة تمتلك اكليريكيات
وطنية ولا يوجد سوانا يستعبدهم الهلينيون ويبعدوننا حسب الخطة عن
ادارة كنيستنا فحتام نسام هذه العبودية ؟ لقد حان وقت طرد الاجنبي
لاننا قادرون على كفاية انفسنا بانفسنا ويحتقر الهلينيون عنصرنا وبلدنا بما
فيه الكفاية .

حبائل الروس

ازاء الخطر الداهم ارتمى اليونانيون في احضان الاتراك ليجدوا
فيهم سندا لمواجهة الروس والعرب على السواء .لقد كانت نوايا الروس
تتجه الى تحرير العرب وطرد اليونانيين للحل مكانهم واما بالنسبة للعرب
فقد كان ذلك انتقالا من عبودية الى اخرى لا بل يمكن احتمال عبودية
الروس اكثر بسبب طيبة الاكليريكيين السلاف والمساعدات المالية التي
يحملونها معهم الى الابرشيات . ان السيطرة الروسية على
البطريركيات العربية الثلاث : انطاكية والقدس والاسكندرية تجعل
منها سيدة الكرسي المسكوني في القسطنطينية وبالتالي سيدة
الارثوذكسية . انطلاقا من هذا النفوذ لا يجد الروس اي عناء في احتواء
الكنائس الارثوذكسية في الاناضول « الارمن » وفي البلدان العربية
« اليعاقبة والنساطرة » . تعد رعية هاتين البطريركيتين ثلاثمائة الف من
الاتباع لا يدخل ضمنهم سكان بلاد فارس وهكذا يصبح للروس في
فلسطين وسوريا والعراق سبعمائة الف نصير بالاضافة الى بطريركيتين
واربعة وعشرون مطرانية وابرشية وبطريركية واحدة يعقوبية مع تسع
ابرشيات وبطريركية نسطورية مع اثنتي عشرة ابرشية أضف الى هذه
الاعداد اربعة ملايين من الارمن في آسيا الصغرى وفارس وبهذا نكون
فكرة عن الغزو الروسي السلمي .

حرم غريب :

حضن الاتراك ، اذن اليونانيين الذين يؤلفون بالنسبة لهم عنصرا
صالحا للسيطرة والشقاق في البلدان العربية .لقد ارهق اليونانيون
الوطنيين وافقروهم بغية الامساك بهم في ظل عبوديتهم ، لا يفتحون لهم
المدارس في رعوياتهم لا بل يرمون بالحرم الارثوذكسي الذين يرسلون
اولادهم الى مدارس الارساليات الكاثوليكية والبروتستانية . وهنا تلتقي
مصالح الاتراك واليونانيين واعني [مصالح] الاجنبيين بالنسبة للعرب
اللذين تماثلا فاندمجا . ان وجود تركيا هو بمثابة قضية حياة او موت
بالنسبة لرجل الدين اليوناني في الامبراطورية العثمانية . وهكذا فبقدر ما
يجلو الاتراك عن دول البلقان : رومانيا والصرب والجبل الاسود
وبلغاريا وجب على احبار البطريركية اليونانية اللحاق بهم . اذا ما وصل
العرب الى حد الاستقلال يشكل ذلك بنظر السلطان بداية يقظة
القوميات لانه بعد التحرير الديني يأتي التحرر السياسي . ان هناك
اعتبارا اخر لا يقل اهمية يدعو السلطان للتمسك باليونانيين في
البطريركيات العربية بالرغم من انهم يختارون من الأثينيين واليونانيين
وهو انهم يصبحون رعايا عثمانيين بمجرد دخولهم بخدمة الابرشيات
التركية . يعتبر رجال يلدز اليونانيين قليلي الخطر بالرغم من ان هؤلاء
يكرهون الاتراك والروس على حد سواء ولا يستطيعون العمل الا
لمصلحة بلادهم ، في حين ان حلول الاكليريكية الروسية محل
اليونانيين يكرسها سيدة عليا للارثوذكسية وتشكل بالتالي دولة داخل
الدولة نفسها ، دولة عدوة قادرة ان تحل محل السلطان كما حلت محل
اليونانيين من قبل .ولكن بالرغم من التحالف الخفي بين الاتراك
واليونانيين استطاع الروس ان يخلقوا مدارس مسكوفية للبنات والصبيان
في بطركيتي - دمشق واورشليم ، واقاموا ايضا دارين

للمعلمين في الناصرة وبيت جالة بالقرب من بيت لحم من اجل ابرشياتهم في المستقبل . مما أجبر اليونانيين على فتح بعض المدارس الصغيرة السيئة الادارة كي ينزعوا اي حجة لوجود هذه المؤ سسات ،وبما انها لم تلق نجاحا رموا بالحرم الاولياء الذين يرسلون اولادهم الى [المدارس] الروسية . لم تفد كل المقاومة اليونانية المستندة الى الاتراك الا في زيادة فعالية الموظفين الروس في الجمعية الفلسطينية التي يرئسها « الغراندوق سرج » المكلف خصيصا باجتياح آسيا الصغرى اجتياحا سلميا .

انتصار عربي روسي

بفضل حنكة الحكومة الروسية التي كانت تستعمل اللين تارة والتهديد طورا ، وبسبب تعسف الاكليريكية اليونانية تهيأ المجمع لتسمية بطريرك عربي خلفا لبطريرك دمشق اليوناني عندما مات في سنة ١٨٩٩ ب م وكان يتألف بغالبيته من الارثوذكس العرب . ارتمى اليونانيو ن بصراحة بين ايدي الاتراك مذعورين من الهزيمة الساحقة التي منوا بها يلتمسون لديهم النجدات وقد كان السلطان نفسه اكثر اضطرابا من اليونانيين فرفض لائحة المرشحين التي قدمت اليه في الوقت الذي اخذ ناظم باشا يهدد بعض اعضاء المجمع كل على حدة ويعد البعض الاخر باوسمة كمكافآت لالزامهم بانتخاب بطريرك يوناني . افهمت روسيا عبد الحميد عبر علاقاتها به وبالوالي العام في دمشق بانها ستخلعه اذا استمر في مؤ امراته . ازاء هذا الوضع الحيوي من قبل الارثوذكسية المسكوفية ، اختفت كل الاعتراضات وانتخب السيد دوماني وهو عربي بطريركا لانطاكيا . وتقدم الاساقفة الهلينيين الذين كانوا يشكلون جزءا من المجمع باستقالاتهم وانسحبوا الى جوار مواطنيهم لانهم لم يعودوا

سوى غرباء مكروهين في البلد الذي استغلوه طويلا . رفض بطريرك القدس الذي كان على وفاق مع زملائه في الاسكندرية والقسطنطينية تثبيته وحتى الاعتراف به بطريركا عاما منتخبا لسبب واحد هو انه لم يكن يونانيا وهذا التدبير السخيف لم يؤ د الا الى تعلق العرب بالبطريرك الذي انتخبوه وزاد من كراهيتهم للاجنبي الظالم كما عزز حرم الحبر في بلغاريا اكثر فاكثر استقلال تلك الامارة . تمسك السلطان بالاعراف المألوفة التي لم يكن يريد الاعتراف بها مبدئيا والقاضية بعدم تنصيب البطريرك الجديد رسميا الا بعد ان يثبت من البطاركة الثلاثة،وادار بطريرك دمشق العربي فعلا أبرشيته بتمام الحرية وكما لها تحت حماية قناصل القيصر الفعالة .

نوايا الروس

بالتأكيد لو كانت هذه المأثرة الروسية متجردة لفاقت كل المدائح . فهل هناك اجمل من استقلال شعب مقهور وهل هناك اشد ظلما من استعباد أمة من قبل عصابة احبار يونانيين يزعمون ان كل المؤ هلات الكنسية يجب ان تختص بهم وحجتهم المضحكة ان الانجيل كتب باللغة اليونانية وان اليونانيين كانوا اساتذة البلدان العربية في العهد البيزنطي . ولكن سمو هذا العمل لوثته نوايا الروس الذين يضمرو ن الحلول مكان اليونانيين ووضع العرب تحت عبودية جديدة . عندما تسلم البطريرك دوماني منصبه وجد الصندوق خاويا والديون كثيرة حينئذ بسط يده لولية نعمته روسيا التي رفضت ان تمنحه اي مساعدة مالية ما لم يوافق البطريرك العربي على ان يعهد اليها بادارة كل المدارس الكنسية في الابرشية ، فخانته قواه وعجزت الأمة عن نجدته بسبب فقرها ككل الأمم الخاضعة لتركيا . فكر السلطان ابان هذا الوضع بانه يستطيع بعد موت

السيد دوماني تنصيب يوناني من جديد في دمشق كما ان اليونانيين لم يفقدوا الامل نهائيا في استرجاع منصب انطاكيا . اما بالنسبة لروسيا فقد كانت جد راضية عن احابيلها التي تؤلف لعبتها ، استفادت من رفض السلطان تولية [البطريرك] من الحرم اليوناني ومن ازمة الخزينة البطريركية من اجل اقناع العرب في المجمع القادم ان مصلحتهم تقضي بانتخاب بطريرك روسي ليتغلب على كل الصعوبات الراهنة .

لا الاتراك ولا اليونانيون ولا الدول الكبرى ، تستطيع الوقوف بوجه اشغال المنصب البطريركي العثماني من قبل روسي ، لان حكومة بطرسبرغ استشهدت بمثل الاب البروتستانتي الانكليزي ، وبالبطريرك اللاتيني الايطالي في القدس ، وبالمبعوثين الرسولين الفرنسيين في بيروت وبغداد ، [اذ ان هؤلاء] يحتفظون بجنسياتهم الخاصة على الرغم من انهم يشغلون مناصب في الابرشيات التركية . بالرغم من كل شيء يرفض السلطان تنصيب [البطريرك] ويتمسك البطاركة اليونانيون بحرمهم . هذا الحرم الذي لم يزعج العرب كما لم يزعج البلغار . لانه ليس لإعتراف السلطان الرسمي اي قيمة . يعمل البطريرك الماروني والبطريرك اللاتيني في القدس وكل الأساقفة والمبعوثين الاجانب الذين يتواجدون في مواقع جد متقدمة بالنسبة لاقرانهم المعترف بهم . هذا هو الموقف في بطريركية دمشق التي زرتها في شباط سنة ١٩٠٤ ب م حيث تثبت وانا مسرور من ان الادارة العربية في الابرشية كانت في منتهى اللطافة [بل] اكثر من اليونانيين وفاء وابوية رغم ازمة خزينة الابرشية .

بطريركية القدس الارثوذكسية

لقد استقوى الروس بنجاحاتهم في سوريا فوجهوا جهودهم نحو

فلسطين وتعلم اليونانيون ، من فشلهم فراحوا يضاعفون حماسهم من اجل مواجهة الروس . ولكن كل هذا اصبح غير مجد ، فلقد استطاعت دبلوماسية روسيا ان تتغلب عليهم باكرا . فالاسباب التي قوضت البنيان اليوناني في دمشق هي نفسها تطالعنا ثانية : شبه سيطرة للعنصر العربي ، وتجاوزات مثيرة للاكليريكية اليونانية وعدة ملايين من الديون تسحق البطريركية وسلوك تجاري للموظفين الاتراك الذين يباعون بالاوسمة او ببضعة سحاتيت على التوالي تارة للروس وطورا لليونانيين ، الخ . . الخ . . من هو الحاج او السائح الذي لم يأخذه العجب للتناقض بين ضخامة الاثار الروسية وفخامتها وعددها في فلسطين [من جهة] وبين بضعة اديرة وكنائس يونانية بائسة [من جهة اخرى] ؟ واخيرا بفضل رشوة الوالي كاظم بك وترجمانه بشارة حبيب نال الروس حق التدخل والاشراف على اليونانيين ليتم اخضاعهم بشكل افضل وحقق شراء الممتلكات التي يحظر نقلها بصراحة . يحاول البلافيون التسلل الى كنيسة القيامة(١) بهدف الحلول جبل آضوى وسيناء مكان اليونانيين وهم الذين دخلوا بلباقة الى الاديرة اليونانية مثل جبل آصنوس وسيناء منذ امد بعيد .

يعتبر الاستيلاء على الاماكن المقدسة المسيحية بالنسبة لروسيا قضية هامة لانها بذلك تقطع كل مصادر دخل البطريركية ، واذا حرمت هذه من مصادر الدخل وكبلت بالديون تخر صاغرة عند قدمي روسيا . وبعد اليونانيين تنحي روسيا شيئا فشيئا الارمن الذين يفتقرون الى الحماية واللاتين الذين تخلت عنهم فرنسا . وبهذا التفوق يكرس القيصر حينئذ سيطرته الدينية على جميع الارثوذكس ، وبسيادة الروس على البطريركيتين العربيتين يباشرون سيادتهم بسهولة على بطريركية الاسكندرية والقسطنطنة وسيكون اسهل على روسياان تستخلص من

اليونانيين بطريركية القدس من ان تطردهم من كنيسة القيامة نظرا لانها ستصادف هناك عقبة كاداء وهي وحدة اليونانيين والاتراك . هذه هي الشرعة العالمية للفرنسيسكان في الارض المقدسة .

معضلة الاماكن المقدسة

كانت هذه الشرعة في حماية فرنسا دون سواها حتى عام ١٩٠٢ ب م ، ولكن منذ الاحداث الاخيرة في كنيسة القيامة وبسبب مؤ امرات كاظم بك والدير اليوناني وبسبب التهور الروسي الاخرق ، رجعت كل طائفة من طوائف الارض المقدسة الى قنصلها الخاص . ادت رشوة كاظم بك وترجمانه بشارة حبيب وسوء سياسة اليونانيين والروس الى نتيجة وخيمة على تركيا وروسيا واليونان والسبب ان هذه الدول وجدت نفسها بمواجهة قناصل اوروبا واميركا بعد ان كانت علاقتها منحصرة بفرنسا فقط . وعلى العكس من ذلك يكسب احبار الارض المقدسة فائدة كبرى من هذا التغيير في قوانين الحماية لانهم يجدون المزيد من المساندة والدفاع لدى عدة امم ما لم يصادفوه لدى امة واحدة فقط . من المؤ كد انه من المفيد الممتع على حد سواء دراسة كل المؤ امرات التي تحاك حول قبر السيد المسيح ورؤ ية كيفية اعتماد اليونانيين الذين لم يتغيروا منذ « ديموستين » وفيليب على روسيا لمناهضة الاتراك واللاتين ،وعلى الاتراك واللاتين لمقاومة الروس ، لكن هذه الدراسة تبعدنا جدا عن موضوع هذا الكتاب وتضطرنا للاستطراد لان تعقيدات المقدسات في الارض المقدسة تشكل معضلة شرقية سوف نطرحها في مؤ لف خاص .

وجد الروس الذين لا يتراجعون امام اي عقبة والذين يعرفون دائما كيف يتغلبون على الصعوبات سبيلا للولوج الى كنيسة القيامة رغم

المعارضة العنيفة التي ابدتها كل الاحزاب المستفيدة .

الروس والاقباط والأحباش

يوجد في القدس دير للاقباط متاخم لكنيسة القيامة يتردد اليه كهنة أحباش منذ سنوات عديدة وقد رفضوا الخروج منه بعد ذلك معلنين ملكيتهم للقسم الذي شغلوه في البناء ، ومن الطبيعي ان يحتج الأقباط على مزاعم ضيوفهم الأحباش على الرغم من عطفهم عليهم لان الكنيسة الارثوذكسية (الحبشية) كانت خاضعة للبطريركية القبطية في القاهرة .

اطالت تركيا أجل الدعوى ، محافظة على الوضع كما كان قبل النزاع لانها غير جديرة بتسوية هذا الصراع ، بحيث اعتاد الاحباش على سكن الدير وابقى الاقباط مفاتيحه بحوزتهم ، يغلقون ابوابه ويفتحونها في ساعات محددة . انها ملهاة : الاحباش لا يخرجون كلهم من الدير دفعة واحدة مخافة ان يوصد الاقباط الابواب بوجههم فلا يستطيعون العودة اليه وينتهي الصراع . إن هذا الوضع يفيد بشكل عجيب جشع والي القدس الذي يلهي الفريقين في وقت واحد .

تريد روسيا اذن ان تجني ، بأي ثمن فائدة من الصراع الدائر بين الاقباط والاحباش.ومن اجل ذلك تدعم مزاعم الاحباش وتشجعهم من حين لاخر على الاحتجاج بشدة . وفي نيسان الماضي من سنة ١٩٠٤ اشتد هذا الصراع بشكل خاص ، فساند المرتشي الفاسد كاظم بك الاحباش الذين كانوا يتحدثون على الاقل عن قطع العلاقات نهائيا ببطريركية القاهرة والخضوع لسيطرة المجمع المقدس في بطرسبورغ .

رسول حبشي

اتـى رسـول خاص من اديس ابابـا لحسـم هذه القضية مهـددا بالانفصال عن الاقباط اذا لم يعيدوا مفاتيح الدير موضوع النزاع . اما احابيل الروس فقد كانت جلية بحيث انه لا يمكن ان يختلط فيها الامر ، رفض الاقباط المدعومون من قبل اليونانيين واللاتين والقناصل الاجانب قطعيا كل اتفاق مع الاحباش وقاوموا الرسول الذي بعث به النجاشي وردوا على تهديداته بان تبعية « الاحباش » الدينية لبطريركية القاهرة لا تعود عليها بأي فائدة مادية . تدخل ممثلو الدول الكبرى وعاد الهدوء الى رهبـانية الكرمـل والقاهـرة واديس ابابـا والقـدس والقسطنطينية وبطرسبورغ . هذه اللعبة لم تفد الا سعادة كاظم بك ومترجمه بشارة حبيب اللـذين ملآ جيوبهما ببضعـة الاف من الفرنـكات وتلقيا بعض اوسمة من القيصر ومنلق .

وجدت سياسة الغزو الروسية فرصة سانحة للعمل فاسرعت روسيا بالتالي للحلول مكان الاحباش في الدير الذي تحدثنا عنه ومنه تسللت بدون اي صعوبة الى كنيسة القيامة ، وعلاوة على ذلك اغرقت الدير بالاحبار والارشمندريت والكهنة بغية بسط السيطرة على مملكة النجاشي وذلك لتجد لها موطىء قدم في افريقيا ولإقلاق انكلترا في القارة السوداء .

الشعور الوطني والتعصب الديني

لقد عالجنا في هذا الفصل العلاقـات السياسية المتصلـة اتصـالا وثيقا بمسائل ظاهرها ديني يثبت بصورة واضحة هذه الحقيقة المجهولـة وهي ان التعصب الديني لا يوجد قط في الاعماق ولكن الشعور القومي

هو الذي يوجـه حركات الشعـوب . بعدمـا توصـل الـروس الى طرد اليونانيين الذين ما زالوا يقيمون في القدس ، كان على السلطان ان يختار بين استقلال العرب الارثوذكس وبين استعباد الروس لهم . فاختار في النهاية الحل الاخير ، مخافة ان يعنفه الروس ، فهو يأمل دائما بنجدات من اوروبا ضد السلاف بينما لن يجد اي سبيل الى السـلام ، في اليوم الذي يستيقـظ فيه العـرب . هكذا ترتبـط العنـاصر الثلاثـة : الأتراك واليونانيون والروس، لابقـاء العـرب مستعبـدين يختصمـون من اجل استغلال عبوديتهم . ولكننا نستطيع ان نطمئن الثلاثة جميعا ان جهودهم المتحدة او المفككة المتواصلة او المتقطعة لن تفوز باي حصيلة ،لقد سبق السيف العزل ودعت الامة العربية ذاتها من دجلة الى برزخ السويس ومن البحر المتوسط الى بحر عمان الى ثورة قومية تدهش العالم بسرعتها وبالروح السلمية التي تحركها .

اسد الصحراء يستيقظ

يستيقظ اسد الصحراء وتردد جبال سوريا وسهول الفرات صدى زئيره ،ولقد كنت اسمع دائما هذا الضجيج الاصم الذي يسبـق قصف الرعد وكنت ارى البرق الذي يسبق كبرى العواصف . في ذلك اليوم الويل للاتراك والشركس الذين يجدون في سلبنا ، انظروا نحو الشمال ، تجدوا الظواهر نفسها : فالاكراد قد تهيأوا من قبـل للمعـركة ، لا من أجل سحق الارمن بل من اجل التآخي معهم في وجه الاتراك الاعداء المشتركين ،وها ان الارمن بعد آلام مريرة ، يرون شمس الحرية تبزغ .

التمزق او الاستقلال

اذ لم يبغ الروس ان يبوؤ وا بلعنات التاريخ والشعوب ، عليهم

ان يعدوا انفسهم باخلاص لتبني النتيجة الثانية لهذا القياس المنطقي الذي عرضه احد دبلوماسيهم في مؤتمر برلين حول موضوع حل القضية الشرقية اذ قال:التمزق او الاستقلال . التمزق مستحيل اما الاستقلال فامر سهل عادل ومنطقي .

الهوامش

١) الفناريون : نسبة الى حي في القسطنطينية يسكنه اليونانيون

٢) هذا الحبر المقيم في استامبول معترف به من الباب العالي كالبطريرك المسكوني

٣) بناء شيدته القديسة هيلانه والدة الامبراطور قسطنطين في القرن الرابع الميلادي رمم في العهد الصليبي . في هذه الكنيسة الرئيسية لحد السيد المسيح وخشبة الصليب . يديره منذ ١٨٦٨ م بطريرك اللاتين في القدس .

الفصل الثالث

السياسة البريطانية

التيار السلافي

تأتي بريطانيا العظمى الدولة الاوروبية الكبرى بعد روسيا ، من حيث اهتمامها الكبير بالقضية الشرقية . كما ان سياستها تتعارض في كافة اهدافها مع السياسة الروسية فالانكليز هم الاعداء الاكثر يقظة والاكثر فعالية في وجه الغزو الموسكوفي .

تستمر بريطانيا منذ معركة واترلو التي انقذت فيها اوروبا من الاستعباد تكافح الخطر الروسي الاعظم والاكثر تهديدا بنفس المهارة والثبات اللذين اديا من قبل الى الانتصار على عبقرية نابليون .ونعرف جميعا كيف حملت السلاح في الاعوام ١٨٤١ ب م و١٨٥٤ ب م و١٨٧٨ ب م لتبقي التيار السلافي في حدوده المنيعة المؤلفة من بروث والدانوب والقوقاز .وفي الوقت الذي نكتب فيه تستيقظ اليابان لترد روسيا الى ما وراء حدود نهر الامور . لا نؤاخذ انكلترا على احتلالها لقبرص لان هذه المحطة تسمح للاسطول البريطاني برد اي اعتداء روسي وبالدفاع عن الدردنيل وخليج الاسكندرية ووادي الفرات المفاتيح الثلاثة لآسيا والبحر الابيض المتوسط . ولا يحتج على وجودها في مصر فمنها تتمكن من السهر على حرية البحر الابيض المتوسط وآسيا بموافقة شطر من العالم .

ان العداء ، الذي اثاره في فرنسا احتلال الانكليز لوادي النيل محق وجدير بالاهتمام،فالفرنسيون يملكون حقوقا غير قابلة للانتقاص في مصر وقناة السويس لكن هذا لا يمنعنا من التساؤ ل عن سبب رفض فرنسا المساهمة مع بريطانيا في تهدئة البلاد فمن المؤكد ان الفرنسيين لو وافقوا عام ١٨٨٢ ب م على احتلال مصر بالتعاون مع بريطانيا العظمى لتمكنوا من فرض سيادتهم على مملكة الخديوي لان فرنسا كانت تتمتع حينئذ ، في جوار الاهرام وقناة السويس بحظوة وتلقى قبولا اكثر من انكلترا .

خطأ الدبلوماسية الفرنسية

وعلى كل حال لم تكن انكلترا لتعارض الوجود الفرنسي،فالذي كان يهمها اكثر هو احتلال الطريق الى آسيا لا استعمار وادي النيل . وبما ان الميدان خلا لانكلترا فقد اصبحت بمرور الزمن سيدة السودان والنصف الشرقي من افريقيا وهي بصدد مد الخط الحديدي ـ الذي يربط بين الكاب والاسكندرية وحدها ولمنفعتها الذاتية ـ وذلك بسبب الخطأ الذي ارتكبته الدبلوماسية الفرنسية عام ١٨٨٢ ب م .

من جهة اخرى ، لم يكن بامكان الفرنسيين ان يدعوا بقدرتهم الاستيلاء على مصر بمفردهم لأن الظرف لم يكن مناسبا فقد كان عليهم تقديم الحساب ليس فقط لانكلترا ، بل ايضا لروسيا والمانيا وايطاليا وتركيا اللواتي يسارعن الى السلاح ليحلن دون ان تصبح فرنسا على جانب كبير من القوة في البحر الابيض المتوسط ، بينما يمكن لانكلترا التصرف منفردة وبحرية كبيرة دون ان تقلق احداً لأن انعزالها عن النظام القاري ووجودها خارج التوازن الاوروبي ، يسمحان لها بحرية

الحركة ،الامر الذي لا يتوافر لاي دولة اوروبية كبرى اخرى بسبب الخوف من ان تثير هواجس جيرانها وحسدهم .

لذلك يمكن القول ان بريطانيا تجلس على قمة الصخرة العالية التي تحدث عنها لوكرس في مطلع الكتاب الشعري الثاني بعنوان : من الطبيعة حين يقول : « إنه لمن الغدوية بمكان ان نستهله ونحن على شاطىء الأمان عذاب الغير ، وسط البحر الشاسع وقد هيجته الرياح لتراقب العداوات الاوروبية وتوجهها حسب مصالحها المرتبطة ارتباط وثيقا بمصالح اوروبا نفسها والعالم جمع » .

الادارة الاستعمارية الانكليزية

من جهة اخرى ، كانت انكلترا قد اعدت النظام الاداري الاستعماري ليكون قادرا على الامساك بالشعوب الخاضعةلها .ويتعارض النظام البريطاني تماما مع النظام الروسي الذي يثير حقد المهزومين على الروس ويضع البذور الاولى للثورات الدامية في المستقبل . لا يستعمل الانكليز القوة ابدا لفرض لغتهم وحضارتهم على مستعمراتهم او محمياتهم ، فهي تتغلغل بالوسائل السلمية والبطيئة . يعمل القس البروتستانتي منفردا ، بعيدا عن الادارة الانكليزية التي تعتبره كاي مواطن عادي، على خلاف الكاهن الروسي الذي لا يستطيع التصرف دون امر من الامبراطورية . وتحمي بريطانيا القساوسة البروتستانت كعامة الناس ، من تجار وصناعيين. وتدعم روسيا كهنتها وتؤ يدهم كرسل للكرسي الارثوذكسي يتلقى المبشر الانكليزي المعونات بمبادرة خاصة وتكفل خزينة الامبراطور الكاهن الروسي . عندما يدخل الانكليز الى بلدة يكون هاجسهم احترام مؤ سساته وتقاليده: يتركون

القوانين القديمة نافذة ويبقون على الموظفين القدماء في مراكزهم ويختبئون وراء شخصيات النظام السابق الكبيرة ويوفرون للبلد قيادة جديدة تبدو وكأنها تنبعث من ارادة الاهلين ، ادارة تهدف بالدرجة الاولى للقضاء على التجاوزات القديمة التي يعاني منها الشعب ولسيادة العدالة والمساواة امام القانون . تعمل انكلترا بجدية ليشعر المواطنون في وقت قصير ، بتحول نافع في التوزيع العادل ودون ان يلحظوا اي تغيير في تنظيم البلاد الاداري ولا في دينها او لغتها اومؤ سساتها .اضف الى ذلك ، البساطة التي يتعامل بها الانكليزي مع المستعمرات فهو لا يثير حقدها او حسدها . ان مظاهر الغنى والبذخ لدى اليهودي او اليوناني الدخيل لا تتوافر لدى ممثل ملك انكلترا ، وتجد اعتزازاً بالنفس لدى ضابط البوليس الايطالي او الهنغاري اكثر مما تجده لدى المندوب السامي الانكليزي في مصر . اضف الى ذلك ايضا ان الانكليز يحسنون اختيار الرجل المناسب للمركز المناسب أو الرجل المناسب في المكان المناسب. يولون مواطني البلد كل وظيفة تضع صاحبها في احتكاك مباشر مع الشعب ، فاذا لم يتوافر بين مواطني البلد [الرجل الكفء] يولى المركز لالماني او مالطي او يهودي او اي انسان اخر ، فلا يشعر الشعب الخاضع ، بثقل وصاية من اخضعه ولا ينشأ اي خصام بينهما .ويرى الانكليز ان هدف احتلال اي بلاد او السيطرة عليها ليس الاثراء بخلق وظائف ورواتب بدون عمل فاذا كانت الوظائف الحكومية تغني بعض الافراد الا انها لا تثري الامة . انهم يعتقدون اعتقادا راسخا ان دولة الاحتلال تثري الدولة المحتلة باستثمار ثروات البلاد الطبيعة . وفي هذا الميدان يتمتع الانكليز بحرية تامة بسبب جهل سكان البلاد الاصليين او قلة تجربتهم . فهؤلاء لا يملكون التربية ولا التعليم ولا الرساميل الضرورية . هذا هو واقع الحال في مصر : يلهث المواطنون وراء

وظائف لا يتعدى راتبها بضع مئات من الفرنكات في الشهر في الوقت الذي يربح فيه اليهود واليونانيون الملايين بالمضاربة على الاراضي البائرة والمشاريع الصناعية المحلية .

المصريون

هذا الواقع يكفي للدلالة على عدم قدرة المصريين على حكم انفسهم بانفسهم .وبعد مرور اربعة وعشرين عاما على وجود عدالة سريعة ومتجردة ونظام بوليس جيد وادارة ممتازة في مصر لم تؤ سس خلال هذه الفترة شركة مالية وطنية واحدة في اي استثمار كان على الرغم من [وجود] مثيل بها كالشركات الاجنبية التي تجمع ثروات طائلة في بضع سنوات .يناقش المصريون كثيرا حقوق الخليفة التركي على مصر وطرد الانكليز والعودة الى سيطرة السلاطين . فهؤ لاء التعساء ما زالوا يعانون الخبل من سياط المماليك الاتراك والشراكسة الذين اكثروا من استعمالها .

السوريون

فليمض هؤلاء الذين يتمسكون بالحقوق المزعومة للسلطان عبد الحميد في وادي النيل بضعة شهور فقط في القسطنطينية او في بيروت [هناك يقولون] فلنعط في سوريا الادارة المصرية ولسوف نرى هل نستمر في الهجرة الى مصر واميركا وهل نسمح لليونانيين واليهود بالاثراء على حسابنا؟ ويتحدث سكان يافا ، رغم سوء نوايا الحكومة التركية والعراقيل التي تضعها امام تطور البلاد ، عن رغبتهم في تأسيس شركة مغفلة لاقامة خط ملاحة بحري يربط بين سوريا ومصر وانكلترا .

ترتكز اليوم سياسة انكلترا الخارجية الاستعمارية على ما يلي :

الحفاظ على الهند والابقاء على وحدة الصين لمنع روسيا من التوسع ، وتحضير اليابانيين بغية الحاق الهزيمة بالسلاف في منشوريا ومناوئتهم في الافغانستان وفارس وتركية ، وتنمية امبراطوريتها الافريقية لتقوية الهند بثرواتها الهائلة لتحل مكانها فيما لو انتزعت منها ، والحفاظ اخيرا على الطرق البحرية : جبل طارق ومالطة ومصر وقبرص وعدن . فبدونها تصبح تحت رحمة اول قادم . يجب ان تمتلك بريطانيا الموقع الخاص والقوة البحرية الضاربة قبل القيام بالمشاريع الضخمة .

قبل ان نهاجم هذه العظمة الكبرى وهذه الثروة الطائلة يجب ان نعلم ان وضعا كهذا يفيد العالم اجمع ، فاساس النظام الجمركي في انكلترا هو التبادل الحر ، لذا فان استثمار المستعمرات البريطانية الواسعة يساهم في نشر الرخاء في كافة البلدان .

وتنهار هذه القوة الاسطورية كما ينهار قصر من الورق يوم تتمركز روسيا في الدردنيل والخليج الفارسي والاسكندرونه والقدس فتحل الاتوقراطية المطلقةعندئذ مكان الحرية على الارض ونشهد خلق نظام التعصب الطائفي التعسفي . اما نحن الشرقيين فمصيرنا قد سوي ولا يبقى امامنا الا التخلي عن آمالنا في الاستقلال الوطني ، ليس لان الروس أسوأ من الاتراك بل لانهم اقوى واخطر . لخلاص اوروبا والعالم، ومن اجل مصالحها الحيوية اضطرت انكلترا باستمرار الى وضع الحواجز امام التوسع الروسي على الخط الممتد من الدردنيل والدانوب الى بور ارترا[1] . من جهتها ، تبذل روسيا جهودها في السعي لتحطيم هذه

المقاومة . والذين يحبون الحديث بلغة خيالية من الدبلوماسيين يصفون هذا الصراع الهوميري بين العملاقين البيون[2] وابن الشمس[3] بصراع الدب والحوت .

وهكذا تبذل الدبلوماسية البريطانية نشاطا واسعا في بطرسبورغ والقسطنطينية . من واجب ممثل بريطانيا على ضفاف البوسفور، المراقبة والتصدي لنشاط روسيا في البلقان والاناضول ووادي الفرات وسوريا وفلسطين .وبما ان دراسة البلقان لا تدخل ضمن برنامجنا فاننا سنحصر بحثنا في الكلام عن سياسة انكلترا في البلدان العربية .

اقتسام اسيا الصغرى

لقد اسست انكلترا مع الهند واستراليا وكندا وافريقيا الشرقية امبراطورية استعمارية لم يسبق لها مثيل في التاريخ . لقد كون استثمار هذه الاراضي حقلا واسعا للنشاط ومنبعا ضخما للثروات ،فلم تعد انكلترا تفكر في القيام بغزوات جديدة في حوض البحر الابيض المتوسط، فهي لا تغذي اي مطامع في سوريا وفي بلاد الرافدين .على كل حال ان اي غزوة انكليزية جديدة في اسيا الصغرى لابد من ان تثير غيرة بقية الامم فتنسى لفترة خلافاتها وتتحد مع روسيا ضد انكلترا . بناء عليه تُقلب انكلترا الاوضاع ، دون شك لتخرج منها ، اكثر قوة من السابق لكنها لا تريد مزيدا من الآلام على الارض وترضى ببعض التضحيات خاصة وان طموحها في البلدان العربية وبلاد الاناضول ينحصر في امتلاك الضفة الآسيوية لقناة السويس ومنع الروس من التقدم في الدردنيل ووادي الفرات وسوريا والتخلي عن هذه البلدان ،طبعا،للذي يستطيع فتحها ما عدا روسيا . هذه هي السياسة التي تبنتها بريطانيا في السنوات

الاخيرة من حكم الملكة فكتوريا والتي اتبعها الملك ادوار السابع منذ توليه العرش ، وبالتالي فسواء بالنسبة لانكلترا ان تسيطر على هذا الجزء من الامبراطورية فرنسا ام المانيا ام ايطاليا ام اليونان شرط الا يقع في يد روسيا وان تكون البلد المسيطرة من الضخامة بحيث تستطيع الدفاع عنه في وجه روسيا .فهذا المحتل ايا كان سيصبح بالطبع عدو روسيا وحليف انكلترا فمصلحة وتطور الاحداث سيدفعان به مرغما الى ذلك . دع روسيا جانبا فان انكلترا تقبل مبدئيا مجاورة اي دولة اوروبية . وتملك فرنسا من بين الدول الاوروبية التي تغذي مطامعها في سوريا اكثر المصالح تحظى بنفوذ ومحبة [الجميع] وتمتلك حقوقا تاريخية بلا منازع ومعترف بها كالتي تملكها انكلترا . لكن محاولتها السيطرة على هذا القطر ستؤلب مباشرة ضدها كلا من روسيا وحليفاتها المانيا والنمسا وايطاليا .
واذا حاولت المانيا احتلال البلدان العربية ، ستجد كل الدول الاخرى متحدة ضدها باستثناء انكلترا وهكذا بالنسبة للنمسا وايطاليا لانها لا تملك اي حق تستند اليه . ان عداوة هذه الدول هي التي تبقي على وحدة الامبراطورية التركية في آسيا . ويبدو سهلا توزيع الجزء الآسيوي من تركيا ، بين فرنسا والمانيا ، برضى انكلترا ، بعد ان تحظى بالإستيلاء على ضفتي قناة السويس ، لو ان روسيا التي تعتبر نفسها الوريث الوحيد للرجل المريض ، لا تعارض اي اقتراح حول التقسيم . وتستعد روسيا ، فيما لو اضطرت الى حرب ، بلا هوادة ضد كل احتلال اجنبي للمنطقة الآسيوية من تركيا ، وبانتظار ذلك تعمل جاهدة لغزو البلاد سلميا كما مر بنا . فهي تنتظر ان يتفاقم الخلاف ، بين الدول التي تحبط مساعيها فتنشغل عنها وتقطف هي الثمرة الناضجة ، لانها في ذلك اليوم لن تلقى [في وجهها] الا انكلترا التي ستجد صعوبات كثيرة في غلق طريق القوقاز بوجهها منفردة .

احتلال قبرص

لذا رأينا بريطانيا باحتلالها قبرص وبضمانها وحدة ممتلكات السلطان الاسيوية ،تلزمه باصلاحات في امبراطوريته عامة وفي آسيا الصغرى خاصة بغية تقويتها بحيث تقوى على مقاومة الروس بجدية وتنتزع منهم كل حجة للتدخل في كل لحظة في الشؤ ون الخاصة . كانت تعرف روسيا من جهتها كيف تطالب باصلاحات حين تدعو الظروف الى ارهاب عبد الحميد وانتزاع بعض الفرامانات منه . فتقوم روسيا بكل ما يطلب منها لابقاء الامبراطورية التركية على رجعيتها حتى لا يضع المسلمون والمسيحيون الجهلة الفقراء اي عقبة في وجه الهيمنة التي تستعد لها . من جهة اخرى ، لا تحكم الحكومة الروسية ، اسوة بالحكومة التركية شعوبا مختلفة الا بسبب الجهل والبؤ س . وكما نعرف تماما ، ان الامم الخاضعة للسلطان ستنفصل عن الدولة التركية يوم تتثقف وتقوى وتثرى لتشكل دولا مستقلة بضمانة اوروبا ، وتقطع عليها الطريق الى الدردنيل والخليج الفارسي ، كما فعلت رومانيا وبلغاريا حين قطعت عليها طريق اسطنبول عبر اوروبا .

تياران متعاكسان

اذن يوجد ، في تركيا تياران متعاكسان : التيار الاول عادل ، انساني ، متحرر ، نبيل وهو التيار الانكليزي ،والتيار الثاني رجعي ، بربري ، متعصب ، اناني وهو التيار الروسي . تدعم الاول فرنسا وايطاليا واما الثاني فهو معزول . ترجو اوروبا الغربية مخلصة تقدم الامم الخاضعة لتركيا وخلاصها، وتريد اوروبا الشرقية ابتلاعها والقضاء عليها . اما اوروبا الوسطى (المانيا والنمسا) فترقب سير الامور بهدوء

بانتظار الفرصة المناسبة التي تتيح لها التصرف وفق مصالحها. وتقتضي مصلحة الاتراك ان تزكي هذه الخلافات ، وتلعب بالورقة الروسية مقتنعة ان الدول الاوروبية لن تسمح لروسيا بالاقامة في القسطنطينية ، او الخليج الفارسي . وهذا هو السبب الحقيقي الذي يدفع انكلترا منذ توقيع اتفاقية المضائق عام ١٨٤١ الى عدم استنزاف جهودها وتضحياتها غير المثمرة في تحضير تركيا ، في حين انها رفعت مستوى اليابان خلال عشرين عاما ، وابقت على الوضع الراهن المحزن الذي يفرح عبد الحميد وبعض قطاع الطرق من حاشيته . لا تستطيع روسيا ان تحل القضية الشرقية منفردة لان دول اوروبا الغربية تمنعها من ذلك ، كما ان هذه الدول نفسها لا يمكنها اجبار السلطان على القيام بالاصلاحات لان روسيا تدعم السلطان فيما يعتقده في مصلحته .

يهدد هذا الوضع بالاستمرار الى الابد لو لم يشع النور من بين هذه التناقضات. لقد استيقظت مختلف الامم الخاضعة للسلطان ووعت ذاتها وهي تحلم بالاستقلال. يتهيأ الارمن والاكراد والعرب معا لخلع عبودية الاتراك الممقوته بغية تكوين ممالك حرة دستورية . ستنقذ هذه الامم الثلاث سلام اسيا والعالم اجمع وحريتها ، وسوف تشكل هذه حواجز ثلاثة يستحيل اجتيازها من قبل روسيا الغازية .

الهوامش

١) مدينة ومرفأ صيني في طرف كونغ - تونغ ترك لروسيا سنة ١٨٩٦ ثم احتلته اليابان سنة ١٩٠٥ واستولت عليه اميركا سنة ١٩٤٥ واسترجعته الصين سنة ١٩٥٤ ب م

٢) اسم اطلقه القدماء على بريطانيا بسبب جرفها الابيض

٣) لقب قيصر روسي .

الفصل الرابع

سياسة فرنسا

تقدم فرنسا من بين كل الدول الاوروبية ، المساعدة الاسخى والاكثر عفوية للمظلومين والتعساء ، فالأمة الفرنسية بجوهرها هي امة الفروسية ، وهي التي بادرت الى الحملات الصليبية الخطيرة التي عادت نتائجها بفوائد على العالم بأسره . لقد بذلت الغالي والنفيس من اجل استقلال اليونان وبعث ايطاليا . كما غزت الجزائر لا من اجل اقامة مستعمرة انتاجية لها فيها فحسب بل وفوق ذلك ، من اجل تحرير المتوسط من القرصنة البربرية التي كانت تشله وتهدد التجارة الدولية . لقد قامت بحملة الى سوريا وخلقت الحكم الذاتي في جبل لبنان دون ان تتمركز في البلاد كما كان يمكن لها ان تفعل . واخيرا هي التي حمت الارساليات . ان الخدمات التي لا تحصى والتي ادتها على مر الازمان لقضية الحضارة تعطيها الحق في ان تتمتع بمحبة كل الشرقيين وجميلهم دون تمييز في العرق او في الدين .

الاعتراض الفرنسي الراهن

ومن المؤسف انه في عام ١٨٩٥ كانت فرنسا حليفة روسيا ، وانها اقامت علاقات سيئة مع انكلترا وايطاليا ، لانه ، لو كان الامر غير ذلك

لكان الدم البريء الذي اهرق في اسيا الصغرى لم يذهب هدرا ولكانت ارمينيا اليوم للارمن . وعلى فرنسيي اليوم ان لا يقولوا ماذا افادنا اننا كنا اسخياء في السابق ؟ اليس افيد لنا ان نكون عمليين كالالمان ؟ اننا نجيبهم : ان سخاءكم التقليدي هو الذي ، على الرغم من مصائبكم ، يضعكم فوق الالمان الذين هم اغنى واقوى منكم ولكنهم متمسكون بمصالحهم القومية بضراوة .

تعتبر فرنسا مشعل الحضارة والحرية ، الاسطع اشعاعا الى جانب كونها حامية المقهور . وعندما يخمد هذا المشعل سيعاني العالم الى مدى طويل قلقا عاما واما بالنسبة لانكلترا ، هذه المنافسة الشريفة لفرنسا ، المأوى السخي للفكر والقيم الانسانية ، كما يدعوهابنيامين كونستان ماذا تراها تستطيع ان توفر وحدها وبدون فرنسا لخدمة الارمن ؟ انها مع ذلك ، عملت حسنا بان دعت الدول الاوروبية الاخرى للرأفة بهم . ولكن احدا لم يستجب لندائها . كانت روسيا معادية بدافع مصلحتها الخاصة وكانت دول اوروبا الوسطى تفضل الامل في الحصول على امتياز استثمار مناجم ، او انشاء شبكة خطوط حديدية في تركيا ، او حتى الحصول على طلب كبير للتسلح ،على الانتصار لشعب وانتزاعه من اقسى درجات العبودية . وعرفت ايطاليا كيف تربط تصريحاتها الافلاطونية بتصريحات انكلترا وفرنسا ، لكن السلطان الاحمر كان يعرف تماما ان فرنسا لا يمكنها الانفصال عن روسيا وان انكلترا وايطاليا المعزولتين لا تتجرآن على التدخل . لذلك يجب علينا ان نعي بثقة وسعادة التقارب بين انكلترا وفرنسا وايطاليا هذه الشعوب التي تفوق سائر شعوب العالم وعيا ومحبة ، والتي تكون باتحادها ، قوة معنوية وعسكرية هائلة لا يمكن لحلف اخر زحزحته . وسيحاكمك صوت الانسانية يا عبد الحميد ايها الخائف الجبان على خططك الدموية وحبائلك البربرية .

ظاهرة هامة

يجدر بنا ملاحظة الظاهرة الهامة في تباين الادوار بين الدول الاوروبية .اتبعت روسيا الفكرة الدينية التي لا يمكن ان نتصور تعصبا اشد منها وهي نشر (الارثوذكسية المقدسة) [لتعم]الارض برمتها . بينما تبنت فرنسا فهما مختلفا تماما . لقد جعلت من نفسها رسولاً نشيطا متحمسا للفكر الحر . ويتوسطهما النظام الانكليزي الذي يتميز باللامبالاة الكلية حيال كل ما يتعلق بالاخلاق والروح ، وبالحفاظ على الاديان والطوائف والمؤسسات الغريبة والعجيبة التي يسمح لها بالعمل على قدم المساواة وتخضع للقوانين ذاتها على جميع ارض الامبراطورية البريطانية الشاسعة . هذه هي مملكة الحرية المطلقة .

الحواجز بين روسيا والمتوسط

منذ حرب القرم ، لم تمل انكلترا وفرنسا من الترديد على مسمع الاتراك بان عليهم اتباع السياسة التقدمية مع رعاياهم وتعويدهم على الزراعة والتجارة والصناعة ، واجتذابهم عن طريق العدالة واستيعاب العناصر المتنافرة بواسطة مدارس صالحة ، قبل ان يعي هؤلاء شخصيتهم . لكن الاتراك رفضوا دائما الاصغاء الى هذه النصائح الحكيمة . الا ان الاحداث برهنت على صدق تنبؤات انكلترا وفرنسا التي اخذت تتحقق شيئا فشيئا . فشعوب مظلومة اثقل كاهلها في اوروبا ثارت ونالت استقلالها (بلغاريا ـ صربيا) ،وفي اسيا توالت الاحداث بسرعة غريبة .منذ عدة سنوات افتتحت الارساليات الفرنسية والاميركية والانكليزية مدارس عديدة في اسيا الصغرى وحضرّت الارمن والعرب . وطالب الارمن المطلعون على الافكار العصرية قبل غيرهم بالاصلاحات في بلادهم من تحسين احوالهم واستقلال ذاتي

ضروري يجعلهم بمنأى عن ظلامات الطاغي . وحيال سوء نية السلطان ايدت انكلترا وفرنسا والولايات المتحدة الاميركية وايطاليا مطالب الارمن ؛ فاجاب السلطان معتمدا على التأييد الروسي ومستغلا الصمت الالماني على ملاحظات السفراء الاوروبيين الجماعية بمذابح عام ١٨٩٥ والتي استمرت عامين والتي ذهب ضحيتها ثلاثماية الف نسمة من كل الاجناس ومختلف الاعمار ماتوا من التعذيب الفظيع ، في وقت عاش فيه اكثر من مليون شخص في ادنى درجات البؤس والشقاء . ومما يؤسف له حقا هو ان فرنسا وانكلترا وايطاليا لم تتدخل لانها لم تكن متحدة .

مستقبل المؤتمر الاوروبي

ليأخذ السلطان حذره اليوم ، فان الامم الغربية الثلاث الاكثر تحررا ووعيا في العالم ستجمع على نصرة الارمن والاكرادوالعرب . واذا ارادت روسيا ان تجني بعض ثمار انتصارها القريب على اليابان فلا يجب عليها ان تضع العوائق بوجه استقلالنا ، واذا هزمت فلن يجديها نفعاً اعتزازها بنفسها . ومن الضروري ان يتشاور رؤساء الاحزاب الوطنية الكردية والارمنية والالبانية والعربية ليطالبوا مجتمعين باستقلالهم الذاتي في المؤتمر الاوروبي القادم المزمع عقده بعد الحرب اليابانية .

وهناك ايضا شيء اكثر إثارة للفضول تجدر ملاحظته ، لقد بقي كل من هذه الشعوب امينا طيلة وجوده للمفهوم السياسي والاخلاقي الذي نعرفه في يومنا هذا . هكذا اقدم الفرنسيون دائما على نشر فكرة دينية او اخلاقية ، لقد كانوا باستمرار ، ناشري المسيحية والكثلكة والديموقراطية وما انفك الروس منذ عهد بطرس الاكبر ، ينشرون الارثوذكسية بقدر ما تتسع حدود اراضيهم . هؤلاء واولئك اراقوا الدماء الغزيرة في الوقت نفسه الذي كانوا ينشرون عقائدهم ، بينما كان

الانكليز يمارسون مبدأ اللامبالاة الرصين لانهم كانوا احرارا قبل الثورة الفرنسية ، فلم يفكروا مطلقا بامكانية فرض الحرية على الاخرين . لقد اخذوا بمبادرة القضاء على العبودية ، لاعتقادهم بامكانية الحصول على هذه النتيجة ، بالمفاوضات السلمية ، ودون اللجوء الى السلاح .

فرنسا وحرية الفكر

واجل هذه الادوار الثلاثة بلا نزاع دور الفرنسيين . ولكن الازمنة تغيرت . في يومنا لم تعد فرنسا دون منافس لها في اوروبا ، والمثالية التي تتطلع اليها الآن لا تحمل عنفا او تهورا . على العكس من ذلك إنها تتطلب كثيرا من الحيطة والحكمة فلا يقضي السلاح الا على الذي يدافع عن نفسه بالسلاح ، ويلزمنا كثيرا من الوقت والصبر حتى نستطيع القضاء على ما شيدته القرون . وليس للفكر الحر حظ في الانتشار في كل الارض الا عندما تعم الثقافة جميع البشر . ولم تصل فرنسا الى ما وصلت اليه الا بعد تطور طويل وهذا التطور نفسه يجب ان يطال الاخرين . قبل ان تغرس مبادىء الفكر الحر لدى الهمج يقتضي تعميدهم[1] اولا وهكذا ، لا يمكن تحقيق الاخوة بين الدول ، والمساواة الاجتماعية بين الناس ، الا عندما تصبح كل الشعوب على مستوى واحد من التمدن والحضارة ، ان من يرتكب خطأ على هذا الصعيد يهدم عمل اعوام عديدة وينتهي الى نتائج خطيرة جدا . كذلك ، يجب على الفكر الحر ان يكون حرا فعلا وان يكوِّن مفهوماً سلمياً يستمد الحكمة من شعب متقدم في الحضارة هوايته ممارسة التسامح . اذا اصبح الفكر الحر مجرد تعليم خادع تنشره كنيسة صغيرة ضيقة متعسفة تنعدم كل فائدة . من دواعي الاسف ان تجد متعصبين يختبئون وراء الفكر الحر والاخوة الانسانية ليضعوا قيد التنفيذ خططا غير شريفة ويزرعوا الخلاف في امة

كبيرة ، فيستطيعون الاصطياد في الماء العكر بعد ذلك بسهولة كبيرة .

المصالح الفرنسية ووجها القضية الشرقية

لا تتعارض مصالح فرنسا في الاقطار العربية مطلقا مع مصالح انكلترا . فهي تطلق يد فرنسا في هذا الشطر من الامبراطورية العثمانية اذا لم يظهر ان روسيا قد استعدت لاجتياح اسيا الصغرى، فعندها قد تحاول اي دولة اوروبية ان تضع رجلها في سوريا . يمكننا ان نجد قاعدة تفاهم صالحة بين فرنسا وانكلترا والمانيا في تقسيم ممتلكات السلطان الاسيوية اذا لم تقف امام هذا الاحتمال صعوبات لا يمكن تذليلها : معارضة روسيا من جهة ، وتشابك المصالح بشكل معقد جدا حيال الشطر الاسيوي والاوروبي من تركيا في القضية الشرقية من جهة ثانية . عندما تنتزع من السلطان المقاطعات العربية والاناضولية يصبح عاجزا عن الدفاع عن نفسه ليس فقط في وجه اليونان او الجبل الاسود ولكن ايضا في وجه الثوار الالبان والعصابات البلغارية في مقدونيا . وتعم الفوضى كل رومانيا[2] وتندفع الامارات البلقانية نحو مقدونيا كي تتنازع مغانم عبد الحميد ، وتشتعل النار من التقاء نار البلقان ببارود اوروبا . ان الخوف من تفجر الشرور الكثيرة يجبر الدول على التريث في سياستها القائمة على تحمل الوجود البغيض للسلطان الاحمر . وهي تهيىء بالوسائل السلمية ، الخليفة الذي تشتهي ، عند اقتسام تركة الرجل المريض .

تفاصيل مجهولة عن الحماية

تمتلك الامة الفرنسية حقوقا ومصالح اكثر من غيرها في شطري الامبراطورية العثمانية الاوروبي والآسيوي . لفرنسا عدا الارساليات

التي لا تحصى وبيوت التعليم والايتام والملاجىء والمستوصفات والمستشفيات والمدارس في كل المقاطعات تقريبا ، رؤوس اموال ضخمة تستثمر في مشاريع خطوط سكك الحديد والمناجم والالتزامات والاحتكارات ، الخ . . الخ . . ان حقوقها اكثر واقدم ومصالحها اهم وإكثر تمركزا في البلدان العربية عن سواها في المناطق . لا تكفي المصالح المالية وحدها لتدعم ادعاءات غزو المنطقة لان كل الدول الاخرى اوجدت لها مصالح كما فعلت فرنسا . ولكن الذي لا يمكن لاحد ان يطالب به هو حماية الكاثوليك الذين يكونون لها انصارا عديدين ومحور حركة على جانب كبير من الاهمية . ان وجود البعثة التبشيرية في القسطنطينية ، والمنظمات الكاثوليكية في البانيا ، ومقدونيا ، وارمينيا ، والاناضول يقدم لها اداة نضال على جانب كبير من الاهمية في وجه كل تأثير آخر في تركيا الاوروبية وآسيا الصغرى . ان مقام فرنسا ونشاطاتها في بلاد الرافدين وسوريا وفلسطين يتحديان كل مزاحمة . يتألف انصارها الكاثوليك من اربعماية وخمسين الف ماروني مع بطريرك وثمانية مطارنة ، ومن مائة وخمسين الف رومي ملكي كاثوليكي مع بطريرك و١٣ مطرانا، ومن ستين الف سرياني كاثوليكي مع بطريرك وثمانية مطارنة ، ومن سبعين الف كلداني كاثوليكي مع بطريرك وثمانية مطارنة ، مع بعثتين تبشيريتين فرنسيتين في بيروت والموصل ، ومن بطريرك لاتيني في القدس مع عشرين الف من المواطنين العرب الاصليين ذوي الطقس اللاتيني ، ومن رئيس اساقفة تبشيري في بغداد ويصبح المجموع سبعماية وخمسين الف محمي فرنسي مع خمس بطاركة وسبعة وثلاثين مطرانا وثلاثة رؤساء اساقفة مبعوثين او مبشرين . ولقد حمت فرنسا الكنائس الشرقية دائما المارونية والملكية والسريانية والكلدانية الكاثوليكية بسخاء وصدق واغدقت عليها أموالاً دون ان

تقصد تجريدها من امتيازاتها او استعبادها . ولقد احترمت فرنسا دائما
طقس هذه الشعوب وقوميتها في وقت كانت تستطيع فيه اذا ارادت ان
تحل اكليروسها محل اكليروس هذه الشعوب وان تحتويها كما تحاول ان
تفعل روسيا مع الارثوذكس . لم تقدم فرنسا لهذه الشعوب مساعدتها
الدبلوماسية والعسكرية عند الحاجة فقط ، بل انها لا تنفك ، منذ
خمسين سنة ترسل المساعدة المالية لها وتعمل على نهضتها المعنوية وعلى
استقلالها ، وبفضل لبرالية فرنسا استطاعت هذه الامم الصغيرة
المستعبدة المنضوية تحت لواء تنظيمات دينية بطريركية ، ان تفلت من
مظالم سلطة مدنية بربرية وحشية ، وان تبني كنائس وتفتح مدارس
وحلقات دراسية ومعاهد ، وبفضل المرسلين الفرنسيين التابعين لشتى
الجمعيات تعج البلدان العربية بالمدارس والمعاهد الداخلية لطلاب من
الجنسين . لقد حركت بادرة فرنسا ومرسليها الدينيين منافسة انكلترا
واميركا والبلدان البروتستانتية. اتى القساوسة الانكليز والاميركيون ،
بعد اللعازيين واليسوعيين الفرنسيين لاغراق سوريا وفلسطين وبلاد
الرافدين بمؤسساتهم وحينئذ بدأ نضال التفاني والسخاء والاحسان
الذي يستأهل اعجاب العالم اجمع وجميل العرب .

البعثات الكاثوليكية والبروتستانتية

قليلة جدا هي القرى المسيحية في الشرق التي تخلو من مدرسة
كاثوليكية او بروتستانتية او من اثنين او ثلاث لكل طائفة ، لقد ارسل
الارثوذكس والمسلمون ، اولادهم الى المدارس ، اسوة بالكاثوليك
بالرغم من ممانعة الاكليروس اليوناني والحكومة التركية . هكذا نجد
بفضل نشاط فرنسا بيننا اناسا مثقفين واعين . وبتنا نعي قوميتنا . من هو
ذا المسافر الذي لم يدهش لهذا الصرح المهم الا وهو الجامعة الاميركية في

بيروت ومن الذي لا يعجب لهذا العدد من المدارس الكاثوليكية او الذي
لم يعتقد انه انتقل الى فرنسا لكثرة الذين يجيدون التكلم باللغة الفرنسية
في سوريا . إن هؤلاء المرسلين لا يعلمون اللغات الاجنبية من فرنسية
وانكليزية فقط ، بل اعطوا لدراسة الادب العربي حافزاً جديدا
مجهولاً . ولقد نبغ بفضل تعليم اليسوعيين والقساوسة الاميركيين كتاب
معاصرون مشهورون . وفجأة استفاقت اللغة العربية التي لم
تعرف ادباء كبار منذ سيطرة الاتراك وكادت تنهار مع انهيار الامة في ظل
نير استعمار هؤلاء البرابرة ، ونحن نتكلمها ونكتبها اليوم بالرونق نفسه
الذي كانت عليه ايام الخلفاء في دمشق وبغداد . لهذا السبب فان اسم
فرنسا مبارك اليوم في كل الشرق كما باركه الكاثوليك الذين احسنت
اليهم مباشرة والارثوذكس والمسلمون الذين استفادوا من هذه الاعمال
بشكل غير مباشر .وتغذي فرنسا ، الى جانب الكنائس الكاثوليكية ،
مجموعة من الجمعيات بالرجال والنساء والمعلمات والممرضات منتشرة في
كل المقاطعات العربية ، تفوق مرارا عدة من حيث العدد والاهمية كل
المؤسسات المماثلة مجتمعة والتي تعود الى سائر الامم الاوروبية . وقد
نجحت الدبلوماسية الفرنسية بفضل مهارتها وجهودها في ان تغزو
البعثات والمجالس الرسولية واحدة بعد الاخرى في الموصل وبيروت
وبغداد والتي كان يشغلها الايطاليون من قبل .

غزو البعثات الرسولية

كان ميناء اورساي يعمل منذ مدة طويلة على انتزاع بطريركية
القدس من هؤلاء الآخرين. وكان قطع العلاقات بين فرنسا
والفاتيكان قد هدم كل امل في النجاح . يجب دائما ان نحفظ الجميل
لطليان القدس على شعورهم الابوي الذي يحركهم تجاه العرب . انهم

يعاملون بكثير من العناية والاحترام الاكليروس الوطني ولا يوفرون جهدا من اجل رفع المستوى المعنوي والثقافي للامة . هؤلاء هم انصار فرنسا في البلدان العربية ، انصار مكونون من نخبة الشعب ، من العنصر المتفوق ثقافة ونشاطا وغنى في المنطقة . نضيف ، لكي نفي الموضوع حقه ، ان فرنسا ، باعتبارها حامية كاثوليك الشرق ، كانت في الواقع وحتى هذه السنين الاخيرة حامية نظام الفرنسيسكان في الارض المقدسة المسمى قبلا حقوق المقدسات المسيحية ، هذا النظام هو دولي . انه معترف به من كل الامم ولكن جزأه الاكبر في ايطاليا . واننا نعرف من جهة ثانية اهمية السيطرة على كنيسة القيامة التي يعتبر الفرنسيسكان حراسها . و[نعرف] كذلك المجهودات التي يبذلها الروس واليونانيون والاتراك لانتزاعها منهم . كل هذه المصالح مجتمعة تعطي لفرنسا مكانا مفضلا في الشرق وتمنحها تقريبا حق مراقبة كل اعمال الادارة العثمانية .

حقوق فرنسا الأهم **Sumunum jus de la France**

ولكن فرنسا السخية المخلصة جدا ، والقليلة القلق على مصالحها الحقيقية تطالب بـ «العصارة» التي تخصها . لو كان لروسيا من حقوق نصف ما كان لفرنسا ، لكانت منذ زمن قديم اوجدت حجة للتمركز في القسطنطينية ، او لكانت احتفظت على الاقل بتركيا تحت وصايتها . ان الحليفين المتفاهمين تماما في اوروبا ليسا على اتفاق حول اي نقطة .

ماذا تحت بلاطة كنيسة القيامة :
ترى روسيا ان عملها يتعارض مع عمل صديقتها ،

لقد فعلت روسيا حسنا حين اوجدت المدارس والمستشفيات ، ولكن ماذا تنفع هذه المدارس والمستشفيات اذا لم ترتكز في الوقت نفسه

على عنصر اصيل وعلى جمعيات متفانية ونشيطة كالتي نظمتها فرنسا . لذلك تهلك نفسها للنيل من النفوذ الفرنسي في كل الوجوه . ويظهر مع الاسف ان فرنسا لم تعد تهتم بالبلدان العربية وتهمل شيئا فشيئا موقعها في سوريا وفي كل المشرق ارضاء لحليفتها او لان تأثيرها هو بمعظمه ديني او كهنوتي كما يقال اليوم . ماذا ينفعنا موقعنا كما يقول البعض . ويجيب الاخرون : لا تساوي سوريا مباني وزارات فرنسية خمسة . اما المحللون الذين يعتقدون انهم جادون فيقولون : ماذا يفيدنا ان الفرنسيسكان يكنسون بلاطة في الزائد او في الناقص في رحاب كنيسة القيامة ؟ نستطيع الاجابة على كل هذه الاعتراضات بقليل من الكلام . تشكل البلدان العربية ، يعني فلسطين وسوريا وبلاد الرافدين امبراطورية اكبر واخصب من فرنسا بكاملها ، انها تصل بين ثلاث محيطات وثلاثة بحار ، وان وضعكم المتفوق يؤمن لكم حياد هذه الاقطار الغنية والسيطرة عليها . اذن نستطيع القول ان السيطرة على المتوسط موجودة تحت بلاطات القيامة . كذلك فان الذين يعرفون المسألة يتفقون بانه ، حتى عند انفصال الكنيسة عن الدولة لا يجب التخلي عن هذه المحمية المقدسة التي تتبع فرنسا بموجب معاهدات موقعة مع السلطان ولن يسعى البابا لإنتزاعها منها .

فرنسا والكرسي الرسولي

زد على ذلك انه عندما لا يعود لفرنسا علاقات دبلوماسية مع البابا ، فماذا ستفعل هذه اذا سمت الادارة البابوية الرومانية كاثوليكيا من انكلترا ، او اميركا ، او المانيا ، او ايطاليا ، مكان المرحوم المونسنيور دوفال ، كمندوب رسولي في بيروت كما احلت منذ فترة وجيزة ، ايطاليين مكان مطران سيمرن والمندوب الرسولي في القسطنطينية ،

بالرغم من جهود ميناء اورساي ؟ الا يعرف الفرنسيون اذا ان اغلبية كاثوليك الشرق يفضلون فرنسا على انكلترا والمانيا فقط لانها كاثوليكية ولان الدولتين الباقيتين بروتستانتيتان .

مقابلة مع السيد (كومب)

نسبت احدى جرائد فينا ، وكان رئيس تحريرها الدكتور هرتزل الى السيد كومب مقابلة شخصية اعرب رئيس مجلس الوزراء فيها عن رغبته في تقديم حماية الكاثوليك في الشرق الى النمسا بكل طيبة خاطر وهي الحماية التي لم تجلب ، كما يقول ،لفرنسا سوى المتاعب والهموم . ان الابنة البكرللكنيسة ،يضيف السيدكومب ،لم تعد تريد حماية اخواتها اللواتي اصبحن على قدر من النضج يتعين معه وصايتها . اذا كانت تصريحات رئيس مجلس وزراء فرنسا رسميةفهي ،كما اراد السيد كومب ان يقول قد تكون جاءت في أنسب الأوقات أو غير حكيمة .

نظرة تاريخية على نظام الحماية الفرنسية

وبالفعل فان نظام الحماية الفرنسي في الشرق يتضمن ثلاث انواع من الحمايات فهو يحمي اولا المرسلين الفرنسيين الذين لهم حق الحماية على بلادهم ، لصفتهم المزدوجة الكثلكة والمواطنية ، وبعدها تأتي حماية الكنائس الكاثوليكية الوطنية التي تحدثنا عنها فيما مضى والمرتبطة جدا بفرنسا والتي لا ينازعها اي انسان حقها في حمايتها منذ القديم . واخيرا تأتي حماية المرسلين الكاثوليك الاجانب من المان وايطاليين وانكليز الخ . . هؤلاء الذين استفادوا حتى يومنا هذا من الحماية الفرنسية لنفس السبب الذي استفاد منه النوعان الاولان . هؤلاء الاجانب لا يتوجهون اصلا الى ممثلي فرنسا الا لان بلادهم لا تقيم علاقات دبلوماسية مع

الشرق ومن ثم هي خارج الوضع الذي يسمح لها بالحماية . ان حمايتهم من قبل فرنسا هو عمل خيري . كانت فرنسا هي الدولة الوحيدة التي يحترمها الاتراك في البحر المتوسط خلال القرون الثلاث والنصف الاول من القرن المنصرم . ولا يعرف في الشرق الا الفرنسيون والتجار الجنويون وهؤلاء انفسهم يحتاجون لدعم من ملوك عريقين في المسيحية .

مستقبل آسيا الاقتصادي

شهد القرن التاسع عشر نشوء امم قوية كالمانيا ، وايطاليا ، فيما كانت تتقرب روسيا من القسطنطينية وتنمي انكلترا تجارتها في البحر المتوسط وكان على الاخيرة ان تسهر على اقرب خطين للمواصلات يصلانها بامبراطوريتها الهندية وهما : وادي العاصي والفرات الذي يصل الخليج الفارسي بالبحر الابيض المتوسط ، وطريق طرايزون[٣] الى الهند عبر ارزروم[٤] وفارس وافغانستان . ان النشاط الكبير في التجارة والصناعة الاوروبية وفتح السويس جعلا جميع الدول تفتش عن اسواق للفائض من انتاجها القومي .

واتجهت كل الانظار نحو آسيا التي ستؤلف في المستقبل مجالا واسعا لاستيراد المنتوجات المصنعة وفي الوقت نفسه تشكل مجالا لانتاج المواد الاولية . من هنا ولدت المنافسة التجارية بين الامم الاوروبية ، كل منها تريد ان تسبق الاخرين في سوق آسيا . ومن المؤكد ان الامبراطورية العالمية ستخضع للامة التي تحسن ايجاد اكبر الاسواق وافضلها . وعلى العكس من ذلك فمن لايعرف كيف يهيء لصناعته تصريفا كافيا ، سيكون الضحية الاولى لثورة اجتماعية وغزو

اجنبي . ويتفق هذا الوضع كثيرا مع وجود السلام المسلح ، ويدفع الدول الى التنافس على المكانة قبل ان يحسم المدفع قسمة آسيا ويحدد لكل منها حقل نشاطها الاقتصادي . لهذا الهدف بنت الحكومات الاوروبية الاساطيل البحرية وشجعت تزايد التبادل التجاري بين اوطانها والشرق واوجدت سفراء وقناصل في كل مكان وجدته مناسبا ، لتشجيع رعاياها والدفاع عنهم ، بحيث ان مهابة المانيا وايطاليا في القسطنطينية وبكين وسائر البلاد تعادل مهابة فرنسا اذا لم تكن اكثر خدمة لتوسيع النفوذ القومي.وطالب ممثلو الاجانب من المان وايطاليين بحقوق خاصة لحماية المرسلين الكاثوليك من مواطنيهم حتى لا يهملوا اي سبيل جدي يوفر لهم فرصا للتدخل في شؤ ون السلطان المحلية .

شجار كنيسة القيامة :

ان الاعتزاز القومي الذي يريد خلع الوصاية الاجنبية من جهة والرغبة في التصدي لروسيا الغازية من جهة اخرى يدفعان المانيا وايطاليا لتحريك هذه القضية الدقيقة في حين تبدو فرنسا وكأنها تتراجع .

لقد قاومت فرنسا بعض الوقت مستندة على اقدميتها في الامتياز المسمى حاليا سخرة ،وعلى سلطة الكرسي الرسولي الذي يريد تثبيتها . فاستنجدت الدول الاخرى بمبدأ السيادة القومية الذي يمنحها وحده الحق في ممارسة سلطتها او اي مظهر من مظاهر السلطة على رعاياها انّى وجدوا .

فوجىء الكرسي الرسولي بمحاولات القيصر التودد [من جهة ،] وعروض [روما] لكرنال المؤ يدة من جهة ثانية ، ومطالب فرنسا المعارضة لتدخل الاكليروس في الشؤ ون العامة من جهة ثالثة ، فأتبع

سياسة عدم الاكتراث واندلع شجار كنيسة القيامة سنة ١٩٠٢ في حين كانت القضية مثار نزاع .

المانيا وايطاليا ضد الحماية

ان رعونة الروس واليونانيين الذين ارادوا ان يخضع بعضهم البعض الآخر ورشوة الاتراك ومهارة اللاتين كل هذه حسمت النزاع لصالح المطالبين بالحماية . لقد كان يوجد بين الجرحى فرنسيسكان والمان وايطاليون ارتضوا حماية قناصلهم الوطنيين وبفضل تدخل الامبراطور الحازم ، رضي هؤلاء تمام الرضى . واذا ترك الروس الفرنسيين يقومون بالحماية الفعالة للفرنسيسكان فلن يعود هناك سبب لتدخل الالمان والايطاليين . قال هؤلاء : نحن لا نستطيع ترك الأتراك والهلينيين يذبحون رعايانا ارضاء للتحالف الفرنسي الروسي المطلق . أجاد البابا ليون الثالث عشر تدبيج رسالة شكلية لرجال الدين الجرحى،وهو المعروف بعواطفه المناصرة للفرنسيين ، يدعوهم لاحترام الحقوق التقليدية لفرنسا . ولكن لم يجد احدا يصغي اليه في شأن خارج عن الميدان الديني . قالوا : سواء اكان هذا معارضة [من فرنسا] لتدخل الاكليروس في الشؤ ون الخاصة ام مجاملة للروس لا تريد فرنسا حمايتنا بعد اليوم ونحن لا نستطيع ان نقبل بذبحنا احتراما للتقليد » . وهكذا اخطأت فرنسا بحق نفسها عندما ارادت الاستفادة كثيرا من لطف حليفتها « روسيا » فكان من الافضل بالنسبة [الى روسيا] ان لا تستعدي سوى فرنسا في الشرق بدل استعداء عدد من الاعداء بعضهم اشد عنادا من البعض الاخر .

لن تكون فرنسا وحيدة في الصراع المقبل ، والذي سيحدث في الاماكن المقدسة الكائنة في القدس ، وبيت لحم ، لحماية المرسلين الكاثوليك ، سيجد الروس والاتراك واليونانيون فيه انفسهم بمواجهة اميركا ، وايطاليا والمانيا ، وانكلترا ، والنمسا ، لان اللاتين قد اصيبوا بسلسلة خيبات امل فجهز واجمعيات كنيسة القيامة والمغارة ، وعيد الميلاد والاباء من كل الامم . وبهذا نرى انه كان من الممكن التفاهم مع الروس حتى في الشرق ، اذا لم يرد هؤلاء الاستفادة من حلفهم مع فرنسا لانتزاع قسم من امتيازاتها خاصة في كنيسة القيامة التي تفيدها جدا لاجتياح البطريركية الارثوذكسية في القدس .

فرنسيسكان الارض المقدسة

منذ الحادث الذي اتينا على ذكره اصبح معترفا لكل دولة ان تحمي رعاياها عند تأديتهم بعض رسالتهم الدينية ،او لامر ديني يخصهم وتبقى فرنسا حامية ـ تبعا للشرعة العالمية ـ للفرنسيسكان في الارض المقدسة . وهكذا تتجند في جميع الاقطار لتحمي الرهبانيات والاماكن التي تخصها ويتبع الافراد فقط قناصل اوطانهم . ولكن هذا النظام الذي يطبق عمليا في الشرق منذ ثلاث سنوات ليس مثبتا بعقد مكتوب ، وقد رفض الكرسي الرسولي ان يعلن موقفا قطعيا منه بغية مراعاة حساسية البعض الاخر . اما فرنسا فهي لا تريد ان ينتزع منها حق دفعت ثمنه تضحيات عالمية فيما مضى .

اراد السيد كومب ان يقفز فوق هذا الجانب من نظام الحماية الفرنسية ،ولكنه لم يستطع الا تأييده لاننا لا يمكن ان ندعي حماية الناس

بالرغم عنهم . والاجانب احرار تماما في ان يتجهوا الى قناصلهم . لا رؤساؤهم ولا نظمهم ولا البابا نفسه يستطيع اكراههم على العودة الى قنصل فرنسا . برأيي ، ان نتركهم وشأنهم افضل من ان نجرب كبح جماحهم دون جدوى. على كل حال ، اعلن رئيس مجلس الوزراء الفرنسي في المقابلة التي اجريت معه ، ان الامم التي يتبعها هؤلاء الاجانب هي أخوات لابنة الكنيسة البكر ، وقد اصبحت من الكبر ومن القوة بحيث تحمي اولادها بنفسها حتى تبيان العكس ، اعتقد بان هذا هو معنى كلام السيد كومب ولا اظن بانه اراد التقاعس عن حماية الكنائس الشرقية الوطنية والتي لا تخفي اهميتها وفائدتها على احد .

الوضع الراهن للحماية

في الحقيقة ، بقي نظام الحماية الفرنسي في الشرق دون مساس ، لقد تخلص فقط من القسم الاكثر ازعاجا ، وبعض الآباء الاجانب الذين لا يتبعون قناصل الجمهورية الفرنسية لا يقللون في شيء من اثر فرنسا وبريقها ، انهم يمنحون بعض الحيوية او كلها للقنصليات التي يتبعونها . لم تقدم اي امة اوروبية على تشييد هذه الانشاءات ، وهذه المؤسسات المختلفة كما فعلت فرنسا،ولم تصل الى عدد مؤسسات هذه الاخيرة كلها مجتمعة .

خمس دول في الدولة التركية

ان ما يشكل قوة فرنسا الحقيقية في البلدان العربية هو الكنائس الشرقية التي تكرس نفسها لفرنسا ، كارسالياتها الخاصة.وهي تؤلف خمس دول منفصلة ضمن الدولة التركية . تجهد روسيا نفسها وتحيك الدسائس ، وقد دخلت في حربي القرم « ١٨٥٤ » والبلقان « ١٨٧٧ »

الكبيرتين منذ سنوات ، وتنفق الاموال من دون حساب لتحصل على بطريركية واحدة او على حق حمايتها على اقل تقدير . بينما تمتلك فرنسا خمس بطريركيات وسبعة وثلاثين مطرانية مع ابرشية وثلاثة مطارنة مرسلين من الادارة الرسولية . للاسف ، يخضع الاجنبي في فرنسا للاحكام نفسها التي يخضع لها الفرنسي ، لهذا تريد تطبيق الانظمة التي تطبق في باريس والمقاطعات الفرنسية وفي المستعمرات والمحميات ، لقد ارادت تطبيق عدم تدخل الكهنة في الشؤ ون المدنية ونشر حرية الفكر في القدس ولبنان ، ورفضت ارسال الاسطول البحري الى بيروت اثناء الاضطرابات الاخيرة سنة ١٩٠٣ ، حتى لا يقال انها مسيرة مسلحة ذات وجه ديني .

ولاء البطريركية المارونية

اخيرا في حزيران سنة ١٩٠٤ رفض الاسطول البحري ، خلافا للعادات والتقاليد ،ان يحي ، زيارة مطرانين مارونيين منتدبين من بطريركيتها لتهنئة الاميرال ، لا لسبب الا لأن هذين الشخصين كانا اسقفين . لقد حرك غياب الاسطول البحري اثناء اضطرابات بيروت ، الولايات المتحدة الاميركية ودفعها للتدخل بقوة تبعها عرض بحري وتهديد انزال لقواتها . بهذه المناسبة ، رجا عدة قناصل عامون البطريركية المارونية ان تطلب بكتاب رسمي حضور اساطيلها البحرية مما يفسح المجال لتلقين الحكومة التركية درسا لا تنساه .ولكن زعيم الطائفة المارونية لم يرد التخلي عن الحماية القديمة لعدة اسباب تافهة .

ان رفض اداء التحية للمطرانين تضخمت واضطرت البطريركية الى طلب الايضاحات اللازمة والاعتذارات الرسمية . ولا يتفهمون في فرنسا المسائل التي تبدو في ظاهرها صغيرة بينما يعيرونها في الشرق اهمية

كبرى .ولا تحترم الحكومة التركية كاثوليك الشرق الا لانها تعرف عطف فرنسا عليهم وهي التي لا تستطيع العيش الا في جو الاضطرابات والمجازر . بيد انها ستفكر في تهيئة مذابح شبيهة بما جرى في سنة ١٨٦٠ في اليوم الذي تجد فيه فرنسا تتخلى عن الكاثوليك . ان رفض تأدية التحية لمندوبي البطريركية يعتبر حسب العرف اهانة لجميع الكنائس الشرقية امام الحكومة التركية .

انكلترا وكاثوليك الشرق

لا يستطيع المسيحيون العيش بامان بعد هذا التخلي الرسمي عن حمايتهم ووجب عليهم التفتيش عن مدافع . ومن الطبيعي ان يرتموا في احضان انكلترا التي زودت بكتب موقعة من البطريركيات الشرقية تضفي الشرعية على تدخلها وهي لا تتردد في احتلال هذه الاقطار بلا قيد ولا شرط . لقد ندم الفرنسيون لرفضهم المشاركة مع الانكليز في تهدئة الاحوال في مصر سنة ١٨٨٢ وإني اتساءل: من يستطيع ان يخرج انكلترا من سوريا عندما تنزل فيها واسطولها البحري اقوى اساطيل اوروبا مجتمعة ؟ ان روسيا تستطيع اجتياز القوقاز دون ان تسبب نزاعا دوليا عاما تفيد منه انكلترا افادة رائعة . لم تنتشر حرية الفكر بشكل ملحوظ لا في فرنسا ولا لدى اي شعب اخر متحضر او واع . اذن كيف يراد نقله الى بلاد الشرق ؟ هناك أفكار كالازياء اذا ما عمت وبلت في فرنسا صدرت الينا ، فلتعم بادىء ذي بدء حرية الفكر في فرنسا وكن واثقا ان التقليد يتم حالا في كل مكان بعد ذلك .

لا يملك احد الحق في حكمنا غير فرنسا ، ولن يهتف بحرارة لاي دولة غيرها اذا [نزلت] في البلدان العربية يوم يتقرر تجزئة الامبراطورية التركية . ومع ان الدول الاخرى لا يمكنها ان تسمح بالسيطرة على

شعب غمرته فرنسا بفضلها حين يدعوها كي تنقذه من العبودية الا انها [اي فرنسا] لا تستطيع ان تترك ايا كان ينتزع منها ما تملكه وتتخلى عن مصالحها في كل آسيا وفي البحر الابيض المتوسط وتصبح تحت رحمة من يحتل سوريا وفلسطين. انها تضطر لتحمل الوضع الراهن الممقوت الذي يذكي الشقاق في اوروبا التي تستيقظ فجأة من حين لآخر ، على ضجيج المذابح والفظائع . لقد بذلت فرنسا وانكلترا جهودا ضخمة تستحق الثناء عليها كليهما لتحسين اوضاع ضحايا المنافسات الاوروبية المؤسفة ، ولكن ، كما قلنا اعلاه ، ادخل السلطان الاحمر المعارضة الروسية ، ولم يصغ الى صوت الحكمة والعدالة .

ثورات سلمية

ان الوسيلة لتغيير هذا الوضع المقيت اليوم كائنة فيه . فالعرب ، والاكراد ، والارمن يريدون الانفصال عن الشجرة النخرة ليشكلوا دولا مستقلة حرة مشبعة بافكار التقدم والحضارة الاوروبية .

هذه الثورات الثلاث سلمية في الاساس وستنفذ باقل من اثني عشر يوما وبدون اراقة دماء . نرجو فرنسا ان تتابع تقاليدها القديمة وتشجع هذه الحركة وتحذو باقي اوروبا حذوها . نحن لا نطلب الى الدول تضحية ولا تدخلا عسكريا ، اننا نريد فقط ان لا تضع العقبات امامنا وسنحترم كل الحقوق والمصالح الاجنبية في بلادنا .

اوروبا واستقلال العرب

نحن واثقون سلفا من تعاطف فرنسا مع مشروعنا ، نحن واثقون ايضا من تشجيع اوروبا الغربية والولايات المتحدة الاميركية الشمالية .

ستضع روسيا ، فقط ، العصي في الدواليب وتدفع عبد الحميد للمقاومة . ولكن هذا سيكون دون جدوى . ان الطاغي الذي ذبح الارمن لن يتمكن على الاطلاق من اي امر ، ضد العرب ، والاكراد ، والارمن ، مجتمعين مع الالبانيين والبلغاريين ولن يكون حتى هذا التكتل ضروريا ، فمجرد ان يرفع العرب العلم الوطني ، يختفي الاتراك وتسترد الامم المسترقة حريتها . ستنحني الدول الاوروبية المستنيرة امام الامر الواقع وستحيي بثقة ظهور شعوب فتية متعطشة للتقدم ، تفتح للتجارة منفذا واسعا ، وتقدم للرساميل الاوروبية افضل التوظيفات . اما من جهة روسيا فليس لديها اي حجة تتذرع بها ، لان الواقع الراهن لن يتغير ، وبالنسبة لاوروبا ، يختفي الاتراك فقط وتضطر [روسيا] ان تحترم مبدأ استقلال الامم كما فعلت يوم خلقت رومانيا وبلغاريا لتقطع كل طريق الى القسطنطينية عبر اوروبا .

الهوامش

١) المعمودية تعني الخلاص من الخطيئة الاولى وهنا تعني الخلاص من الروح الهمجية

٢) مقاطعة تركية في القديم . اعطيت لبلغاريا حاليا .

٣) مدينة تركية على البحر الاسود كانت عاصمة دولة اسست بين ١٢٠٤ - ١٤٦١

٤) مدينة تركية شرقية على هضبة مرتفعة وحصينة احتلها الروس سنة ١٨٢٨ و ١٨٧٨ و ١٩١٦ .

٥) قصر روما المزين بالرسوم منذ سنة ١٥٧٤ هو مكان اقامة البابا وفي سنة ١٨٧١ اصبح مكان اقامة ملوك ايطاليا وحاليا مكان اقامة رؤساء جمهورية ايطاليا .

* نحن لا نتحدثهنا عن الدور الذي لعبه القنصل الفرنسي في القدس ابان هذه التعقيدات الخطيرة لاننا عزمنا ان نسبر غور هذه المادة المفيدة بمؤلف خاص سنطبعه قريبا حول مسألة الاماكن المقدسة المسيحية . (المؤلف)

الفصل الخامس

سياسة المانيا والنمسا

المؤسسات النمساوية في سورية وفلسطين

النمسا هي الدولة الوحيدة من بين الدول الاوروبية الكبرى التي ليس لديها سياسة استعمارية والتي لا تغذي اي اطماع في ممتلكات السلطان الآسيوية . إن جميع البعثات النمساوية في سوريا وفلسطين هي مؤسسات خاصة للاحسان ، انشئت بمبادرة الامبرطور المحسن فرانسوا جوزيف . ويعتبر المأوى النمساوي ومستشفى طنطور في القدس مؤسستين من هذا النوع . وبالعكس تطمع المملكة النمساوية الهنغارية بجزء كبير من ممتلكات تركية الاوروبية ؛ وهي تعلل النفس بضم البوسنة والهرزغوفين الى سالونيك ضامة كل البانيا وقسماً من مقدونيا . ان هذه السياسة تستند بصراحة على المانيا التي تتهيأ لتحل مكان سلالة هبسبورغ المتداعية . وبهذه الذهنية منح بسمارك النمسا ، في معاهدة برلين ، حق احتلال البوسنة والهرزغوفين ، وترك الباب مفتوحا امامها نحو مقدونيا والأرخبيل مبقيا تركيا في قطاع متروفيزا ونوف بازار محصورة بين صربيا والجبل الاسود . هناك اسباب أخرى تخرج عن إطار بحثنا تبرر اعتماد هذا الترتيب لمصلحة النمسا وبشكل غير مباشر لمصلحة المانيا . لقد استفادت النمسا ، وهي التي تعرف نوايا المانيا ، والتي تريد حملنا على الاعتقاد بانه لن يرثها احد ،من موقف جارتها القوية

التي تدعم مكانتها السياسية والتجارية في البلقان كما لو انها كانت تدعم مصالحها ذاتها .

بؤرة المؤامرات العربية

وجد الغزو السلمي الالماني معارضة من جانب امارات الدانوب واليونان التي رغم اضطرابها ومنافساتها تخطط بطموح متفاوت لتقسيم المغانم الاوروبية التركية خارج اطار الدول الكبرى . وتحوك روسيا الحبائل على حد سواء ضد النمسا والمانيا لانها تأمل بان تحظى منفردة بالسيطرة على اخواتها من السلاف والارثوذكس وشبه الجزيرة البلقانية . وكذلك تعمل ايطاليا التي ما زالت دون اسنان ، بانتظار الفرصة المناسبة ، لتنتزع من النمسا المقاطعات الايطالية ولتحل مكانها في الوقت نفسه في البوسنة والهرزغوفين ،وتدفعها مطامعها بالبانيا للعمل على تطويق السياسة النمساوية ـ الالمانية وهكذا ،لم يعد هناك وفاق في المثلث ، حول موضوع تركية الاوروبية وكذلك الامر بالنسبة للتحالف الروسي الفرنسي حول موضوع البلدان العربية واسيا الصغرى . اضف الى كل هذه الصراعات الباطنية والمؤامرات الشيطانية التركية التي تتحرك تارة في اتجاه وطورا في اتجاه آخر بالاضافة الى مختلف الناس واللجان المقدونية والحبرية البلغارية والبطريركية الفنارية . وهكذا تكون فكرة عن هذه البؤرة الغريبة التكوين والحبائل المسماة مقدونية . وبمقابل المساعدة التي تقدمها المانيا في اوروبا فان النمسا تدعم سياسة القيصر في آسيا الصغرى وتشجع اتساع التأثير الالماني في هذا الجزء من تركيا بهدف فتح منافذ هامة للتجارة النمسا ـ هنغارية في الوقت ذاته . بحيث ان المبادلة تامة بين امبراطوري اوروبا الوسطى . وتتسرب البضائع والتأثير الالماني خلف البريق النمساوي في تركيا

الاوروبية فيما تلحق المنتوجات المصنعة في مملكة النمسا ـ هنغارية بانتشار التأثير الالماني في تركيا الاسيوية .

التكتيك ونوايا المانيا

اذاً لم يبدأ تاريخ المطامع الالمانية في الارخبيل والبلقان ، بواسطة النمسا التي تطمع المانيا بوراثتها ، الا منذ اعلان الامبراطورية الالمانية ، ومعاهدة برلين ، وان رغباتها بآسيا الصغرى على العكس من ذلك لم تأخذ في التحقق الا مع التقارب الفرنسي الروسي . لقد فهم غليوم الثاني موقف الحليفين تماما بالنسبة لبعضهما البعض، هذين الحليفين اللذين لهما مصالح متطابقة في القارة ولكنهما متضاربة في البحر المتوسط مما يضطرهما الى تقديم تنازلات متبادلة لسترها . ولا يفسدان الاتحاد الذي هما بامس الحاجة اليه في اوروبا . لقد فكر [غليوم] بان فرنسا ، في الاساس ، وهي التي ليس لها مصالح ضخمة في الاناضول ، تستطيع ان تتحمل بدون عناء قيام دولة ثالثة كحاجز في البلدان العربية ، حيث تمتلك حقوقا غير منازعة ، وتبعد جارا خطرا وصديقا مزعجا غازيا . وهكذا تستفيد المانيا في آسيا بشكل عجيب من التحالف الفرنسي ـ الروسي الموجه ضدها .

مشاريع القيصر

لقد اعتقد القيصر ان انكلترا تنظر بعين الرضى الى الوجود الالماني على الدردنيل والخليج الفارسي ، وهي تفضل ، ان تقتسم فرنسا والمانيا آسيا الصغرى وتحملان معها خصوماتهما من الرين الى ضفاف الفرات ، وأنهما لا تفكران ، فيما بعد ، ابدا بالاتحاد لمواجهة الهند ، على السماح لدولة وحيدة للتمركز في هذه الاقطار الواسعة الغنية حيث

تستطيع بطريقة او اخرى ان تحجبها .

ومن جهة روسيا ، لم يقم الامبراطور الالماني لها اعتبارا . فهو يحاول مدعوما بصداقته لعبد الحميد ان ينتزع منه الاناضول بالطرق السلمية دون ان يعطي حكومة بطرسبورغ الحجة والزمن الكافي للتدخل .

الاستعمار الالماني في فلسطين

هذا هو مخطط التوسع الجرماني حتى الارخبيل ، عبر النمسا ، والبلقان ومقدونيا لتعبر المانيا من هناك الى آسيا الصغرى وتخلق امبراطورية المانية واسعة ، تمتد من بحر الشمال حتى الخليج الفارسي . وعلى ايدي الالمان تغدو آسيا الصغرى في سنوات قليلة بلادا المانية تماما يعمرها المهاجرون من يوزنمبرجوا او بومرانيان الذين يطورونها بجرمنتها ، كما طوروا وجرمنوا القرى التي احتلوها في فلسطين . وكان الانكليز افضل من يدير المستعمرات ، فالالمان يصدرون المستوطنين الممتازين . انهم اكثر الشعوب قدرة على الاستعمار في العالم .

رأينا في حيفا ويافا مستعمرين المانا ، اتوا فقراء ، منذ بضعة سنوات ، يمتلكون حاليا عقارات تبلغ قيمتها مائتي او ثلاثمائة الف فرنك ، تعود عليهم بعشرين او خمسة وعشرين الف فرنك في السنة . إن هؤلاء المستعمرين يتأقلمون بسهولة ، ويشتغلون كثيرا ، وينتجون بضخامة ولا يكادون يصرفون شيئا . وهم على العموم شرفاء ودعاء ورزينون . لقد خاف اليهود وهم يرون المنفعة التي يجنيها الامبراطور من انماء هذه المستعمرات والحماية التي تمنحها حكومة برلين [خافوا] من ان تصبح هذه المستعمرات عقبة مع الزمن في [وجه]

تحقيق حلمهم ولكي يمنعوها من التوسع اكثر فاكثر ، اشتروا جميع القرى المحيطة بها .

في الاساس لم يكن طموح المانيا ابدا التوجه نحو البلدان العربية بل نحو الاناضول . ان بعض المصالح في سوريا وفلسطين ، كتعمير الكنائس ، ودور الايتام ، والمستشفيات وتأسيس المصرف (دوتش بنك فلسطين) الناتجة عن مبادرة الامبراطور ، وبناء مستعمرتين زراعيتين احدهما في حيفا والاخرى في يافا ، والمطالبة بحماية رعاياها من البعثات الكاثوليكية ، كل هذه خلقتها منذ بضع سنوات ليس بهدف احتلال هذا الجزء من تركيا فيما بعد انما ليكون لديها ما تواجه به مطالب الاخرين ولتنتزع منهم تنازلات اخرى منتظرة في آسيا الصغرى .

زيارات الامبراطور للشرق

كانت زيارتا القيصر للقسطنطينية خلال خمس سنوات كافيتين ليحصل الالمان على مجموعة من امتيازات المناجم وسكك الحديد في مختلف قطاعات الاناضول ولتنمو تجارة النمسا ـ المانيا التي تشغل الان المرتبة الاولى في آسياالصغرى. اذ ان هذا السلطان ، الذي يرى اوروبا تبتعد عنه وترفض معاملته كسلطان ، يليق به هذا اللقب ، وتعتبره كقاطع طريق من ادنى طبقة ، [هذا السلطان] يشرفه استقبال الامبراطور الاوروبي الكبير في دياره ، مع كرهه له ، فهو يرتفع في ذلك بعيون رعاياه.ولمناسبة هذه الزيارات تروي صحف القسطنطينية للاتراك ان امبراطور المانيا ادنى من السلطان العثماني مرتبةلأنه هو الذي قام بالزيارة اولا وقد نعتت الصحافة والحكومة التركية ، على كل حال، غليوم الثاني اثناء اقامته على ضفاف البوسفور بالمتواضع في الوقت الذي

كانت تردد فيه دائما عندما تتحدث عن عبد الحميد : عبارات صاحب الجلالة القدير ، والعاهل ، ذي الرفعة ، كما لو كنا في زمن سليمان .

كذبة غير متقنة

هذا التملق يلتذون به جدا في يلدز ، فلقد كتب الصحافي طاهر بك ، الذي استقبله الصدر الاعظم العثماني سنة ١٩٠٠ ، ان شاه ايران قبل اليد المجرمة للسلطان الاحمر . ولكن العالم بأجمعه يعرف جيدا كيف يعامل غليوم الثاني عبد الحميد اذا كنا بحاجة لنتبين من الذي يستعلي على الاخر السلطان ام القيصر . يداري القيصر كثيرا ويتباهى اكثر باصغر امير في الاتحاد الجرماني بالمقارنة مع امير المؤمنين وظل الله على الارض . لقد ذهب مرتين الى القسطنطينية ، دون ان يتلقى دعوة من احد ، وبهدف وحيد الا وهو فرض نفوذه وهيبته على الرجل المريض ليضمن لنفسه حصة كبرى من الميراث في المستقبل .

المانيا في الاناضول

رجعت المانيا الى آسيا الصغرى لانها انضج من الصين واقرب اليها واكثر ارتباطا بطموحاتها بعدما وصلت متأخرة جدا لدى قسمة افريقيا التي اضحت اليوم قارة فرنسية وانكليزية ،وقد واتتها ميول السلطان النفعية من جهة وخصومات الدول الاوروبية من جهة اخرى . فوجدت في تركيا الآسيوية حقلا واسعا خاليا من الفعاليات الاقتصادية والاستعمارية .

عرض من الامبراطور غليوم

شجعت غليوم الثاني نجاحاته ونداءات المجرم المرتجف فعرض

على الاخير ان يعهد الى الالمان بادارة واستثمار ممتلكاته الخاصة . واذا قبل العرض ، شكل هذا بالنسبة لالمانيا ثروة حقيقية ، فتخضع تركيا بكاملها لوصاية [المانيا] ويترسخ النفوذ الالماني في كل الولايات . ففي فلسطين كل وادي الاردن وجزء كبير من سهل صور وعكا وبئر السبع وشرق الاردن ،وفي بلاد الرافدين نصف وادي دجلة والفرات اي باختصار خمس الاراضي الامبراطورية القابلة للزراعة هي ملك ألسلطان الخاص . لكن بعض السفراء نصحوا عبد الحميد بالرفض واجاب الامبراطور بـ (بكالوم) أي سنفكر التي تعني تأجيلا غير متناه للسؤال .

سكة حديد بغداد

بالرغم من ذلك ، كرست المانيا بطريقة حقيقية نفوذها في آسيا الصغرى بامتياز [بناء] سكة حديد حيدر باشا بين القسطنطينية وبغداد والخليج الفارسي مخترقة كل الاناضول وبلاد الرافدين وقد مُنحت اياه سنة ١٩٠١ ب م .

هنا اظهرت الدبلوماسية الفرنسية حنكة فائقة . اذ ليس لفرنسا مصالح هامة تتذرع بها اذا تركنا جانبا حماية مائة وخمسين الف ارمني كاثوليكي ، وبالتالي لا تستطيع ان تحول دون المشروع الالماني ،لذلك تفاهمت مع السلطان والامبراطور حول بناء هذا الخط الهام مناصفة بين العاصمتين الفرنسية والالمانية .ويتم اختيار الافراد الضروريين للاستثمار بنفس النسب في برلين وباريس . وهكذا اخذ الفرنسيون حذرهم سنة ١٩٠١ من ترداد نفس الخطأ الذي ارتكبوه في مصر سنة ١٨٨٢ . عوض ان يتركوا الاناضول للالمان انضموا اليهم ليستثمروه . وروسيا التي لا

تستطيع ابعاد المانيا من طريقها نحو الدردنيل والاسكندرونه كانت راضية الى حد ما عن دور حليفتها في مشروع جرماني ضد روسيا . بحيث ان الفرنسيين ادوا خدمة جلى لاصدقائهم الروس بغل ايادي الالمان في اسيا الصغرى بالاضافة الى خلق حقوق لهم فيها واحتلال مركز مرموق في عواصمها . ومن الطبيعي ان يكون النفوذ الفرنسي هو الارجح في ادارة هذا الطريق الجديد الضخم والبالغ طوله الفين ومائتي كلم .

تعاطف غليوم الثاني مع العرب

اخذت على غليوم الثاني صداقته لعبد الحميد ، ولا يخُطأُ الظن فيه ،لأن امبراطور المانيا يعرف السلطان الحالي ، وقضايا الشرق ، افضل من اي انسان اخر . لقد امتدح جلالته الجيوش العربية ، التي استعرضها في دمشق ، سنة ١٨٩٨ ب م ، وهي الرثة الثياب ، في حين انه لم يوجه كلمة ثناء واحدة للجنود الاتراك ، المزينين بالذهب والفضة ، والتي قامت بمناورات امامه في القسطنطينية. كذلك وضع اكليلا رائعا على ضريح العربي صلاح الدين العدو الحر والمخلص الوفي للصليبيين بينما قدم كلبا وعصا لسلطان الاتراك .وامام هذه الشواهد العفوية وبالتالي الصادقة ، نستطيع الاعتقاد بان استقلال البلدان العربية سيحظى بعطف غليوم الثاني .

الفصل السادس

سياسة ايطاليا

طرابلس والبانيا

لم تستطع ايطاليا ، التي تأسست كدولة منذ عهد قريب ، اكتساب الحقوق التاريخية وخلق المصالح الهامة في آسيا العثمانية . مع ذلك لا يسعها البقاء غريبة عن اي قضية تمس البحر الذي يؤلف مركز الفعالية في العالم ، وتجارتها الدولية محدودة تقريبا في البحر الابيض المتوسط . لقد سبقتها المانيا في آسيا الصغرى ، وفرنسا في البلدان العربية ، وانكلترا في مصر ، فيممت وجهها شطر طرابلس [الغرب] ، حيث تركت لها الدول الكبرى حرية الحركة . لكن هذه المقاطعة التركية لا تعادل تلك التي يستولي عليها الاخرون او يطمحون اليها . فبذلك بدت وكأنها غير راضية عن قسمة الميراث الحميدي الا بشرط الحصول على البانيا ، في اوروبا ، تلك التي يجب ان تأخذ بعين الاعتبار حق ايطاليا بالجوار عليها ، بالاضافة الى طرابلس [الغرب] ، في افريقيا ، والتيرول ، وتريست ، ودالماتي والبوسنة و الهرزغوفين والبانيا ، هذه كلها تشكل الميراث الذي تتمنى ايطاليا الحصول عليه بعد سقوط المملكتين الهرمتين النمسا وتركيا .

لكن هنا ، علاوة على معارضة المانيا والنمسا ، والمقاطعات

البلقانية ، التي تحدثنا عنها في الفصل السابق ، تجد ايطاليا في وجهها صعوبة محلية ضخمة جدا ولا يقبل الالبانيون وهم شعب شديد المراس وغيور على استقلاله ، ابدا ، باي احتلال اجنبي مهما كان . ويخسر الذي يريد الدخول الى بلادهم ما يزيد على المئة الف رجل قبل ان يبسط سيطرته المؤقتة على جبالهم ، الامر الذي لا يستطيع غاز ان يتحمله . نحن خلاف ذلك في سوريا مسيحيين ومسلمين نحن المسحوقين ، نستقبل بفرح اول دولة تأتي لتنتزعنا من العبودية بينما لم يقاس الجبليون الاشداء في البانيا قط من العبودية . ولم يكن للسلطان اي سلطة اسمية على هذا العنصر الباسل ، الذي بقي ممتنعا عن الانقسامات الطائفية التعصبية ، والذي وعى تماما قوميته . يؤلف المسلمون والارثوذكس والكاثوليك في البانيا امة واحدة لا يحتاجون الا الى ملك لتشاد دولة جديدة . يحتاج عبد الحميد الى الالبانيين اكثر مما هم يحتاجون اليه فيصانعهم ، بشتى الوجوه ، ليستخدمهم في درء غزوة يونانية او في سحق ثورة مقدونية . يعتبر الموظفون الاتراك سدنة الالبانيين غالبا لا مديريهم وعندما لا يرتاحون الى وال يحيطون بالسرايا ويهددون بقتله اذا لم يجمع حقيبته ويغادر سريعا .

ايطاليا والحزب القومي الالباني

في الوقت ذاته يبرق الالبان الى يلدز مطالبين باستدعاء حاكم مرتش ، فيرضخ السلطان دائما لانه يعلم كفاءة الارناؤوط . ان افضل خطة بالنسبة لايطاليا هي اذن في تشجيع البانيا على الاستقلال وتشجيع حزبها القومي القوي سلفا . ضمن هذه الظروف اذا نهض الالبانيون والعرب سويا يكفي اسبوع واحد لتصبح البانيا المستقلة تحت حكم ملكي متعاطف مع ايطاليا . .

قيصر روما والفاتيكان

قبل سنة ١٨٧٠ ب م ، شغل الايطاليون جميع المراكز الكهنوتية الهامة ، في تركيا ، ويمتلك الايطاليون في الشرق بفضل هذه الحالة والى حد ما بفضل ما تركه التجار البندقيون[1] والجنويون[2] رونقا جذابا . اذ لو ان ايطاليا توصلت الى تسوية مؤقتة سلمية مع الفاتيكان بعد موت بيوث التاسع لكانت استثمرت هذا المجال المشجع لنفوذها واستفادت من الاستئثار بمواطنيه وبعثاته ، وادارته الرسولية ، ولكن اليون الثالث عشر اضطر للارتماء بين ذراعي الجمهورية الفرنسية التي منحت ، في الشرق ، عدة مراكز حبرية . تبدو الادوار حاليا وكأنها تبدلت فتقف فرنسا موقف ايطاليا تجاه البابوية الرومانية وبلاط روما يبدو اكثر اقترابا يوما بعد يوم من البابا الحالي .

تقدم ايطاليا

ومع انه لم يمض سوى نصف قرن على ايطاليا فلقد ارتقت بقليل من الزمن الى مصاف الدول الاوروبية الكبرى في التجارة ، والصناعة ، والعلوم والاداب ، وهي من اكثر الدول الاوروبية تحررا . والكتاب الطليان هم ناشرو الافكار الانسانية وهم الدعاة الى المحبة والراغبون في انتشار النظم الدستورية واستقلال الشعوب . ويرغب الطليان ايضا وهم الذين عانوا طويلا من العبودية ، في ان تتحرر الامم التي ما زالت تئن تحت وطأة الاضطهاد مثلما تحرروا هم . لذا في اليوم الذي ينهض العرب ضد الاتراك ويعلنون استقلالهم سيجدون في ايطاليا امة صديقة تصفق لنجاحهم وتساندهم مع فرنسا وانكلترا ضمن الائتلاف الاوروبي .

الهوامش

١) مدينة ومرفأ في شمال ايطاليا على بحر الادرياتيك . وكانت في القرون الوسطى مركزاً لجمهورية ارستوقراطية مزدهرة . تعتبر مركزاً ثقافيا وفنيا متقدماً ، فيها قصر وكنائس ومتاحف .

٢) مدينة ومرفأ ايطالي على البحر الابيض المتوسط في اخر خليج جنوى عدد سكانها ٨٥٠,٠٠٠ نسمة فيها جامعة ومعامل وصناعة سفن ومصافي بترول عرفت بعلاقاتها مع الشرق .

الفصل السابع

سياسة الولايات المتحدة الأميركية

الارساليات الاميركية والانكليزية

لم تعن الولايات المتحدة الاميركية بالقضية الشرقية بشكل واضح ، الا منذ مذابح ارمينيا . فهي لا تغذي اطماعا في السيطرة على تركيا الاسيوية كالدول الاوروبية ؛ ولا مصالح لها ترتبط مباشرة بحل القضية الشرقية ؛ بل بالاحرى تحركها عاطفة لدى رؤ ية الناس المضطهدين بلا سبب والبؤ ساء الذين يعيشون في بلد غني خصب ابقته خلافات الدول الاوروبية تحت عبودية الاتراك البرابرة .

يعود الاحسان الاميركي الى سنة ١٨٦٠ ب م حين يؤ رخ تأسيس بعثات الاحسان على اختلاف انواعها : جامعات ومعاهد ومدارس ومستشفيات ومياتم ، الخ . . الخ . . . التي اغرق الاميركيون فيها بلدنا . ونتحقق اليوم من نتائجها الممتازة تحدثنا ، سابقا ، عن تضحية البعثات الاميركية ، وعن الخير العميم الذي صنعوه في البلدان العربية والاناضول . لقد انفقت الولايات المتحدة سابقا ، مبالغ طائلة ، لتحمي تراث بعثاتها التي لا تتراجع امام اي صعوبة عندما يتعلق الامر بفتح مدرسة وتعليم الناشئة . لقد تمكنوا من ان يتمركزوا في جبال ارمينيا العالية وكردستان ، حيث لم تستطع البعثات

الكاثوليكية ان تدخل . يتسنم عدد ضخم من قدامى تلاميذهم المراكز المصرية المرموقة ، وينادي الكثير من الذين تخرجوا من مدارسهم باستقلال البلدان العربية الى جانبنا . يجب ان نقول ، المقدار نفسه عن البعثات الانكليزية التي تختلط بالبعثات الاميركية في الشرق. على كل حال تشبه سياسة الولايات المتحدة سياسة انكلترا في البحر الابيض المتوسط في انها لا تتعارض مع تقسيم تركيا ، والاحتفاظ بابعاد الروس عن الدردنيل والاسكندرونة والقدس . لان كل تعاظم لا يحد للروس في آسيا الصغرى يفسح في المجال لحرية تجارتها في المحيط الهادىء . من جهة اخرى لقد استنتجت الولايات المتحدة الاميركية ان المأثرة الحسنة لبعثاتها ولمدارسها عموما، كاثوليكية وبروتستانتية لا تفيد البلد ، لان سياسة الاتراك التعسفية تغلق امام الاجيال الشابة جميع ميادين العمل، سواء كانت انشاء جمعية ثقافية او تجارية او صناعية ، وتضطرهم بسلسلة من المحرمات والاضطرابات التي حرضت عليها بمهارة فائقة ، للهجرة الى البلاد الاجنبية تضغط بتأثيرها ليتبنى السلطان سياسة تحررية ولم تكن أميركا بعيدة عن العمل على تصفية الامبراطورية التركية عن طريق استقلال الامم المضطهدة على التوالي . ان قصور الدول الاوروبية امام هذه الحالة ونمو المد الروسي جعلا من الضروري احيانا التدخل الحاسم من قبل الجمهورية الاميركية الكبرى .

عبد الحميد الخائف

لقد قلنا سابقا كيف حرك غياب الاسطول البحري الفرنسي عن بيروت اثناء الاضطرابات الاخيرة الأسطول الاميركي.ولقد استفادت حكومة واشنطن من هذا التدخل لتفرض على التركي الاكبر ، شروطا مبالغا فيها،الا انها عادلة ومؤاتية لأمن الرعية ولتقدم البلاد ايضا . لا

يريد عبد الحميد ان يصدق عينيه وأذنيه من الدهشة خوفا من بروز دولة جديدة فجأة اكثر تهديدا من روسيا ومن السيد كونستانس في مطالبه ، واسرع من انكلترا في تنفيذ تهديداتها وتخيف اكثر من اوروبا مجتمعة بحرية حركتها . وعندما اضطر للاعتراف بالواقع ، حاول ان يستفيد من المحرك الاعتيادي الا وهو المنافسات الاوروبية .

وجدت اكثرية الدول الكبرى مصلحتها في المبادرة الاميركية ولم تعد تخاف اظهار ارتياحها من متاعب السلطان . ولا يجد الاخرون حرجا ، فاميركا خارجة عن المعاهدات التي تنظم الروابط بين اوروبا وتركيا . على كل حال لا يطالب [الاميركيون] بأي تنازل عن ارض يحد من مسعاهم للعدالة والانسانية . وبينما كان عبد الحميد يسعى لكسب الوقت ، اشعره الاميركيون اكثر فاكثر بضخامة قوتهم ، وبتصميمهم الثابت جدا . لقد اضافوا الى مطالبهم مبلغ خمس وعشرين الف فرنك يوميا كضريبة لبقاء اسطولهم البحري في مياه بيروت . فتراجع سلطان الاتراك لانه لم يجد اي مخرج ورأى العلاوة المالية تتزايد يوما بعد يوم . لقد عرف الامة الاميركية من خلال المهاجرين السوريين العائدين من الولايات المتحدة ، فدفع بالتقسيط العلاوة التي فرضوها عليه .

نصت اتفاقات تركيا والدول الاوروبية على ان يمنح اي عثماني حق الجنسية الاجنبية اذا طلب اذنا من حكومة تركيا . وفي مثل هذه الحالة تشترط لمنح موافقتها ان يفقد هذا الاخير حقوقه في ميراث محتمل في تركيا ، ولا يعود البتة الا اذا تخلى عن صفته الاجنبية ليعامل كعثماني عادي . لقد تمكنت الحكومة التركية بقوة دسائسها من ان تجعل الدول تقبل هذه التدابير التي تتجاوز الحد لانها تعرف اي رعب توحي به هذه

التدابير بالنسبة الى رعاياها من دون استثناء ، وتعرف جيدا ان الجميع سيسارعون الى الجنسية الاجنبية ليتخلصوا من السلطة المستبدة المرتشية المتعسفة .

الاميركيون يغيرون النظم

هكذا غير الاميركيون النظم الموافقة للاتراك ، ومن يعرف الامتيازات التي يتمتع بها الاجانب في الامبراطورية العثمانية يسهل عليه ان يرى انه بمقدار تكاثر السوريين الذين يعودون سنويا من اميركا يتم خلق دولة اقوى من الدولة التركية ، وبعد عشر سنوات تكون سوريا بكاملها قد امتلأت دون سواها برعايا اميركيين . لقد كانت ضربة قاتلة ان تحرض الولايات المتحدة الاميركية على فرنسا في الشرق . بالتالي ، لقد تحددت منذ الان فصاعدا ، حماية فرنسا للكنائس الكاثوليكية التي تعتبر كشخصيات معنوية ، بينما تدافع اميركا عن الافراد الذين يؤلفون هذه الكنائس كمدنيين ، لهم الحق بالحماية التامة . ومع ذلك تعتبر فرنسا أن الطموح الاميركي الثابت لا يهدف الى احتلال قطاع تركي آسيوي وأن مسعاها المحمود لا يضع عراقيل في وجه نجاح مطالبها . ولكن عبد الحميد لم يتراجع اما الموقف الاميركي القوي الا مع فكرة مسبقة بسحب تعهداته لدى اي سانحة . لقد انتظرت الولايات المتحدة من جهتها الفرصة المؤاتية لتنشر في ارمينيا والاناضول المكاسب التي حققتها للبلدان العربية .

حادث في القسطنطينية

واخيرا تقدم جماعة من الارمن بجوازات سفر اميركية في

القسطنطينية أثناء عودتهم من نيويورك . اراد البوليس التركي معاملتهم كرعايا اتراك عاديين فدعمهم ممثل الولايات المتحدة وطلب التعرف اليهم بصفة رعايا من الجمهورية الكبرى . لا يستطيع عبد الحميد قضاء اي امر عن طريق العنف . ويخاف قنابل النقمة من جراء جرائمه التي لا تحصى ، فرجى ممثل الولايات المتحدة ان يبعدهم عن عاصمته ، ولكن هذا الاخير رفض . لقد اعتقد السلطان انه يستطيع تحريك روسيا لكنها كانت مشغولة تماما في الشرق الاقصى مما لا يتيح لها الوقت الكافي للتفكير بالدفاع عنه . واثناء دسائس السلطان تظاهر الاسطول البحري الاميركي امام سميرن مما اضطر التركي الاكبر مرة اخرى للتراجع وهكذا باتت الحماية الاميركية تمتد على كل امبراطورية السلطان الاسيوية .

بتدخل الولايات المتحدة الاميركية في الشؤون الداخلية التركية ، تعرقل النشاط الروسي اكثر من نشاط سائر الحكومات الاوروبية ، وبالرغم من ذلك فان روسيا لا تستطيع المعارضة بصراحة بسبب مشاعر الدول الاخرى المتعاطفة مع التدخل الاميركي الخير النزيه .

اما من جهتنا نحن العرب فيجب أن نحيي بحماس الدور النبيل الذي لعبته الجمهورية الكبرى في الشرق . ولقد تبدو حركتها العفوية اكثر فاعلية بقدر ما تصمم على اتمامها بنشاط حتى نهايتها . وتبدو الدول وكأنها اما مهيأة لتساندها واما على الاقل تاركة لها حرية التصرف .

نحن نستطيع ان نأخذ بعين الاعتبار مؤازرتها المعنوية والدبلوماسية في اليوم الذي نعتق فيه من عبودية الاتراك والشركس .

الفصل الثامن

سياسة الكرسي الرسولي

كنائس الشرق

يرتبط التأثير الديني للبابوية الرومانية تماما بالقضايا السياسية ويندمجان معا وبالتالي فهو يلعب دورا ضخما في العلاقات الدولية على امتداد الامبراطورية العثمانية وبشكل خاص في البلدان العربية .

تتألف الكنائس الكاثوليكية في القسم التركي الاخير[البلدان العربية] من الموارنة واليونانيين والملكانيين الكاثوليك والسريان الكاثوليك ، والكلدان الكاثوليك ، واللاتين . والكنائس الاربع الاوائل هي بدون استثناء من اهل البلاد وادارتها على التوالي وطنية تماما . يحترم الفاتيكان استقلالها الداخلي كثيرا ولا يتدخل في شؤ ونها الخاصة الا في المسائل الخطيرة جدا . وقد قلنا سابقا كيف تدار هذه الكنائس وكم عدد تابعيها .

تاريخها غير واضح وموضع نزاع ، ويعود الموارنة الى القرن الخامس بينما لا يكاد يتواجد اليونانيون الملكانيون الكاثوليك الا منذ مئة عام . ويؤلف الموارنة من بين كاثوليك الشرق الكتلة العنصرية الأشد تماسكا والاضخم عددا . فهم يعدون اربعماية وخمسين الف مؤمن يتجمعون في مكان واحد هو جبل لبنان ، ومن هناك بدأوا منذ بضع

سنوات ينتشرون في بقية البلدان العربية . وهناك مذهب منشق عن كل
من المذاهب الوطنية الكاثوليكية اهم من المذهب الأم يرتبط به ويلزمه
وقت طويل او قصير للدخول في اتحاد مع روما . وفي مصر كنيستان
مسيحيتان : الكنيسة القبطية الكاثوليكية والكنيسة القبطية
الارثوذكسية . ويوجد كذلك كنيستان اخريان في الاناضول هما كنيسة
الارمن الكاثوليك وكنيسة الارمن الارثوذكس .

تكتيك الكرسي الرسولي

تقوم سياسة الكرسي الرسولي على مساعدة الكنيسة الموحدة
لاحتواء الكنائس المنشقة في كل قطر . لقد نجحت هذه السياسة تماما في
وادي النيل وارمينيا . عندما اوجد الفاتيكان بطريركية الاقباط
الكاثوليك في الاسكندرية ، لم يكن يتجاوز عدد المؤمنين المئة وخمسين
وهو عددافراد عائلة البطرك ، وتوجت جهود الحبر الجديد بالنجاح
فشملت سلطته الان اكثر من عشرة الاف شخص .وبالتأكيد ستتابع هذه
الكنيسة تقدمها حتى تنتهي باحتواء الكنيسة الاخرى التي لا تعد اقل من
مليون مؤمن . لانه لا يوجد في مصر حاليا الا مذهبان مصونان من اي
تدخل اجنبي ينتميان الى امة واحدة ، لا كراهية ولا حسد يفرق بينهما ،
ولا يفصلهما عن بعضهما الا عدد صغير من الشرائع المختلفة . على كل
حال ان رجال الدين والناس الارثوذكس عموما اميون ومرهقون جدا
لاضطهادهم لفترة طويلة من قبل المماليك والاتراك والشركس وهم لا
يعرفون ابدا ما هو سبب الانفصال عن روما وما هواساسه، انهم
مستعدون للاقتراب من الكرسي الرسولي ولن تبعدهم عنه اي مصلحة
شخصية .وفي اليوم الذي تصبح فيه الكنيسة كاثوليكية تخسر هي ولن

يخسر رجال الدين اياً من الامتيازات المادية ،بل على عكس ذلك ،
ستحتفظ ببطركها ورجال دينها الوطنيين ، وطقسها ومصالحها الخاصة
بها ، وستفوز بالمساعدات وبالحماية ، ستفتح المدارس والمعاهد التي لا
نستطيع تأسيسها ولا دعمها وسيرتفع مستوى الامة العقلي . ان الاقباط
عموما ، ودعاء ، وعمال ، وشرفاء ، وليس كهنتهم ، بالرغم من
جهلهم ، اقل مستوى من كهنتهم . وبقيت اداراتهم نزيهة وابوية
كالكهنوتيات الاخريات التي لم يستعبدها اليونانيون .

الكنيسة الحبشية

يتألف الكهنوت الاقباط من اليسوعيين ،ويختلف ابناء الرعويات
الى هذه المدارس على قدم المساواة ،مما يضفي على هذا الشعب رفعة
حقيقية على اخيه المنشق ، بحيث ان الكاثوليك اذا ما احسنوا استخدام
العقل والرفق والتأقلم يحتوون الارثوذكس باسرع مما يفكرون . ولقد
بقيت الحكومة الانكلو- مصرية ، التي تدب فيها مشاعر الحرية ،
غريبة تماما عن هذا الصراع الهادىء وتركت ايادي الحزبين مطلقة من
دون تمييز .وكذلك لا يستفيد المسلمون ابدا من هذه المعركة الهادئة التي
لم يسمعوا بها بتاتا .وهكذا لم يصادف النشاط الكاثوليكي في مصر اي
معارضة . فهو على كل حال وبهذا المعنى احسان ،ووجهةنظر سياسية ،
اكثر منه حضارة، سيصبح من السهل على الكاثوليك انقاص الاقباط
الارثوذكس والحبشيين عن اربع ملايين ، اذا تخلصت هذه الكنيسة من
النفوذ الروسي الغازي . وكذلك بالنسبة للكنيسة الارمنية الكاثوليكية
في الاناضول التي تتحفز لاعادة الوحدة للكنيسة المنشقة . وهنا كما
بالنسبة للاقباط المصريين شعب واحد انقسم الى فريقين : الفريق
الكاثوليكي والفريق الارثوذكسي ، لكن لا يوجد بينهما عداء ولا

عنف . كان الارمن الكاثوليك منذ ثلاثين سنة قليلي العدد اما اليوم فهم مماية وخمسون الفا تقريبا لهم بطريرك يقيم في القسطنطينية واربعة عشر مطران رعية .ولا تستقبح الارثوذكسية الارمنية الغزو الكاثوليكي لان الكرسي الرسولي لا يحقد على مذهبهم ولا على امتهم . فهو يحترم جميع هذه المؤسسات ويفضل الارمن الارثوذكس ان يصبحوا كاثوليكا ، ويبقون ارمن ، على ان يبقوا ارثوذكسا ويصبحون روسا . اذا اعتنق الارمن الكثلكة جميعهم فانهم لا يخسرون شيئا ماديا بل يجدون في ذلك الطريق الممتازة للتصدي للترويس الذي ينتظرهم ويصلون باكرا الى الاستقلال . ومن الضروري الملاحظة بان الكهنوت الارمن الارثوذكس هم اكثر الكنائس المنشقة في الشرق ثقافة واستعدادا وادارتهم توازي ادارة الكاثوليك .

كاثوليك اشميادزن .

يحار السلطان الذي ، يرى في الارمن عنصر تفكك في امبراطوريته، كيف يتجه اذا اعتنق هؤلاء الكثلكة ووجدوا في اوروبا حماية اشد ، وفي البابوية تشجيعا معنويا كبيرا• .ومن جهة اخرى اذا بقي هؤلاء ارثوذكسا فلن يجدوا في ظل الامبراطورية المسكوفية سوى موظف عينه القيصر لتحتوي روسيا جميع الابرشيات في الاناضول ولتتخذ منها ذريعة لاستخدامها للتدخل في كل لحظة بالشؤون الداخلية التركية .

اذاً ، من الجهتين ، هناك خطر حقيقي يبصره السلطان جيدا ، وتقتضي حكمته ان يحتفظ بالمعادلة ،فهو يحتفظ بالكاثوليك لمقاومة روسيا ، وبالارثوذكس بغية منع وحدة الامة الارمنية تحت سيطرة

البابا . وترى روسيا في الكنائس الكاثوليكية في اسيا الصغرى عقبة كبيرة في سبيل ترويس كل هذه الاقطار ، التي تعتبر منذ القديم انها تحمل الضغينة الحقيقية ضد اليونانيين لانهم لم يحسنوا احتواء جميع كنائس الارثوذكس في الشرق ، في حين انهم كانوا اسيادا في ظل الامبراطورية البيزنطية وفي ظل الاتراك ، حتى سنة ١٨٣٠ وبعد ذلك ، وجدوا انفسهم في البؤس والجهالة دون مساعد .

خمسة عشر مذهبا مختلفا

اصبح الامر البسيط والمنطقي بالنسبة للاقباط في مصر وللارمن في الاناضول معضلة معقدة في البلدان العربية : في فلسطين وسوريا والعراق . هنا يجب التوحيد بدل التجزئة اذ يعتبر التركيب الكفء في وادي النيل وارمينيا خطأ خطيرا في البلدان العربية . لقد قلناها سابقا : لا يؤلف الارمن الكاثوليك والارمن الارثوذكس سوى امة واحدة ، هكذا بالنسبة للأقباط، واذا استطاعت أمة ان تتحمل الانقسام دون ضرر ، وانتفعت من انقسام سلمي الى حزبين ، فانه لا يسعها الا التألم كثيرا ضمن هذا الواقع لأنها تستعبد من قبل كل هذه التحديات ، التي لا تفيد إلا في ابقائها تحت نيرالاجنبي . لا يوجد بين دجلة وبرزخ السويس ومن البحر المتوسط حتى بحر عمان سوى امة واحدة هي الأمة العربية ، التي تتحدث بلغة واحدة ، وتمتلك تقاليد تاريخية واحدة وتدرس الأدب ذاته ، وكل فرد من هذه الكتلة العنصرية يفتخر بالانتماء الى الوطن العربي . ان قاطني هذه البلدان الشاسعة لا يتميز بعضهم عن البعض الآخر الا بالأديان والطوائف والمذاهب التي لا تحصى . ارجوك ان تحصي . مسلمون سنيون ، ومسلمون شيعة ، ونصيريون ، ودروز ، وموارنة ، ولاتين ، ويونان ارثوذكس ، ويونان ملكانيون

كاثوليك ، وسريان ارثوذكس ، وسريان كاثوليك ، وكلدان ارثوذكس ، ونسطوريون ، وصائبة ،وكلدان كاثوليك ، والاختلافات بين المسلمين والمسيحيين وبين الكاثوليك والارثوذكس هي اقل بما لا نهاية له من الاختلافات بين مختلف المذاهب الكاثوليكية من يونانيين ملكانيين كاثوليك ، وسريان كاثوليك ، وموارنة ، وكلدان كاثوليك ، . انها حقيقة شائنة . ان التعصب الديني غريب تماما عن هذه الاحقاد الجهنمية . والشعب الفقير لا يفهم شيئا ولا يقيم اي اهمية هذه الاختلافات المذهبية ، ان الكهنة هم الذين [تدفعهم] مصلحتهم الشخصية ليتنافسوا على الصدقات التي ترسلها فرنسا وروما ويثيرون تابعيهم ضد الآخرين . وهنا يجب ترداد المبدأ المدون من قبل بشكل آخر : التعصب الديني ليس سوى تطور في المصلحة الشخصية . إن التعصب القومي شعور عفوي فطري تقريبا ، كمثل [الشعور] العائلي الذي يأخذه بعين الاعتبار كل سياسي ، والذي يوجب ابعاد كل قضية دينية . هكذا لا يتباغض المسلمون والاقباط في مصر المسلمة ، ولكن كليهما يمقتان السوري لا فرق ، كان مسيحيا او محمديا .

لمحة تاريخية عن الكنائس الشرقية

اخذت الكنائس الكاثوليكية في البلدان العربية على عاتقها [مهمة] احتواء الكنيسة الارثوذكسية المقابلة لها . فرسالة اليونان الملكانيين الكاثوليك هي فى هداية اليونان الارثوذكس ؛ والسريان الكاثوليك . والكلدان الكاثوليك يجب ان يعيدوا الاتحاد ، على التوالي ، مع السريان الارثوذكس ،والنساطرة. اما الموارنة فليس لديهم كنيسة منشقة ، وبالتالي لا يهتمون بهذا الامر.لقد اضحت الكنائس الكاثوليكية اعظم شأناً من الكنائس الارثوذكسية ، واقوى

منها ، انشأتها البعثات الاجنبية وامدتها اوروبا بالمبالغ الضخمة . لكن كهنة الكنائس الكلدانية والسريانية الارثوذكسية هم لطفاء ومتسامحون وادارتهم تتفوق بعطفهم الابوي بالرغم من انهم فقراء جهلة . ينطبق هذا الامر على العرب اليونانيين الكاثوليك الذين تخلصوا من نير اليونانيين . لقد قلنا سابقا ان عرب المذهب اليوناني الارثوذكسي [من تابعي] بطريركية القدس هم في طريق الخلاص ، من السيطرة الهلينية . اذن كان من السهل على كل كنيسة كاثوليكية ان تحتوي الكنيسة المنشقة المقابلة لانها تحترم مذهبها ومؤسساتها الكنسيَّة ، يصح ذلك ما لم يفكر الارثوذكس هكذا ويقولون : نحن ارثوذكس الشرق [نبلغ] سبعماية الف نسمة موزعون بين ثلاثة مذاهب يونانيين ارثوذكس ، وسريان يعاقبة ، ونساطرة ، لا يوجد بيننا اي شعور بالكره والحسد . والكاثوليك الذين ليسوا اكثر منا (سبعماية وخمسون الفا) ينقسمون الى خمسة مذاهب : موارنة ويونانيين ملكانيين كاثوليك وسريان كاثوليك وكلدان كاثوليك ، ولاتين ، يمقت بعضهم البعض الاخر ، اكثر مما يمقتهم المسلمون ، بالرغم من انهم يخضعون لرئيس واحد ويمارسون العقيدة ذاتها . من الافضل ، اذن [بالنسبة] لنا ، ان نبقى على ما نحن عليه وان ننهي كل هذه الانقسامات .

يتمسك الكهنة اليونان في القدس بهذه الحجة ضد الكاثوليك . ولقد ارتكبت الادارة البابوية الرومانية غلطة ضخمة عندما علقت اهمية كبرى على بعض المسائل المذهبية ، التي لا معنى لها والتي لا يتأثر بها العالم اكثر من تأثره بالشعور القومي . لقد جزأت سبعماية وخمسين الف نسمة لا تعادل مطرانية فرنسية صغيرة ، الى خمس بطريركيات ، وثلاث

بعثات رسولية ، وسبع وثلاثين ابرشية ، اعتمدت سياسة التفرقة في القطر الذي هو بامس الحاجة الى الاتحاد . ان اتحاد سبعماية وخمسين الف كاثوليكي يشكل قوة ضخمة [تدعم] الكرسي الرسولي في الشرق . اما تجزئتها الراهنة فتقدم مثلا شائنا للكراهية والشقاق .

مثل شائن

بالتأكيد ان القصد الذي من [اجله] نظمت الادارة البابوية الرومانية الكنائس الشرقية ، خليق بالمديح ومنطقي في حد ذاته . لقد ارادت ان تتبع التقاليد وتصون كل ما هو قديم.واعتقدت في ان ما يلقى نجاحا باهرا في ارمينيا يلقى النجاح ذاته في البلدان العربية.نخدع بادىء ذي بدء بهذا التحليل القائل : إن الشعب البدائي ينغر قليلا لدى الطلب اليه بالتخلي عن معتقداته مع المحافظة على الشكل الخارجي لمذهبه.من جهة اخرى نجد عذرا للكرسي الرسولي لانه عندما اختط هذه السياسة لم يكن الشعور القومي العربي متأججا وكاملا كما في يومنا الحاضر . ولكن في اللحظة التي يفتش العرب فيها ، دون تمييز ، عن تقليل ما امكن من المسافة التي تباعد فيما بينهم ويتقاربون ويتحدون بغية الخلاص من عبودية بعض التعساء الاتراك ، الذين يستثمرونهم ويضطهدونهم مستفيدين من تجزئتهم،لماذا لا نسهل سبيل هذه الحركة القومية الوطنية بالغاء كل أسباب النزاع .فالخصومات بين الكاثوليك هي اكثر اضطرابا بين العرب واثرها السيء ينعكس على الارثوذكس والمسلمين ؟ لماذا لا توحد المذاهب الكاثوليكية الشرقية الخمسة في دين واحد وهي التي تؤلف كلها العنصر الاكثر ثقافة والاكثر حيوية في الامة العربية ؟ هذا سهل بقدر ما يتعهد الفكر في الشرق، ولا سيما الطبقة الموجهة بتحقيق هذه الفكرة.ان الكهنة لن يبدوا تعلقا باي مذهب لا

يجديهم نفعا ولا يفهمون منه شيئا .

الطوائف الشرقية في ظل اللاتين

منذ المسيح والبلدان العربية تتكلم اللغات الاخوات الثلاث المتشابهة : الكلدانية في وادي الرافدين والسريانية في سوريا وفلسطين والعربية في المقاطعات الاخرى . وتحولوا الى المسيحية منذ القرون الاولى لعصرنا ، فاعتنقوا في سوريا ووادي الرافدين ، بشكل طبيعي مذهبا [صاغوه] بلغتيهما السريانية والكلدانية . واخيرا استأثر اليونانيون ، في سوريا في ظل الامبراطورية البيزنطية ، بجميع المراكز المدنية والعسكرية والدينية وفرضوا اليونانية لغة رسمية على البلاد . لقد احتوى اليونانيون سكان المدن ، في الاماكن التي تكاثروا فيها ، بينما لم يتوغل تأثير البيزنطيين الى لبنان وبلاد الرافدين ابدا .

الطوائف الشرقية في ظل الخلفاء العرب

لقد احتوى العرب الذين هاجموا آسيا وافريقيا ، كل الشعوب والعناصر ولم يجدوا صعوبة في فرض اللغة العربية على السوريين والكلدانيين الذين كانوا من جنسهم وتشبه لهجاتهم اللهجات العربية . واحترم الخلفاء العرب الطوائف المسيحية تمشيا مع الوضع الراهن ومع انهم تعلموا العربية فقد استمروا على تأدية الصلاة بلغاتهم الاصلية واحتفظوا بالنظام الديني القديم . بقي اليونان اسياد الاماكن التي استولوا عليها قبل العرب واستمروا يختارون ممثليهم من بلاد اليونان . وفي عهود مختلفة انفصل السريان والكلدان عن روما واتبع الاقوام الخاضعون لليونان الكنيسة اليونانية عندما حدث الانشقاق الكبير في الشرق .

الموارنة

رفض سكان جبل لبنان وحدهم الانفصال عن البابا ، لقد انقطعوا عن السريان بعدما كانوا جزءا منهم واستمروا من اتباع الكرسي الرسولي ، تحت سلطة بطريرك خاص . وقد اطلق عليهم اسم الموارنة اما بالنسبة لاحد القديسين واسمه مارون ، وقد خرج من بينهم ، او نسبة الى احد كبار بطاركتهم ، جان مارون ، وهو قديس ايضا . لقد شكل الموارنة الخلية الكاثوليكية الوحيدة في اسيا بكاملها منذ مطلع القرن التاسع عشر . منذ ذلك التاريخ والانشقاقات عن الكاثوليكية تتوالى بين اليونانيين والسريان والكلدان والارثوذكس وقد فرضت باستمرار ضرورة خلق بطريركيات متتالية . وهذا ما يفسر وجود اربع بطريركيات كاثوليكية شرقية . لذلك يرعى تسع بطاركة - خمسة من الكاثوليك واربعة من الارثوذكس - وستون من الاساقفة والمطارنة ، مليونا واربعماية وخمسين الف مسيحي في البلدان العربية . نستنتج ، من الخلاصة التي تقدمنا بها عن تاريخ الطوائف الشرقية ان الطوائف المارونية والسريانية والكلدانية الكاثوليكية ، او الارثوذكسية هي بقايا الامم الثلاث الباسلة التي بقيت مستقلة عن البيزنطيين وببعض الوجوه عن العرب وعن الاتراك حتى ايامنا الحاضرة ، لانه ليس للسلاطين سلطة حقيقية على لبنان ابدا ، وولاتهم لم يثبتوا في العراق الا منذ بضع عشرات من السنين،في حين نشأت الطائفة اليونانية الكاثوليكية والارثوذكسية منذ الحكم البيزنطي . كان الحكم اليوناني في البدء سياسيا ودينيا . اختفى الحكم اليوناني عند الفتح العربي ولكن منصب كبير الكهنه استمر في ظل الحكم العربي في يداليونانيين ،واستمر في عهد الاتراك ونراه يتراجع في هذه الايام امام الغزو الروسي ويقظة القومية

العربية . على الرغم من خلاص الارثوذكس العرب من نير اليونان فانهم حافظوا على كثير من سمات استعبادهم : فهم يتلون قسما كبيرا من الصلوات باليونانية دون ان يفقهوا منها شيئا ، وينشدون تراتيل مزاميرهم باليونانية ويلفظونها بالعربية ، ويبدأون اللحن باناشيد عربية على الطريقة اليونانية التي تتلاءم معها قليلا او كثيرا .

اليونانيون الملكانيون الكاثوليك

بالرغم من ان اليونانيين الملكانيين الكاثوليك مستقلون تماما ، وعلى الرغم من ان كهنتهم وطنيون فانهم يبدون وكأنهم يحتفظون بذكرى غالية لاطول عبودية واشدهاخجلا؛ان الارثوذكس العرب يتلون الصلاة باليونانية ويقيمون حفلاتهم الكبرى برطانة يونانية عربية . فبمقدار ما هي منفرة تشهد علنا على انحطاط عرب المدن السورية [بسبب] الاضطهاد اليوناني الشرقي . ويقيم اليونانيون الاثينيون في موازاة كنائسهم ، مقاعد متنوعة غير مناسبة البته ، تضطرك ان تجلس اثناء الصلوات في اوضاع لا تجرؤ عليها في مقهى شعبي . لم يجهد الكهنة اليونانيون انفسهم ابدا في التبشير وفي خلق بعثات اسوة بالكاثوليك والبروتستانت ، لقد تبعوا دائما الغزاة البيزنطيين والاتراك . لهذا لم تنتشر الطائفة اليونانية الا في المدن السورية فقط . وبعض اليونان الكاثوليك او الارثوذكس الذين نصادفهم على تخوم لبنان هم لاجئون فرارا من العذاب التركي واليوناني اذ ليس ببعيد ان يضطهد اليونان الكاثوليك بسبب تحولهم . بعد تدخل الاتراك والشراكسة في شؤ ون خلفاء بغداد والقاهرة تأجج التعصب الاسلامي كثيرا ضد مسيحيي فلسطين مسرح الحروب الصليبية - حتى انه توجب على الكهنة على اختلافهم وعلى مسيحيي البلاد ان يتخلوا عن ديارهم ويقيموا في مكان آخر .

القديس فرانسوا الاسيز[1]

في مطلع القرن الثالث عشر كابد القديس فرانسوا الاسيز المخاطر وذهب ليؤسس اديرة للبعثات المكلفة بحماية الاماكن المسيحية المقدسة ولاستضافة الحجاج الوافدين الى القدس . لقد تشكلت شيئا فشيئا حول الاديرة رعويات كاثوليكية ، لم يكن لها كهنة اخرون لخدمتها ، فتبنوا بالضرورة مذهب الفرنسيسكان او مذهب اللاتين .

استمرت كوستودي ، في الارض المقدسة ، تهتم بخدمة الرعوية المحلية حتى سنة ١٨٤٨ ب م في .هذا العهد ، اسس بيوس التاسع البطريركية اللاتينية في القدس،وجعل ابرشيتها فلسطين بحدودها الطبيعية كما درسناها من قبل ، وأراد البابا اعفاء الفرنسيسكان من خدمة البعثات التي كانت خارج صلاحياتهم ، ليعطيها امتدادا اكثر ويعهد بها الى بطريرك خاص ؛ وعرفانا للجميل الذي تركته كوستودي في الارض المقدسة حفظ لها الكرسي الرسولي الرعويات التي كانت تهتم من قبل ، كمدن يافا والرملة وعكا والناصرة على ان يتبع خدم الرعويات [بصفتهم رجال دين] الاب العام الاعلى وبصفتهم خوارنة بطريرك اللاتين في القدس . منذ ذلك الحين وبفضل تعاون رجال الدين المتفانين الذين خفوا من فرنسا والمانيا وايطاليا ، افتتح البطريرك الجديد شيئا فشيئا ارساليات جديدة ، نجحت في احداث عدة تحولات من ناحية الحجم ، فتعاظم اثرها حتى سنة ١٨٩٣،وهو التاريخ الذي فرضت فيه عدة قواعد وقوانين مزعجة ، شلت قدرتها .

شجع هذا النجاح البطريرك ، فوجه جهوده نحو الكاثوليك الشرقيين ، محاولا احتواءهم كما قلنا سابقا ، وهؤلاء [الكاثوليك] الذين واجهوا المصاعب من اختلاف كهنتهم ، ارتموا جماعات في

احضان اللاتين الذين وجدوهم اعلى منهم ، حسب جميع المقاييس ، واغنى واكثر فعلا للخير. وتحركت كذلك البعثات الرسولية في بيروت والموصل وبغداد ولم يستقبح ليون ١٣ رسول الوحدة الكاثوليكية احتواء الكنائس الشرقية من قبل الطائفة اللاتينية .

مؤتمر اشريستيك

لكن الكنهة الشرقيين الذين ادركوا اقفار كنائسهم يوما بعد يوم ، اصبحت مداخيلهم تتناقص بالنسب نفسها ، هؤلاء اعتصبوا ضد اللاتين واثاروا مؤتمر وشريستيك في القدس سنة(١٨٩٣)، وبعد ذلك انتقلوا الى روما ، واقنعوا البابا بمنع اللاتين من استقبال الكاثوليك من الطوائف الشرقية الاخرى في مذهبهم ، ومن قبول الارثوذكس الشرقيين الذين يريدون التحول الى الكثلكة وارسالهم عكس ذلك الى الطائفة المقابلة . ان الحجة الاساسية التي تقدموا بها في هذه المناسبة هي ان اللاتين لا يعرفون لغة البلاد وان مذهبهم بعيد جدا عن المذهب الذي يريدون اعتناقه وبالتالي يريدون ان تتحول كل طائفة منشقة الى الطائفة التي تقابلها . فاقتنع ليون ١٣ واصدر براءة بابوية ترضي تماما الشرقيين . منذ ذلك الحين توقف تقدم اللاتين ، فجأة بينما اصبحت الانشقاقات بين الشرقيين شائعة جدا . وهكذا كانت النتيجة مخيبة . لقد عرف ليون ١٣ خطأه قبل موته فصرح لاب بيروتي انه خدع . إني اجهل من اي وجهة خدع ليون ١٣ ، هل اراد ان يحتوي اللاتين كل الكنائس الشرقية ام انه اراد وحدة الجميع في طائفة واحدة فقط؟ لا يحتج احد من الشرقيين على غزو اللاتين طالما انه يشعر بضرورة الاتحاد مهما كانت قوته . ولكن الكهنة وحدهم دون رضى الشعب يتطلبون اتباع مقاييس محافظة بغية ان يمنحوا قسما من العائدات التي ترسل الى البعثات اللاتينية .

المذهب الكاثوليكي العربي

الا انـه ليس ممكنـا الرجـوع عن مرسـوم ليون ١٣ في يومنا الحاضر دون إثارة معارضة الذين تضرروا ماديا من الحالة الراهنة يعني القسم الاعظم من كبار الكهنة الشرقيين . وليس منطقيا من جهة اخرى ان تلغى مذاهب قديمة لم يعد يفهمها الشعب ليحل مكانها مذهب لاتيني لا يعرفه الشعب ابدا . وليس من شيء اكثر توافقا مع طموحات الامة واسهل من خلق مذهب قومي عربي تتلى بموجبه الصلوات كلها بالعربية لابعاد اليونانيين واللاتين والسريان والكلدان . واي ضير يتأتى من ان تصبح اللغة العربية ـ لغة القرآن والاسلام العالمي ـ لغة لمذهب كاثوليكي ؟ وان تؤسس بطريركية خاصة لهذه الكنيسة الجديدة تحتوي كل المذاهب الاخرى في سنوات معدودة ، وتنضم الكنائس الارثوذكسية تلقائيا ايضا لها لانها ستكون مدفوعة بحركة الامة الشاملة . ويتعاطف المسلمون مع المسيحيين ايضا لانهم يرونهم يقتربون منهم من اجل السلام والخير العميم للوطن المشترك ، الوطن العربي . والبابا الذي سينفذ هذا الاصلاح سيكون فاعل الخير لكل الشرق وللكنيسة التي يرئسها . لن تعترضنا مقاومة الكهنة الشرقيين ، لان كل الامة العربية ترغب في هذا التحول ، ولانه يكفي ان تراعى المصلحة الخاصة للذين هيأوا مرسوم سنة ١٨٩٣ حتى لا تبقى [هناك اي] مطالب ونستطيع نحن التأكيد على ان الحبر الذي يجرؤ على الاحتجاج ضد اصلاح خير جدا سينبذ من رعيته .

كنائس الشرق والبروتستانتية .

ولكن يجب استعجال الاصلاح المطروح على بساط البحث قبل

فوات الاوان لانه بعد بضع سنوات سيكون لدى البروتستانت الوقت كي ينتظموا كالكاثوليك ويمركزوا نشاطهم في يد واحدة ويشكلوا مذهبا قوميا عربيا بنظام ديني وطني ، ويبعدوا كل لغة اجنبية .وسيحتوي هذا المذهب ، بعد قليل من الزمن ، كل الكنائس لا فرق بين كاثوليكية منها وارثوذكسية [مع ان هؤلاء] لا يمتاز بعضهم عن البعض الاخر في شيء ، ويفتحون الابواب على مصاريعها امام الفارين من جميع المذاهب والاديان ، ليصهروهم في الوحدة ذاتها . ومرة اخرى انظر الى اين ادت منفعة بعض المطارنة الشرقيين الشخصية وتردد الكرسي الرسولي في روما ، وقد يصل البروتستانت الى هذه النتيجة بزمن قصير اذا امتلكوا وحدة عمل الكاثوليك ووحدة ادارتهم اذ انهم اغنى منهم واكرم ، وليسوا اقل تضحية ولا اقل ذكاء من الكاثوليك . لقد رأينا قساوسة وطنيين مميزين في لندن ونيويورك وبرلين . لقد تعبت الامة العربية تماما من الانقسامات التي انبعثت من مسائل مذهبية تافهة ، وسترتمي في احضان اول آت شريطة ان يوفر لها الاتحاد والوئام اللذين تحتاج اليهما حاجة ماسة .

الهوامش

١) مدينة ايطالية في مقاطعة بيروس عدد سكانها ٢٤٩٠ نسمة موطن القديس فرنسوا الاسيز

الفصل التاسع

السياسة التركية

تتفاوت الدول الاوروبية بوضوح في تغذية مشاريع السيطرة على امبراطورية السلطان ، وتعمل بصورة مباشرة او غير مباشرة ولكن بكثير من الحيوية والثبات على تحقيق اهدافها . وحده السلطان عبد الحميد سيد هذه الامبراطورية لا يتبع اي مخطط سياسي مرسوم . فهو لا يهتم بجيرانه الا اذا اتى سفراؤهم يتقدمون منه بمطالبهم . ويرى الاجانب يتقاسمون ارثه سلفا دون ان يبدي اي اهتمام .

على كل حال ، يسر سلاطين الاتراك دائما ان تحيط بهم حاشية براقة وان يعيشوا بهدوء في ملذاتهم تاركين [شؤ ون] اداراتهم بين ايدي الجشعين من حاشيتهم التي لا هم لها الا الاثراء والاحتفاظ بالحظوة ، اطول مدة ممكنة . لقد قال مونتسكيو : ان الارهاب مبدأ الحكومة الطاغية ، ونستطيع ان نضيف إليه ايضا المصلحة الشخصية ، فالامناء وخصيان القصر هم الذين يحكمون ، اما الوزراء والموظفون الاخرون فهم صنائعهم . يستطيع احد الامناء المستائين ان يزيل السلطان ويحرر العالم من وجوده الوقح ، لكن هذا المستاء يفضل ان يكبح استياءه ليحتفظ بمركزه . وكذلك يضحي الوزير بوزارته في سبيل مصلحته الشخصية وخاصة مصلحة حاميه التي تمده بثروته الخاصة . ويضحي الولاة والموظفون بمصالح مقاطعاتهم ليكسبوا اعجاب الوزراء

وهكذا دواليك يغني كل واحد باغناء الاعلى منه ، وينوء الشعب الفقير
تحت اثقال نظام الابتزاز و يعطي السلطان عبد الحميد المثل على الرشوة
بنفسه ، فهو يشجع الفسادُ بحصره المنافع والاوسمة في الامناء ، الذين
تتضاعف ثرواتهم بتماديهم في ارهاق كاهل الرعية . ولو استطاع
السلطان ان يبيع امبراطوريته دون ان تتصدى له الدول الاخرى بسبب
خصوماتها مقابل ان تترك له حياته الطويلة الراغدة لفعل . وتعطي
الادارة التركية بكاملها المثل على عصابة من اللصوص يدخلون الى
بستان اثناء غياب مالكه ليقطفوا الاثمار بكسر الاغصان قبل مجيئه .

يعتبر عبد الحميد ، من بين جميع الطغاة الذين سيطروا على
تركيا ، اكثرهم اضراراً ببلاده . لذلك سيكون اخر ملك من السلالة
العثمانية . لقد خسر منذ توليه العرش ، على التوالي ، كلا من رومانيا
(نهائيا) والصرب والجبل الاسود ، وبلغاريا ، ومنطقة كارس ،
وباطوم وقبرص ، ومصر ، وتونس ، ورومانيا الشرقية ، وتساليا ،
وكريت وتشكل هذه البلدان اكثر من نصف الامبراطورية وسيشهد
عبد الحميد تفكك ما تبقى من امبراطوريته قبل وفاته .

خذ الطغاة الاشد لعنة في التاريخ ، واضف اليهم القيصر بورجيا
والامير مكيافيل فلن تحصل على [مثيل] لعبد الحميد . يتهامس الناس
في القسطنطينية وفي يلدز بالذات ، بان اباه ارمني ، كان خادما من قبل
في القصر وان هيئة السلطان الراهن الارمنية - اليهودية تعطي رصيدالهذه
الاشاعة . ولازالة هذه الخرافة ، توجه في مطلع العيد السنوي الرسمي
للامبراطورية، رسالة السلطان عبد المجيد الى الصدر الاعظم محمد
رؤوف باشا معلنا ولادة ابنه عبد الحميد . من المؤكد انه لا يشبه في
شيء عبد المجيد لا خلقا ولاخُلقاً ولا يحبه هذا الاخير الا قليلا . كانت

امه امة شركسية ماتت في ظروف غامضة بعد نفاسها . ربته مرضعة
اظهر لها عقوقه مع انها احبته كطفلها . كان اخوته لأبيه يمقتونه بسبب
خبثه ومزاجه السيء الظن . على كل حال ، ان ابناء السلاطين الاتراك
لامهات متخاصمات عدوات ينشؤ ون عادة على المكيدة والحسد مما يجعل
قلوبهم لا تعرف اللطف والمحبة .

عاش عبد الحميد منطويا على نفسه دون ام او اخوة او اخوات لام
واحدة فيحبهم دون أي تحفظ بينما وجد اخوته عزاء في الحب الاموي .

كان [عبد الحميد] اول من تنبأ بطموح عمه عبد العزيز الى تغيير
نظام الوراثة لصالح ابنه مبدلا النظام [وقضى] بانتقال العرش من
الاب الى الابن بدل انتقاله الى ابن الاخ فهب يحث اخاه مراد ضد
عمه ،وتآمر الاثنان مع مدحت باشا لاغتياله . مع انه في صلب المؤامرة
تجسس الامير حميد لصالح عمه العزيز ضد اخيه مراد . وقبل ان يعتلي
اخوه العرش فكر بالانقلاب عليه لذلك اغدق على مدحت باشا (رتبة)
كبير الوزراء ومنح الحزب الليبرالي عضوا في البرلمان وهو الحزب
القوي جدا في القسطنطينية حينئذ .

استمال (عبد الحميد) بهذه الدسيسة شيخ الاسلام فاعطى شهادة
تثبت جنون السلطان مراد ، وبالتالي ، عدم قدرته على حكم المؤمنين .
استنادا الى هذه الوثيقة الشرعية ، خلع مدحت باشا واصدقاؤه مرادا
الخامس بعد ثلاثة شهور من تسلمه العرش واعلنوا عبد الحميد الثاني
سلطانا على الاتراك . وارضاء لمحازبيه وارساء لخلافته دعا السلطان
الجديد البرلمان للانعقاد واصدر دستورا ليبراليا ووزع مختلف المناصب
في الامبراطورية ، وحالما شعر بانه وطد سلطته ، نفى محازبيه القدماء
الى ولايات بعيدة واحاط نفسه بخدم عديمي الاخلاق اتوا من القوقاز ،

والبوسنه ، وبلغاريا والبلدان الاخرى التي انتزعت من تركيا بموجب اتفاقية برلين . ثم تخلى السلطان الجديد عن كل الذين رفعوه الى العرش مستندا الى هذه العصابات التي اوكل اليها كل الشؤ ون الهامة . وحل البرلمان ، وعلق الدستور ، وباشر نظام الرعب المطلق الذي بدأ منذ ثمانية وعشرين عاما . لقد اعتقل ،ونفى،ورمى في البوسفور ، وسمم او اغتال حسب الاهمية ، كل الناس المشبوهين بالليبرالية او بعلاقتهم بالسلطان المنكود مراد . سجن عبد الحميد ، مراد في قصر منفرد وحرمه من كل الاتصالات مع الخارج ، ووضعه تحت مراقبة شديدة بامرة ضابط تتري قديم اعطاه صلاحيات تامة حول سجينه . لقد مات هذا السلطان التعيس في القسطنطينية ولم يرض عبد الحميد باخراج جثته من السجن الا بعد ان تأكد من ذلك برؤ يته قد مات حقا ،ومنع اي شخص من ان يشارك في دفنه ، ما عدا اربعة او خمسة من الدراويش العميان لضرورة تلاوة الصلوات.ومن الممكن ان يكون عبد الحميد قد دفن اي شخص اخر باسم مراد كي يحل حزبه الذي اصبح مزعجا . ومن الممكن ايضا ان يكون السلطان السابق قد قتل ، او سمم ، منذ زمن طويل ، واعتقد عبد الحميد انه ما زال على قيد الحياة . كل ذلك من اجل تنفيذ بعض الاهداف السرية التي تفرد بوضعها . ان وفاة حسن باشا ، في الوقت المناسب ، بعد وفاة سجينه المنكود مراد منذ بضعة اسابيع ، يفسح المجال لعدة احتمالات . من الطبيعي ، ان تزيد مختلف التدابير السرية التي لجأ اليها السلطان لتوطيد سلطته بعد الغاء الدستور كره الشعب وحث الاهالي على الثأر للذين يختفون في كل يوم . لقد ادرك عبد الحميد الخطر المحدق . فبنى لنفسه قصرا مشرفا على القسطنطينية وقرن الذهب ، وبحر مرمره ، والبوسفور ، والبحر الاسود،لا يعرف احد تصاميمه ، فهو متاهة حقا ،

بسراديبه وغرفه المدرعة حيث يسجن نفسه . وبنى على بعد مائتي متر منه جامعا يتردد اليه ايام الجمعة من كل اسبوع ، ليؤ دي فيه الصلوات التي لا يجب ان يغفل عنها خليفة على حد زعم الناس . وبهذا يذكر بوجوده الممقوت تلك الرعية التي تلعنه الف مرة كل يوم .

الوحش

من هذا الكهف الخفي يحكم هذا الوحش الامبراطورية حيث توجد مراكز الادارة بين يديه وايادي امنائه . لا يهتم بتقارير وزرائه وسفرائه عن القضايا التي تفيد في ازدهار الدولة . ولكنه يمضي كل وقته في دراسة التقارير الطويلة لجواسيسه الذين لا يحصون . ان هؤلاء الناس المحتقرين تم اختيارهم ، وتنظيمهم بذكاء ، حسب جسامة المهمة الموكولة اليهم . يجب ان يتجسس كل خادم على الشخص الذي يخدمه . وبالمقابل على كل شخص ان يتجسس على الخدم الذين يقومون بخدمته . وجميع الخدم يجب ان يتجسسوا على بعضهم البعض ، وهكذا يفعل افراد العائلة المالكة وحتى اولاد السلطان . الويل لمن لا يتجسس ومن لا يعد تقريرا صحيحا كان ام خاطئا ، لا فرق في ذلك ، سيختفي في يوم جميل دون ان يعرف كيف . وبالعكس تنحصر كل المصالح في الذين يعدون اكثر التقارير السرية . وفي خدمة كل من الوزراء والمشيرين وكبار الموظفين ، عشرون من صغار الموظفين لا يعملون سوى الركض طول النهار لاعطاء تقرير في المساء الى رئيسهم عن اعمال الاشخاص الذين تتبعوا حركاتهم ويأخذ الرئيس هذه الاضبارات ويقدمها الى القصر . والشخص الذي يفعل ذلك هو بالذات موضع تجسس على نفس المنوال من قبل زميل له . كل شيء مراقب ومسجل . بطء الشخص المراقب او سرعته اتجاه سيارته ، لون ملابسه ، كآبة وجهه

وفرحه ، اسماء الاشخاص الذين صادفهم وطريقة السلام عليهم . انهم يتجسسون ايضا على عائلته واصدقائه واهله ولقد جهزت فنادق القسطنطينية ايضا بالجواسيس ، وللسفراء والاجانب جاسوسية خاصة . تنجز هذه المهمة بهدوء مما ينشر الرعب بين كل الناس .

تسمم العلماء

يدرس عبد الحميد الاضبارات المقدمة اليه بعناية واذا ظهر له شخص مشبوه امر بالتخلص منه بلا قيد او شرط . في الغد يختفي المنفي التعيس . عندما يكون هذا الشخص معروفا ويؤدي اختفاؤه المفاجىء الغامض الى الاستنكار ، يجري تسميمه بشكل لا يثير اي شك . يحتفظ الطاغي بمسممين محترفين مهرة بتحضير السموم بحيث ان تأثيرها المميت لا يظهر الا بعد اسابيع وشهور . وهكذا اعطى جرثومة السل للمحظي قديما يوسف بك مطران.وقدم بيده علبة السجائر المعدة لنقل السرطان الى المعلم الشهير جمال الدين الافغاني . فمات هذا المنكود بعد وقت قليل بآلام مرعبة ، اذ تآكلت حنجرته وسقف حلقه من جراء هذا الالم الرهيب .

سفالة منذ عهد قريب

يمتلك عبد الحميد الى جانب الجاسوسية الداخلية جهازا آخر للخارج بغية مراقبة اهل ضحاياه . في البلاد التي لجأ اليها الشباب الاتراك ، ورؤساء الاحزاب القومية من ارمن واكراد وعرب والبان . في كل يوم عليهم ان يحملوا اليه تفاصيل ما عملوا وما كتبوا . واذا وجد بين اعدائه المبعدين ، احداً يتفاقم خطره عليه يرسل اليه رجل امن ليسممه.ويقلده وزراؤه وحاشيته في ذلك .

لقد استنبط كاظم ، حاكم القدس ، وسيلة جديدة ليرضي ذوق سيده ، وفي الوقت نفسه ، ليروي غليله الشخصي . هوذا عمله ببساطة اذا كان لا يستطيع تكذيب الفضائح الكاسحة التي تكتبها جريدة « الاخلاص » القاهرية حول تتابع الابتزازات والاختلاس وخرق العدالة وافعال عصابات سعادته ، فبدل ان يقيم دعوى تشهير ضد الجريدة ، تلك التي لا تنقصه المقدرة عليها لو كان صادقا ، حث رئيس محكمة الجنح سرا على توقيع حكم يقضي بقتل الكاتب المفترض لمقالات « الاخلاص » ورمى بهذا الحكم الى رجل امن ارسله الى القاهرة بمهمة المطالبة بالكاتب [الذي ارتكب] الجريمة المزعومة . استعلم الامن العام ، قبل ان يصدق مطالب المبعوث التركي ، وقد فوجىء بعدم امكانية حصول هذه التهمة غير المتقنة ضد شخص عرف بفضله ، فاجيب بان هذا القرار قد اصطنعه رئيس المحكمة سرا ودون دعوى ، وهو بالذات يحتج على عدم صدق [هذا القرار] وقد أرغم عليه تحت تهديدات كاظم بك . يضاف الى ذلك ان هذه السفالة كانت معروفة في البلاد واثارت سخطا كبيرا وخاصة لدى القناصل الاجانب والبطاركة وذوي المكانة ، حتى ان كاظم بك بذل قصارى جهده للانتقال بواسطة التلغرام ، وبفضل مبالغ طائلة أرسلها الى القسطنطينية ليترك مركزه في مقاطعته حيث كان موضع احتقار الجميع وذلك بعد اقل من عشرة ايام . حينئذ وبناء على طلب من المفترى عليه ، فتش رجال الامن المصريون عن الموظف التركي لوضعه في السجن ، بغية اقامة دعوى نظامية . ولكنه هرب عندما لاحظ شك رجل الامن المصري بحقيقة مهمته . وقد علم فيما بعد ، في القاهرة ، ان رسول كاظم بك قد اصطحب اثنين من قطاع طريق يافا وعد كلا منهما بمبلغ الفي فرنك اذا توصل الى القضاء على الشخص المقصود .

نزاهة الحاكم الانكلو - مصري

اذا كانت هذه الحيلة المجرمة قد سرت عبد الحميد فكافأ خادمه كاظم بك بتسميته واليا على حلب ، فهي تفيد على الاقل ، في تبيان العار الذي لحق بالعرب من الموظفين الاتراك والشركس الذين يديرون شؤ ونهم .اما بالنسبة للحاكم المصري فكان يتصرف بنزاهة في القطر التابع لتركيا ، فيسلم دون مباحثات سياسية ، مجرمي الحق العام . انه يرفض منذ الان فصاعدا ان ينفذ اي حكم صدر عن محكمة تركية ، على الاقل ، ان قناصل بريطانيا العظمى لا يريدون ان يكونوا مجرد قضاة مراقبين في جميع جلسات المحاكم .ان الجاسوسية والقضاء على كل الاشخاص الذين يشتبه بتحررهم واستيائهم والمراقبة الدقيقة لكل الذين يمكن ان يظن بتعاطفهم وصداقتهم وقرابتهم للمذكورين هذه الامور كلها قضت على الرغبة بتطبيق القوانين والعدالة لدى ولاة الحكومة التركية . لا يفكر كل فرد من هذا النظام الفاسد الا بسلامته اذا كان ذلك ممكنا وهو مستعد للتضحية ، حتى بعواطفه الحميمة العائلية المقدسة ، من اجل مصلحته الخاصة .

يخصص عبد الحميد اللحظات القليلة الباقية ، بعد السهر على سلامته الشخصية ،بدراسة مصالح الدولة بصفته المالك والمستبد . وبعدما يطمئن الى انه تم اغراق او سجن الذين امر بموتهم او بسجنهم ووضع تحت المراقبة الجيدة الاشخاص المشبوهين ، ولم يعد لدى العارفين من جديد ضد حياته وانه لا يتآمر اي شخص من حاشيته على حياته ولم يتحدث اي خادم في القصر مع آخر لمدة تزيد عن دقيقة ، ولم يزر اي شخص في الامبراطورية زميل له او صديق او سفير دون اذنه ، حينئذ فقط ، يلقي جلالة السلطان وظل الله على الأرض نظرة على

مختلف الشعوب التي يؤلمها ان تستم في ظل استعباده .

ملهاة الاصلاح

إن مبدأ الأتراك الثابت بشأن السياسية الداخلية هو ما يلي : الحفاظ على الوضع الراهن مهما كلف الامر ، وعدم القيام بالاصلاحات [اكراما] لاوروبا الا في الحالات القصوى واعداد التدابير ، كي تصبح هذه الاصلاحات تافهة اولا وباطلة فيما بعد . مثل على ذلك انشئت محاكم تتألف من رئيس يعينه الوالي وقضاة منتخبين يختارون في كل ناحية قضائية ، ولكن في حين اعطي القضاة المنتخبون اربعين فرنكا كمرتب في الشهر ، اعطي الرئيس مئتي فرنك واعطي الوالي التركي دائما صلاحيات غير محدودة فوق سلطة المحكمة . فالقضاة قد تحكم بهم الرئيس الذي يتساهل بابتزاز المتقاضين لتأمين حياة القضاة ، والمحكمة كلها بالتالي قد تحكم بها الوالي . هناك امثلة اخرى ايضا ، لقد انشىء جهاز امن ودرك ولكن على رجال الامن والدرك ان يتفقوا مع اللصوص والقتلة حتى لا يموتوا جوعا ،ولقد عين نواب مسيحيون للولاة الاتراك ، ولكنهم اختيروا من بين الجواسيس ، واذا كانوا من الشرفاء لا يسمح لهم بالعمل ويجري ارهابهم بالجاسوسية . صدر قانون المساواة المدنية السياسية ولكن لا يستطيع اي عربي مسلم ان يصبح شيخا للاسلام او وزيرا ذا وزارة او واليا في مقاطعة او ضابطا في الجيش ، ان اربعة او خمسة من العرب الذين يتمتعون بنفوذ لدى السلطان هم من سفالة الجواسيس ، لا يحكم اي منهم ولا يستطيع حضور مجلس الوزراء ، واذا اظهر كبار الموظفين من الاتراك والشراكسة الذين يمقتونهم احتراما لهم انما يفعلون ذلك لشكهم في تقاريرهم . وعلى كل حال ، لا يحتفظ هؤلاء التعساء بمراكزهم التي لا يحسدون عليها الا اذا دفعوا ، من وقت

لآخر ، مبالغ طائلة لامناء السلطان ومساعديه من الشركس والتتر ، وقدموا الهدايا الثمينة في مختلف المناسبات لجلالته . واخيرا ، اعدت اصلاحات في مقدونيا استجابة لاوامر الدول ، واسست قوة درك دولية ، ولكن اسيء الى الالبان عمدا لاحداث ثورة تظهر لاوروبا إن هذه الاصلاحات لا تجدي وانها في غير اوانها .

الوعود الخلابة

اهتم عبد الحميد قليلا بلعبة الدول في الائتلاف الاوروبي . ولم يلاحظ رغباتهم واطماعهم ومشاريعهم ومخططاتهم . لم يحاول ابدا منع مطالبهم بالتدخل صراحة في المستقبل لهذا السبب او ذاك . لقد بقي غريبا تماما عما يجري في اوروبا . يعتذر لنفسه ولرعيته محتجا بأن انقسام اوروبا الشديد يحول دون تدخلها لاقتسام امبراطوريته . ولا يتعلم من عبر التاريخ : عندما يطالبه احد السفراء [نراه] على التوالي يسترضي ويسوف ويراوغ ويكذب ، ويخادع . واذا لم يجد مفرا من ذلك يرتمي في احضان السفير الخصم ، فيحاول الاستفادة بمختلف الوعود الخلابة وكل انواع الادعاءات . اذا لم ينفع هذا الاسلوب يخضع ، مع تصميم مسبق بالتراجع عن كلامه . ثم يدعو السفير الرافض الى غداء مصالحة ، يمنحه وساما ويؤكد له اسفه لسوء التفاهم ، ويتمسك بصداقته التي لا تفسد للبلد الذي يمثل ، وقد عزا اقتناعه السابق للمعلومات الخاطئة التي اتته من وزرائه .

تظاهرة ميتلين

روى لي القنصل العام لاحد الدول الكبرى في مناستر ان القناصل العامين في المدينة كانوا اثناء الحرب التركية اليونانية ، يذهبون

الى الحاكم العام لمقاطعة البانيا ومقدونيا سعادة الجنرال عبد الكريم باشا ، ليجدوا لديه اخبار الحرب ، بهدف نقلها مباشرة الى حكوماتهم . قال الباشا التركي اثناء استقباله بحرارة لقنصل ايطاليا العام : « انت تعلم انك صديقي واني احبك كأخي ، لذلك ارجوك ان لا تردد امام زملائك وهم كلهم « بزونكية[1] ما سوف اسره لك [بعامل الصداقة] » وقد ردد هذا المثل الكبير الكلام ذاته حرفيا امام جميع القناصل الاخرين كل على حده .

هذا هو تكتيك السلطان والوزراء والولاة الاتراك في القسطنطينية والمقاطعات.ويستفيد عبد الحميد من سياسة اللعب على الحبلين . ولكن لسوء حظه ارسلت الجمهورية الفرنسية سفيرا هو السيد كونستانس ، الذي تفاهم مع زملائه الاجانب على ان هذه المنافسات تضربهم جميعاً ولا يستفيد منها الا السلطان المنافق ، وبالعكس كان من المتفق عليه ان كل افضلية يحصل عليها سفير يستفيد منها تلقائيا الاخرون تبعا للمبدأ ان كل دولة في سلم مع تركيا يجب ان تتمتع بكل الامتيازات المعترف بها لصالح الامة الاكثررعاية ،وعلى السفراء ان يساند بعضهم البعض الاخر او على الاقل ان لا يخلقوا لبعضهم العراقيل . ولقد دشن كونستانس بنفسه هذا التفاهم الودي بين ممثلي الدول الاجنبية في القسطنطينية بمظاهرة ميتلن الصاخبة : لقد رفض عبد الحميد ان يمنح سفير الجمهورية شيئا . فضحك بملء رئتيه من تهديداته ، يقول الاتراك : ماذا تستطيع فرنسا ان تعمل لنا ، ان مساعيها محكوم عليها بالفشل بسبب التحالف الثلاثي . ولكن السيد كونستانس اراه خطأه . فغادر القسطنطينية علنا ناعتا السلطان بالكذاب . لقد كانت هذه اول رفسة ينالها التركي الاكبر ، وسيتلقى مثلها بالتتابع من جميع السفراء المعتمدين

لدى عظمته ، لقد اهملته جميع الدول ، ولم تجده توسلاته وحبائله فطأطأ عبد الحميد رأسه امام حماس السفير الجمهوري .

مثل لم يسبق له مثيل

ان رضى السلطان بعودة السفير الى القسطنطينية ، وهو الذي تطاول عليه رسميا،اذلال ليس بعده اذلال ، ولم يسبق له مثيل في التاريخ السياسي ، ان لم يكن منذ زمن الرومانيين . لقد عاد يعامله كسابق عهده به ، اي رفعة لا يمتلكها السيد كونستانس على عبد الحميد في مقابلته له ، عندما يضطر السلطان الى استقبال انسان هدده ، واهانه ، واضطره للتراجع ، وبعد ذلك يدعوه الى المائدة لطعام معه ،وكيف لا تتملكه الرفعة اثناء وجوده ، بالتأكيد لم تفرض فرنسا عودة السيد كونستانس اذ لم يطلب عبد الحميد بنفسه عودة منير بك الى باريس لقد قدم هذه التضحية المذلة لا لسبب الا لانه يعتقد بفائدة منير بك لمواجهة الاتراك الشباب اللاجئين . منذ ذلك الوقت ، اطلقت يد هذا الاخير بتعيينه وزيرا في برن ، وبروكسل ، في الوقت نفسه . ولكن جلالة الملك ليبولد رفض الاعتراف به كممثل السلطان وهو الذي يعرفه حق المعرفة .

ركلة عرجاء للسلطان

افاد نصر سفير الجمهورية جميع الدول لانه اكثر ، تبعا للمبدأ المذكور سابقا ، من الغاء الفرمانات المتعلقة بالمدارس والمؤسسات الخيرية في تركيا . بعد رفسة السيد كونستانس تلقى عبد الحميد ركلة عرجاء من الامبراطور غليوم . ففي حزيران من سنة ١٩٠٢ وبعد حادث كنيسة القيامة وعد الالمان والايطاليين بمحاكمة اليونان من

العثمانيين ، الذين جرحوا الاباء الفرنسيسكان الالمان والايطاليين ، امام محكمة محلية ، تحت مراقبة القنصليات الخاصة . اخذت الدعوى مجراها وكاد الآباء اليونان يدانون عندما قبض كاظم بك حاكم القدس ، وترجمانه بشارة حبيب ، مبلغ عشرين الف فرنك ، فارسل مذكرات احضار للفرنسيسكان الالمان والايطاليين انفسهم للمثول امام المحكمة بتهمة جرح الاباء اليونان في الدعوى موضوع الاجراء . لقد كان ذلك انتهاكا فاحشا لاصول القوانين البديهية . لا يستطيع مقترف الجريمة او الذنب من اقامة دعوى ضد متهمه قبل اصدار الحكم . ابتغى كاظم بك ورفيقه من ذلك تشويش المرافعات وخلق مصدر للمدخول . زار القنصل العام الايطالي السيد كارلي كاظم بك الذي من الطبيعي ان لا يستقبله بحجة وعكة الم به في هذا الظرف ، لكنه ارسل اليه ترجمانه بشارة حبيب . انف السيد كارلتي من السلام على هذا الاخير فاندفع في الصراخ وبغضب شديدقال«انتم اوغاد، ما اتيتم به مخجل! هذه دناءة؟ هذه دناءة كبيرة ؟ انتم مرتشون انتم بؤساء ! انتظر كاظم ، وسكت بشارة لعدم جرأته على المواجهة بعد هذا المشهد الذي لم يحدث اي اثر على الوالي ، ذهب ليقدم تقريرا عن زيارته لزميله الالماني السيد اشميدت، الذي اتى بدوره يصوغ المطالب نفسها ولكن بعبارات اشد برودة ولكنها تماثلها في القساوة . تظاهر كاظم بك انه لا يعلق اهمية عليها . حينئذ ابرق القنصل العام الالماني الى السيد بيبرستن سفيره في القسطنطينية . فانتقل بيبرستن الى القصر وطلب اعطاء تفسيرات . ولكن الاتراك ، الذين لا يصادقون الا [بقصد] الاستغلال ، حاولوا ان يصرفوا السيد بيبرستن . حسبوا الركلة العرجاء بعد رفسة السيد كونستانس امرا كبيرا جدا ، فابرق ممثل غليوم الثاني الى عاهله يرجوه ان يترك له حرية التصرف . بعد لحظات ابرق السيد بيبرستن بالعجالة

التالية : «اذهب الى الوالي واعلمه انه اذا لم يتلف خلال ساعة مذكرات الجلب بحق الفرنسيسكان الالمان ستترك القدس ، وانا سأنسحب من القسطنطينية » . قابل السيد اشميدت كاظم بك حاملا هذه البرقية التي لم يزد عليها شيئا. شحب لون كاظم فجأة واجاب كاظما غيظه : «حسنا ايها السيد القنصل العام ، عد الي بعد ساعة . » واجابه السيد اشميدت ـ «لا ، افضل انتظارك في ديوان سعادتكم ، لانه لا متسع لي من الوقت كي اذهب الى بيتي واعود منه . » بعد لحظات نقلت الى كاظم برقية من يلدز بارضاء القنصل الالماني خوفا من حرب هذه الدولة .

تسويف الماني

بعد ما اعاد كاظم بك وشريكه بشارة حبيب مبلغ العشرين الف فرنك الى اليونانيين ومزق كل الاضبارات المزورة للفرنسيسكان من المان وطليان ذهبا للاعتذار من السيد اشميدت وكارلتي مؤكدين انهما لم يفعلا ذلك الا تحت تهديد روسيا وفرنسا . ورجوهما تزويدهما ببراءة بهدف اظهارها في القسطنطينية على ان الحادث انتهى بما يرضيهما تماما ، لقد رفض القنصل العام الالماني بأدب ، معطيا وعدا غامضا على غرار : بكالوم في التركية . بينما رق قلب كارلتي لتوسلات من عامله كوغد ، ومنح الوشاح الاكبر من السان ـ موريس لازار .

الحماية الاميركية

لقد ذل عبد الحميد من جديد امام السيد ليشمان الوزير المفوض للولايات المتحدة الاميركية الشمالية في القسطنطينية وذلك بعد الدرس الذي لقنه اياه الالمان. ولقد روينا سابقا كيف تدخل الاسطول البحري الاميركي في اضطرابات بيروت الاخيرة. ومن المعروف كيف رفض السيد

ليشمان مؤخرا التعامل مع يلدز اذا لم تلب مطالبه خلال ثمان واربعين ساعة الا وهي : الاعتراف بالجنسية الاميركية لكل الارمن العائدين من اميركا والاعتراف بالحماية الاميركية للارساليات والبروتستانت الارمن ودفع تعويض كبير جدا لامرأة القنصل العام الاميركي للولايات المتحدة الاميركية في سيمرن . ثم انتظر الأسطول البحري في المرفأ حتى انتهاء المهلة لانزال القوات فيه . وبعدما عجز السلطان عن تأييد بقية الدول لصالحه انصاع وعقد صلحا مع السيد ليشمان دعاه الى غذاء خاص حيث قدم له اعتذاراته . لقد اقتنع كل السفراء في القسطنطينية من التجربة الطويلة ان الاتراك لا يحترمون القسم ، والمعاهدات والوعود ، والعدالة ، والقانون ولكنهم يحترمون العصا . وبينما كان يونانيو القسطنطينية يهتفون : عاش السلطان «Zeto Saltanos» اثناء مجازر الارمن في هذه المدينة كانت اعداد كبيرة من اليونانيين تتجند في الافواج التركية لتقاتل عصابات البلغار في مقدونيا ، في الوقت الذي اعلنت فيه دولة اليونان بصراحة موقفها ضد روسيا في البلقان وآسيا الصغرى ، عاقدة حلفا مع عبد الحميد الذي منح جلالة الملك جورج امتيازا ، مما جعله يقيد في نيسان الاخير مساعد القنصلية اليونانية العامة في سميرن وينزع العدة من سيارة القنصل العام . حقا ، ان تهديداً بقطع العلاقات مع السلطان ، من جانب دولة اليونان ، عقب حرب ١٨٩٧ لا يخيف . ولكن ما ان تحاول اليونان التقارب مع دول البلقان المتاخمة لمقدونيا ، او ما ان تشجع الحزب القومي الالباني ، حتى يجثو عبد الحميد عند اقدامها .

السيد بورس صارافون

يتغطرس الاتراك امام رعاياهم بقدر ما ينحنون امام الاجانب القادرين على ازعاجهم . لا مكان للمستائين الذين يطالبون

بالاصلاحات في تركيا ، حيث لا يجهدون النفس في التفريق بين
الابرياء والمجرمين . عندما اكتشفت روسيا بعض الحركات الانشقاقية
في فنلنداوبولونيا القت القبض على زعماء الحزب وابعدتهم ، ولكنها
تحترم الاطفال والنساء . والعكس بالعكس ، تمارس القبائل البربرية
المتدفقة من تركستان الى آسيا الصغرى ، الثأر ضد الحوامل والرضع .
لقد ذبح عبد الحميد خمساية الف ارمني من كل الاعمار ومن الجنسين
لانه لم يستطع القاء القبض على بضعة اشخاص يؤسسون الحزب
القومي الارمني في باريس ، ولندن ونيويورك . ولقد سلب الكنائس
ودمر القرى لانه لم يستطع القاء القبض على السيد « بورس
صارافون » وبقية رؤساء الحركة المقدونية .

العربية لغة السماء

تتألف الامبراطورية التركية من عناصر مختلفة ، تجمعها وتفرقها
حدود طبيعية وكلها تتحمل بفارغ الصبر استعباد الطاغية . ينتشر
العرب ، وهم الذين يؤلفون اضخم مجموعة عنصرية في الدولة
التركية ، بين برزخ السويس ووادي دجلة والفرات وبين البحر
الابيض المتوسط وبحر عمان ، وينتشر الاكراد والارمن والاتراك
والالبان واليونان في جميع جزر الارخبيل . لا تختلط الاجناس قليلا الا
في مقدونيا ولهذا يقال تتشابك الواحدة مع الاخرى . تمقت كل
الاجناس الاتراك حتى الموت . وهم يعرفون مشاعر البلغار ،

والعرب ، والالبان ، واليونان ، والارمن تجاههم. وتظهر اغنية قومية
كردية مدى محبتهم في جبال كردستان ، يقول الشاعر: «لا ينبش ابن آوى
سوف الجيف ، لانه يحترم الحياة ،

لكن الباشا التركي لا يلغ الا بدماء الشباب .
يبعد الشاب عن خطيبته .
اللعنة على من يفصل قلبين تحابا ،
لن يحتضن اللحد امواتهم
لكن سيسمع الملاك الاعلى صرختنا »

ويحتقر العرب الأتراك ويحقدون عليهم ويردد هؤلاء على
مسمع الاتراك « النبي عربي ،والقرآن عربي ولغة السماء عربية » .
يوجد مقطع قرآني يرغب الاتراك بمحوه يقول الملاك جبريل: « قطعت
الارض قاطبة من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق ولم اجد
شعبا انبل واشرف من العرب . »[٢] ليس انأى عن السيطرة التركية من
شعب حر وفخور ، امكن لجغرافي فرنسي ان يتحدث عنه بما يلي : يقول
اليزا سركيس : « يحرص عربي السهوب والنفود ونجد على نقاوة الدم
كحرصه على دم الفرس . بسيط جدا في ممارساته وفي لغته ، وليس اقل
شرفه الاعتزاز بالاصالة ، إنه فخور بالدم الازرق الذي يجري في
العروق منذ ما قبل التاريخ . لم يتحمل الاستعباد مطلقا كبقية
الشعوب ، ليس له مثيل بين الأمم في تنعمه بالحرية منذ عهود متقادمة .
ومنذ الاف الاف السنين واسلافهم يستقرئون الوحدة كما يفعلون هم
اليوم . انهم ينتشون من الجري في الفضاء الرحب . كيف لا يحتقر اهل
الخيمة ،اهل الوبر واللباد كما نسميهم ،سكان المدينة الهيابين ، اهل الطين
الحزين . الا انهم يضمرون كل الحقد للاتراك الذين يطمحون الى
السيطرة ويريدون اجبارهم على دفع الضريبة ؛ان التركي هو العدو » .
ولم تخضع جميع هذه الامم ، وكل منها على حدة اقوى واكثر
عددا من الاتراك ، الا لأنها ارهقت بالبؤس والجهالة . سلبت كل

وسيلة للتثقيف والازدهار ومنعت دائما من الاتصال بعضها بالبعض الآخر . منذ ان اغتصب الاتراك الخلافة اضاعت هذه الشعوب وعيها لقومياتها وسربلتها الجهالة في عبودية واحدة . ان العرب الذين اعطوا دفعا كبيرا للآداب والعلوم والذين ابدعوا شعراء ومؤرخين وفلاسفة وعلماء كثيرين في سنوات معدودة ، هؤلاء لم يكتبوا شيئا منذ خضوعهم للاتراك .

لا يجب الاعتقاد ان هذه القبائل المتوحشة الاتية من اواسط آسيا قد قهرت العرب بقوة السلاح . لا ، لم تنجح في السيطرة عليهم الا باعتناق الاسلام والدخول الى بلاطات بغداد ودمشق والقاهرة خلف بناتهم ونسائهم اللواتي ابتعن كإماء . وفي زمن متأخر استطاع الاتراك فتح البلقان والعسكرة عند اسوار فينا بفضل كفاءة الجنود العرب . عندما يواجه جيش عربي جيشا تركيا يكون الاتراك هم المنهزمين . انتصرت على الاتراك جيوش ابراهيم باشا في المعارك الثلاث الكبرى : حمص وبيلان وقونية سنة ١٨٣٣ ، وفي نزيب وأباد جيش سوري مؤلف من اربعين الف رجل قائده ابن محمد علي جيشاً تركيا من مائة وعشرين الف تركي يقودهم حافظ باشا وضابط الماني اصبح فيما بعد المشير « ملتق » سنة ١٨٣٩ . هؤلاء العرب هم الذين اوقفوا الروس عند كرس وبلينا بالرغم من خيانة جنرالات الاتراك الذين باعوا انفسهم الى روسيا لقاء بضعة الآف من الروبلات . لقد كنا اسودا بقيادة كلاب هكذا قال الفلاحون العرب الذين شاركوا في هذه الحرب .

في اليوم الذي تعي فيه هذه الامم شخصيتها ستنفصل عن تركيا من تلقاء ذاتها كالاثمار الناضجة التي تتساقط عن الشجرة . لقد ادرك الاتراك ذلك فاستخدموا دائما الجهالة والتجزئة للحفاظ على سلطتهم .

رغم ان الاتراك يضطهدون المسلمين العرب اكثر من اضطهادهم المسيحيين الا انهم يحرضون اولئك على هؤلاء . وهم يستندون الى الكهنة اليونان فيثيرون الارثوذكس ضد الكاثوليك بهدف الهاء الشعوب ، وتحويل انتباهها عن الطغيان . ولقد جانبت اوروبا ، الحقيقة لاعتقادها بوجود التعصب الديني ، في حين انه لا وجود للتعصب الديني ابدا بين المسلمين ، العكس بالعكس ، لقد امر محمد بالتسامح . واستطاعت تركيا اذكاء التعصب بايقاظ غرائز قطاع الطرق وهي الغرائز الملازمة للطبقات الدنيا في جميع البلدان ، حتى ان حكومة فرنسا قالت لاشقياء باريس : « يحل لكم نهب بيوت اغنياء الكاثوليك في المدينة واغتصاب نسوتها وفتياتها » . وتصبح العاصمة الفرنسية ، بالتالي ، مسرحا لفظائع ارمينيا ، وتتجدد الفظائع نفسها في مدينة النور ، بعد ستة شهور بمنح الافراد الحرية نفسها ضد البروتستانت .

استقلال اليونان

اعطت يقظة القومية اليونانية اشارة الاستقلال الى جميع الشعوب الاخرى في تركيا الاوروبية : الى الرومان ، والصرب ، والجبل الاسود ، والبلغار ، والالبان ، وبعثت مطالب الارمن القومية في آسيا ، المشاعر القومية الخاصة في الاكراد والعرب . يجهد عبد الحميد نفسه بكبح يقظة الامم بواسطة المجازر بعدما ادرك نتائجها في آسيا . لكنه سيصل الى عكس هدفه لانه بدل ان يمنع ما لا يمكن تجنبه سيجعل ثورة هذه الامم اعنف بالعنف الذي يستخدمه لاطفائها . لان استمرار شعوب كبيرة بالخضوع لعصابة من البرابرة لا ماض لها ولا تقاليد يعتبر ضد قوانين التاريخ . ونستطيع القول ان حكم عبد الحميد سيؤشر [بدء] عهد استقلال الأمم وتفكك تركيا .

لقد حاول عبد الحميد ان يسحق نهوض البلغار والبوسنة . بمجازر رهيبة لكن وحشيته كلها لم تنته الا بالمعاهدة المذلة في سان - استفانو San Estefano التي كرست استقلال جميع الشعوب في الجزء الاوروبي من امبراطوريته . لقد اراد ان يخضع الالبان للخدمة العسكرية ، فاصبحوا اكثر استقلالا من قبل . كما قادت وحشيته الى خسارة كريت . واخيرا اراد ان يفني الارمن بواسطة الاكراد ، لكن هؤلاء وهم على تماس بضحاياهم تذكروا انفسهم منذ عهد قريب، وقد كانوا احرارا في ظل امير اسمه بدرخان، وفهموا ان افناءهم لجيرانهم الارمن لا يفيد إلا في جعل سلاسل عبوديتهم اثقل . وهكذا من جبال ارمينيا وكردستان اجتاز التيار سهول الفرات ومن هناك انتشر في كل البلدان العربية .

انبعاث اداب العرب

لقد خاف الاتراك دائما من بزوغ الوعي القومي عند العرب اكثر من خوفهم منه لدى الشعوب الاخرى ، اذ انهم يعرفون حق المعرفة ان في اليوم الذي يريد الناطقون بلغة القرآن المتناسقة الانفصال عنهم ، تتداعى امبراطوريتهم كما يتداعى قصر من ورق . فالعرب يؤلفون ، بالتالي ، الركيزة الوحيدة للسيطرة التركية في اسيا واوروبا ، فبالعرب يحتفظ السلطان بالالبان المتحفزين دائما للثورة ، وبالالبان يسحق المقدونيين ، وبالعرب ايضا يروض الاكراد وبالاكراد يذبح الارمن .

من جهة اخرى، يفكر عبد الحميد بدوام حكمه مدة اربعين عاماً كما تنبأ له مشعوذ من حاشيته ، وينتقل العرش بعده الى ابنه ، كما كان يحلم عمه عبد العزيز ، المقتول لهذا السبب فيعتمد على ارهاق العرب

وجهالتهم لتأسيس امبراطورية اسيوية اسلامية متعصبة ، يوم يطرد نهائيا من اوروبا . لهذا السبب يبذل الاتراك جهدهم لمنع تطور التعليم والتجارة والزراعة والصناعة في امبراطوريتهم ، وخاصة في البلدان العربية . لانهم مقتنعون بان هذه الامم على اختلافها ستتحرر من سيطرتهم ، يوم تتعلم وتغنى لتؤسس ممالك مستقلة خاصة بها . وبسبب هذا النظام ، اختفت اللغة العربية من سوريا كما اختفت من مصر . ووقع سكان البلاد الاخيرة خاصة في ظل خبل حيواني وطغيان عصابة من قطاع الطرق الاتراك والشراكسة ، اطلق عليهم اسم المماليك . لقد قدمت مصر كتابات قيمة جدا وبنت جوامع فخمة في ظل الخلفاء العرب ، في الوقت الذي ظهر حدثان سياسيان هامان قلبا مشاريع الاتراك ، نقصد بها الحكم الذاتي في جبل لبنان واستقلال مصر ، حدثان يجب ان نضيف اليهما تأسيس الخدمات الملاحية البخارية المنتظمة بين سوريا ووادي النيل .

خفت البعثات الاجنبية الى جبل لبنان لتفتح فيه مدارس تعلم اللغة العربية وآدابها ، الى جانب الاداب الاجنبية . لقد أبصر النور فيها تلاميذ لم يستخدموا طاقاتهم في ظل الحكومة التركية فوجدوا في مصر مجالا لنشاطهم ، وتفتحت في الوقت نفسه مجالات واسعة للاتصالات بين قطر حر وامة مستعبدة .

لقد راع هذا التقدم الاتراك ، فحاولوا عرقلة نشاط البعثات بعدد من القوانين والنظم ، ولكن احدا لا يستطيع ايقاف اندفاع رسل الحضارة . حينئذ منع الاتراك المسلمين من ارسال اطفالهم الى مدارس « الكلاب المسيحيين » لا خوفا من تغيير دينهم كما يدعون بل خوفا من ان تعي القومية العربية ذاتها بجميع اجزائها . كما اكتشف المسلمون

العرب هذه المكيدة واجابوا بلغة حازمة : « نحن لا نستطيع ترك اطفالنا في الجهالة ، بينما اطفال اخواننا المسيحيين يترددون الى المدارس ، اذا كنتم حريصين على ان لا نرسل اطفالنا الى الارساليات المسيحية فافتحوا لنا مدارس مناسبة » . افحمت هذه الحجة عبد الحميد فاوجد ضريبة على المسلمين وزعم انها لصيانة المدارس التي فتحها بذهنية رجعية . لكن العرب لا يريدونها قط ، اولا لانها لا تدرس اللغات الاجنبية وثانيا لا يشكل تعليم اللغة العربية فيها الا حيزا ثانويا ، بينما كانت اللغة التركية في المرتبة الاولى ، واخيرا لانها لا تعلم سوى فساد الاخلاق . بالطبع زاد محصول الضرائب التي فرضت لمصلحة المدارس على عشرين ضعفا عن مصروف صيانة الابنية القذرة والاساتذة الجهلة الاجلاف الفسقة الذين تدفع رواتبهم بمشقة . لكل هذه الاسباب استمر العرب بارسال اطفالهم الى مدارس المسيحيين . سارع عبد الحميد الى اتخاذ التدابير الضرورية للحد من التقدم ، بسبب تزايد التعليم وحب العمل والرفاهية في البلدان العربية فابعد عن امبراطوريته جميع الذين وعوا افكار الحضارة الاوروبية ، وسجل باسمه كل الارض غير المزروعة، القابلة للاستثمار كي تبقى غير منتجة ، وحذر على جميع العثمانيين انشاء الشركات التجارية المغفلة كما منع المسلمين العرب من تأسيس الجمعيات الخيرية ، ولما حاول اعيان المسلمين من يافا ايجاد مؤسسة من هذا النوع عنفوا ، لقد اراد جلالته تعميم هذا الحذر على المسيحيين اذا كان هؤلاء لا يجتمعون في بيت كاهن او في دير حيث ينعمون بحماية معترف بها كالاماكن المحمية من قبل فرنسا واوروبا .

العزلة السياسية

يفرض عبد الحميد حجرا على المسافرين والبضائع القادمة من

مصر ، لمنع العرب الاحرار في مصر من الاتيان الى سوريا بافكارهم الحرة ، لقضاء الصيف فيها . وللحقيقة ان السلطان لم يفرض حجرا ورقابة طبية على الآتين من مصر سنة ١٨٩٨ عندما اتى الامبراطور غليوم لزيارة فلسطين وقد هدف الى عدم تعكير رحلة الالمان والسائحين ذوي المكانة الذين ارادوا الانتقال الى القدس قبل القيصر ام في الوقت نفسه . وكذلك عندما اعربت الملكة البرتغالية رغبتها في الحج الى القدس ، سنة ١٩٠٣ بينما كانت تقضي فصل الشتاء في القاهرة ، في ذلك الحين الغى عبد الحميد ضرورة التوقف اربعة ايام بالنسبة للمراكب الآتية من مصر . وما ان اعلنت السيدة الملكة عدولها عن القيام بالرحلة حتى اعاد مباشرة كل التدابير الصحية ضد طاعون الافكار الحرة والحضارة الانكلو- مصرية . على كل حال ، عندما اجتاح الهواء الاصفر وادي النيل بقيت التدابير العادية غير فعالة واستوفى كاظم بك ، سنة ١٩٠٢ رسما كله تعسف على كل انسان او حيوان قبل الموافقة على مروره دون حجز او تعقيم . فجرت رشوة هذا الحاكم على البلاد وباء رهيبا اتى على اكثر من عشرين الف ضحية .

الاتقان الفينيقي

ولشتى الحجج منع سكان صور ، وعكا ، والقدس ، وطبريا وغيرها من تشييد بيوت خارج خرائب الاسوار القديمة لهذه المدن مما يضطرهم للاعتصام في ساحة ضيقة ، حيث يسكنون في اكواخ غير صحية . ويمنع ايضا على قاطني صور ، والقدس ، وهم الذين بحاجة الى المياه فتح اكتتابات شعبية وايجاد مشاريع خاصة لجر المياه من الينابيع المجاورة . لقد رفض الحاكم هبات الكرماء المتجردين ، من محسنين اجانب ، تبرعوا بتأمين المال الضروري لهذه الانشاءات . ويوجد على

بعد ثلاث كيلومترات من صور ، بشكل خاص ، اربعة ينابيع غزيرة صافية المياه ، جرها الفينيقيون القدماء بقناطر رائعة يتراوح طولها بين سبعة وثمانية كيلومتر ما زالت حتى يومنا الحاضر . يكفي اصلاحها قليلا لتصبح صالحة لايصال المياه الى المدينة الراهنة . ولا يريد الحاكم تحمل مسؤ ولية اصلاحها ولا السماح للاهالي بتنفيذها بانفسهم .

الاوقاف

في جميع المدن التركية وفي البلدان العربية ، خاصة ، ارزاق وقف هائلة يجب ان تصرف عائداتها على صيانة المدارس والجوامع ، وجميع وجوه الخير . يجبي عبد الحميد كل هذه الموارد ويترك الجوامع خرابا والمؤسسات دون موارد وهكذا تبلغ عائدات مسجد عمر في القدس مبلغ اربع ملايين سنويا لا يكاد يصرف منها خمسة آلاف فرنك ، ويعود الباقي على صندوق امير المؤمنين الخاص ، ويقبض امام هذا المكان المقدس الهام في الاسلام مبلغ اربعين فرنكاً في الشهر الذي يقبض راتبا فيه اي ثلاث او اربع مرات خلال السنة . اعلنت الاراضي المحيطة بالمدن والقرى التركية اراض اميرية « اي تملكها الدولة » ويمنع على اي كان ان يشيد فيها انشاءات حجرية الا باذن السلطان الذي لا يوافق ابدا .

هذه امثلة من التدابير المتخذة من قبل الاتراك للقضاء على كل بذرة تقدم معنوي او مادي لدى الشعوب الخاضعة لهم . بالرغم من ذلك نجحت حيوية الامم وخاصة الامة العربية وذكاؤ ها في التغلب على كل هذه الصعوبات ما عدا النظام الاداري الذي باشره عبد الحميد مع ولايته والذي يحسنه يوما فيوما . يرتكز هذا النظام على اعطاء ادارة

الولايات وجميع المراكز الرفيعة الموجهة الى رجال جهلة اجلاف عديمي الاخلاق ، تجمعوا في خدمة القصر وفي مطابخ الحاشية ، تركهم يحكمون الامبراطورية بمنتهى الرشوة والتعسف والاستبداد ، ويبتاعون مراكزهم بثمن باهظ دون ان يطمئنوا الى احتفاظهم بها ، لذلك يضطر هؤلاء الموظفون لسلب مديرياتهم وارتكاب كل الدناءات ، ويجمعون الاموال التي صرفوها للدخول في الخدمة وللعيش مع عائلاتهم ولوضع مبالغ في الاحتياط لشراء مركز آخر اذا صرفوا من المركز الاول ، او للخلاص من العزل بدفع المال للموظف الاعلى الذي يهددهم ليبتز مالهم .
ويترك عبد الحميد لموظفيه حرية تامة في الحركة بصدد قطع الطرقات وهو الذي يدير بدهاء ملحوظ مملكة السرقة . لن يعاقب احد لاعتداء على العدالة او السرقة أو القتل ، وانما يكافئه والي بيروت رشيد بك ويشترك مع مدراء بيوت البغاء والمهربين ، والسارقين والقتلة ليتقاسم وإياهم الاسلاب . لقد وضع في جيبه ثلاثة ارباع عائدات بلدية المدينة ، وارتكب الافعال المنكرة . وبقدر ما يشتكي منه سكان بيروت وقناصل الدول العامون لدى السلطان ينال سعادته الاوسمة والعبارات الخادعة . لقد جمع قاطع الطرق هذا مبلغ اربعة عشر مليونا في فترة ست سنوات ونصف حين احدث اضطرابات بيروت في ايلول من سنة ١٩٠٣ بين المسلمين والمسيحيين، وقتل العديدين . يريد عبد الحميد اولا الاحتفاظ بالخادم الممتاز لافكاره ، بالرغم من الاعلانات الاصلاحية ولكن من المؤكد ان يتراجع امام تهديدات الاسطول البحري الاميركي فقد عين رشيد بك والياً عاما على بروس ، وقلده الوشاح الاكبر من رتبة امتياز مع شارة لماعة .
فاق كاظم بك ، في القدس ، زميله في بيروت في قطع الطرق والفضائح . كان بيته ملجأ للصوص والقتلة على الطرق الكبرى. وهو

يجبر الناس على استضافته مدة ثلاثة او اربعة شهور متتالية واطعامه مع العديد من تابعيه اثناء قيامه عندهم ، وعندما يشتري سعادته او امراته بعض الحاجات التي لا توجد عند ضيفه الكريم ، من السوق،فانه يضطر البائع ليسدد ضعفي الثمن الذي قبضه . ونحن لا نستطيع ان نمتنع عن رواية واحدة من الف تظهر جشع الوالي الشركسي : بينما كان فلاحون مساكين من بيت جن في ضواحي يافا ، يعملون في حفر الاساس لحساب وجيه من المدينة يتحدر من قريتهم ، وجدوا فجأة ، وهم ينكشون ، ابريقا حديدي اليد يحتوي مائة قطعة ذهبية تساوي كل منها عشرين فرنكا . وكما يحدث دائما في حالات مشابهة ، هناك مستاؤ ون من القسمة رفعوا تقريرا سريا واطلع حاكم يافا على حادثة الكنز . بكر هذا الحاكم مصطحبا قائد الدرك ورئيس البلدية واتجه الى المكان ليجري تحقيقا وليفتش عن الكنز موضوع البحث . نجح في انتزاع ما آل الى الفلاحين الذين عرف اسماءهم اي ما مجموعه عشرين قطعة .في هذا الوقت بعث العابثون برسالة سرية يكشفون فيها عن ان الكنز المكتشف ضخم جدا حتى ان المقتسمين استعملوا السلال في القسمة وارسلوا بها الى كاظم بك وهو المعروف بعبادته للذهب . فخف كاظم بك كالذئب الكاسر الى يافا في يوم واحد ، بعدما كان في جرش التي تبعد ثلاثة ايام عنها .

اعلن بجدية امام الذين اتوا يحيونه لدى وصوله انه انما جاء لينظم شؤ ونا هامة جدا ، فسجن نصف سكان بيت جن وامر بتفتيش في كل القرية ، لقد ضرب الدرك ، الذين كلفوا بهذه المهمة ،الفلاحين البائسين باغماد حرابهم وبهراوات كبيرة ، ولم تكن معاملة الذين زجوا بالسجن افضل . اسند الى مساعدين احدهما يهودي رئاسة المحكمة الاستئنافية

الصالحة بالحكم في هذه الجريمة ضد الدولة . اقتيد هؤ لاء المساكين من الناس واحدا واحداً امام المحكمة العليا ، استجوبهم سعادته بدهاء وكان اذا وجد في اجابتهم ما لا يسر يشير على مساعده في المعسكر فيجرهم خارجا ليشبعهم ضربا بالقبضات على الرأس .كان من الطبيعي ان يعطي هؤ لاء الفلاحون الطيبون كل ما وجدوا ، اعني المائة قطعة التي وضعها كاظم في جيبه رافضا تصديق شهادة الاشخاص الاكثر احتراما والذين اكدوا ان هوذا كل الكنز المكتشف . طلب من مساعديه ان يأخذ كل منهما نصف التعساء الى منزله وان يحرمهم من النوم مدة ثمانية ايام بغية اجبارهم على الاعتراف بالحقيقة . لكن لا اليهودي ولا زميله رغبا في تحمل هذه المسؤ ولية المحزنة لانهما قالا : « بعد رحيل سعادتكم لن يتقاعس هؤ لاء الناس عن الثأر منا وقتلنا » . استدعى المرتشي الغاضب كاظم بك،بسبب فشله،الشيخ ابراهيم ابو رباح وهدده بالعزل من ادارة التعليم الرسمي في يافا وهو المركز الذي ابتاعه باربعة آلاف فرنك في ستة اشهر تقريبا ، اذا لم يحضر الكنز بكامله . اضطر الشيخ المسكين الى دفع مبلغ الفين من الفرنكات ليخفف من غضب سعادته واعلن ان الحادث قد انتهى .

روت الجرائد المصرية تفاصيل اعمال كاظم بك وحركاته وشكاه سكان فلسطين الى السلطان ورجوه ان يعتقهم من هذا الحاكم . فاجاب عبد الحميد على جميع هذه المطالب بتقليد امينه كاظم،الوشاح الاكبر العثماني . ولقد قلنا سابقا انه بسبب دناءته سماه واليا عاما على حلب .

ليس هناك خطأ اشد من الرأي المقبول عموما وهو ان عائدات تركيا لا تكاد تكفي نفقاتها ويجب تصديق الاحصاءات الرسمية لانها كلها كاذبة . تبلغ عائدات الامبراطورية العثمانية مليار فرنك يصرف

منها اربعمائة مليون فرنك على الاكثر . يعود الباقي على جيوب الموظفين وصندوق السلطان بشكل خاص . كانت الديون تكبل عبد الحميد لدى اعتلائه العرش وهو يمتلك اليوم ثروة من خمسة عشر مليار فرنك موزعة بين مختلف مصارف انكلترا واميركا وفرنسا والمانيا والنمسا .

ان فوضى الادارة التركية تجعل اقامة الشرفاء [في البلاد العثمانية] وهم العنصر المتحضر المتحرر مستحلية . وقد حضرت سلفا في قصر يلدز الاضطرابات المتواصلة التي تظهر من وقت لاخر في بيروت ، لأن هذه المدينة اللبنانية اصبحت مركزا ادبيا للبلدان العربية ، ويحرص الاتراك على تغذية الفوضى فيها والقلق لابعاد جميع الادباء خوفا من ان تصبح مركزا للفكر القومي العربي . وهكذا تبيع جميع العائلات السورية الكبرى ممتلكاتها وتذهب للاستقرار في مصر حيث تجد امنا وتوظيفا اكبر لرساميلها وعلى كل حال تجد عملا شريفا مربحا ، لذا اصبح سعر الاثاث والملكية العقارية في سوريا تافها .

من جهة اخرى ، يحاول عبد الحميد السيطرة على البطريركية المارونية بمحاولات خداعة . ويهدف الى القضاء على الحكم الذاتي في لبنان شيئا فشيئا ، وهو الذي يشكل الطريق الوحيد للحرية في البلدان العربية . ويريد ايضا السيطرة على مختلف التجمعات المحافظة على استقلالها في سوريا والعراق والجزيرة العربية . لذلك يحاول بالقوة ودون جدوى اخضاع دروز حوران ، والوهابيين في نجد والخليج الفارسي والقبائل المتمردة في اليمن والتي يشكل استقلالها نداء الحرية الموجهة الى العرب في سوريا والعراق .

وحديثا ، سمم عبد الحميد ، الشريف السيد الكواكبي ، وهو وجيه مسلم من حلب ، لان هذا الكاتب العربي الشهير قال يوما في احد

احاديثه : « كم يبلغ عدد الاتراك الذين يستثمروننا ، يكفي ضربة مكنسة صغيرة لنتخلص منهم » . لقد اجتمعت في مكة في السنة الاخيرة ، جمعية مؤلفة من بعض العلماء للتداول بشأن انشاء خلافة عربية محض دينية مركزها في مكة ، قررت الجمعية ان يتولى هذه المكانة العالية مسيحي غريب ، افضل من ان تتركها للقذر عبد الحميد لانه ورد في كتاب الاسلام المقدس ، ان اميرا كافرا عادلا خير من امير مسلم غير عادل ، وعلم السلطان بوجود هذه الرابطة واخذ علما ببعض مقرراتها ، ولمنع هذه الحركة الخطيرة من الانتشار حول قبر النبي العربي ، امر والي الحجاز ان يرتكب مجزرة بين الحجاج ، ليجعل رحلة الحج بالنسبة لجميع المسلمين المثقفين محفوفة بالمخاطر . وبالتالي ، في السنة التالية ، وفي شهر اذار من سنة ١٩٠٤ ، ذبح الحاكم التركي العام في الحجاز ، راتب باشا ، ما يزيد عن خمسة آلآف حاج مسلم ارضاء لسيده . لكن العصيان اخذ طابعا وطنيا ، فأمتد الى المدينة وكل الحاميات التركية في الولاية التي ارتكبت فيها المجزرة . فمن هنا نرى ان الاضطرابات في تركيا ليست ابدا وليدة التعصب الديني .

على كل حال ، تقتل السلطات التركية في المقدسات الاسلامية كل عام عددا من الحجاج وتغطي جرائم القتل باشاعة ضجة رسمية عن اجتياح مرض الطاعون للمدن الاسلامية المقدسة . كل ذلك لابعاد الحجاج المثقفين . وليلعب السلطان دوره التمثيلي بشكل افضل وليثير الخيال ، اقام مراكز حجر صحية واتخذ التدابير الوقائية الصارمة التي لم يتخذ مثلها قط عندما كان هناك وباء حقيقي خلال السنة الماضية ، في يافا وغزة ودمشق . لكن الايمان بالقضاء والقدر في الشرق لا يتراجع امام هذه الصعوبات التي ارسلها الله هذه السنة . لقد قتل الناس

لاظهار عدم وجود الامن في الحجاز . فاسقط في يد عبد الحميد عندما ارسلت حكومة الخديوي قوات كافية لحماية الحجيج المصري وتوطيد الامن الضروري في ارض الحج التي تفوق في شهرتها « بتراء العرب » .

لقد قلنا سابقا ، ان عبد الحميد اذا ما طرد نهائيا من اوروبا ، يفكر باقامة عاصمته الجديدة في دمشق ، لاتصالها باليمن و العراق ، وآسيا الصغرى بواسطة سكك حديدية في طور البناء . تغريه دمشق أكثر من بروس ، وكونيا وبغداد القريبة جدا من الحدود الروسية حيث يوجد الكثير من الارمن .ان مدينة الامويين اكثر اعدادا لقيادة كل آسيا ، فهي تقع في وسط البلدان العربية ، ويتكل عبد الحميد على عصبية هذه الشعوب المستعبدة منذ القديم ، ليخضع عرب اليمن والوهابيين في نجد والعراق ، وليحتفظ بالاكراد والارمن .

الحضارة العربية القديمة

لكن عبد الحميد اخطأ في اعتقاده ، فالعرب لم يقبلوا بمجرم مثله رئيسا عليهم ، اضف الى ذلك وهذا امر لن نمل تكراره ، ان الاتراك بلداء . لقد برهنوا عن امكاناتهم طيلة خمسة قرون منذ وجدوا : فهم لم يكتفوا بعدم العطاء بل منعوا الاخرين من العطاء ولولاهم لاستمرت الامة العربية في تقدمها دون شك وكان بامكانها ان تكون على قمة الحضارة العالمية .ففي اقل من قرن شيد العرب جامعي عمر والحمراء، واكتشفوا علم الجبر، وطوروا الطب والكيمياء والهندسة وعلم الفلك والجغرافيا ،وترجموا كتب ارسطو والفلاسفة القدماء ، وشملت غزواتهم المناطق الواقعة بين الاطلسي الى ما وراء الهندوس وبين المتوسط والخط

الاستوائي ، فسيطروا على اسبانيا ونشروا لغتهم وحضارتهم حيث حلوا . وتقول اليزارلكوس:« برزت الطاقة المتراكمة من قرن الى اخر في هذه القبائل المجهولة فجأة وبقوة تفوق قوة الاغريق حين غزوا اسيا في ظل الاسكندر ،وتفتقت كتفتق مغبر الصبر الذي يقضي اجيالا ليظهر، ولكن تويجته التي تبرز فجأة تسحر بعظمتها .

مآثر العرب

لقد اصبحت مصر وسوريا وآسيا الصغرى وبابل وبلاد الفرس وافريقيا الشمالية وصقليا واسبانيا وشواطىء البحر الهندي ايضا عربية . وقد عرفت كافة المناطق المفتوحة نهضة حضارية مع الفاتحين .

ولا تكفي حدة الايمان الديني ، وقوة التضحية ، وانكار الذات ، لتفسير النجاح العربي الهائل ، فقد كان من جملة اسباب هذا النجاح ايضا حسن استقبال الشعوب لهم ، فقد جذبوا ملايين الرجال واظهروا ، في مناطق متعددة ، انهم يريدون التحرير لا القهر ، فقد بدوا اكثر انصافا من الاسياد القدماء واكثر حلما رغم ضراوة اندفاعهم . في اقل من قرن تضاعف عدد الذين يدعون العروبة عشر مرات تضاعفوا في الوادي الكبير حتى جزر صند .لقد نقل العرب العلوم والفنون وشجعوها ، فاينع الميراث الثمين الذي تركه البيزنطيون ضائعا ، لقد اثار العرب شعلة جديدة في هذه الجمرات التي كادت تنطفىء بهدوء تحت رماد الاديرة الشرقية اليونانية ، لقد ساهم العرب رغم انعزال وطنهم مساهمة فعالة في نتاج الانسانية المشترك واختصروا لاوروبا ليل العصور الوسطى الطويل .»هذا ما حققه العرب في اقل من

قرن ، فماذا اعطى الاتراك الذين يستبدون بنا منذ خمسة قرون ؟ لا شيء البتة ، واذا طرحت هذه العشائر البربرية من معجمها الكلمات العربية ستعجز عن الكلام .فلغتهم الاصيلة تتكون من كلمات [بخشيش] . تشبه نعيق الغراب ، لقد علمناهم اللغة الجميلة فلم يعلمونا الا كلمة بخشيش الحقيرة . لقد تميز العرب بحلمهم ، وما زالت الامتيازات التي منحها الخليفة الاول عمر للمسيحيين قائمة في كافة البلدان الاسلامية ، والاتراك الذين يحاولون انتزاعها لا يظهرون احترامهم لها الا لعجزهم عن الغائها .

الخطوط الحديدية في آسيا الصغرى

لا ننخدع بالخطوط الحديدية التي يبنيها عبد الحميد اليوم بين القسطنطينية-بغداد وحماه - برجق ودمشق - مكة ، لن نصدق احتجاجاته التي تكذب مشاعره التقدمية .يكفي ان نلقي نظرة على انظمته ، ووضع السكك الحديدية الحالي لنتأكد من نوايا الطاغية الداخلية .

يريد عبد الحميد تجهيز آسيا الصغرى بشبكة من السكك الحديدية الاستراتيجية الكاملة ، لا لصد عدوان خارجي ، إذ سبق وشرحنا النظام السياسي الذي ينتهجه السلطان مع الاجانب ، بل لسحق الثورات الوطنية في امبراطوريته الآسيوية ان سكة حديد بغداد تتيح له قمع الاكراد والأرمن ونشرسيطرته على قبائل العراق ونجد والخليج الفارسي المستقلة وخط برجق - حماه يسمح له باخضاع قبائل حلب والزور المستقلة . وبخط دمشق - مكة يستعبد كافة قبائل الصحراء السورية والحجاز واليمن . وهكذا يتوصل الاتراك الى استعباد الامة العربية باسرها .

ان ما يثير العجب هو ان السلطان التركي يأمل تنفيذ هذه الاعمال الضخمة باموال العرب ودمائهم . فهو يريد اجبارهم على صنع قيود عبوديتهم وسلاسلها بانفسهم .

دفاتر الشروط

ولا يختلف هدف الخطوط الحديدية الممتدة بين يافا - القدس ، مرورا ببيروت - دمشق ، واضنة - مرسينا وقسابا - سيمرن عن هذا الهدف . ان دفاتر الشروط المعدة بعناية كي تكون الخطوط بعيدة عن المساهمة في ازدهار البلاد المادي ولإعاقة استثمارها . والهدف الحقيقي الذي يضمره عبد الحميد منها هو نقل الجنود بسرعة . وبما انه من الضروري ان تربح الشركات من مشاريعها اجرا كافيا بالنسبة للرساميل الموضوعة ، يسمح لها بالقيام ببعض عمليات النقل والتي تقل بكثير عن قدرتها .

تقوم كافة المحطات على مسافات بعيدة من المدن التي تؤمن مواصلاتها وتسير برحلة واحدة في يوم بين يافا - والقدس ٨٧ كلم . ويقضي القطار خمس ساعات للوصول من مدينة الى اخرى . وكذلك تستغرق المسافة بين بيروت ودمشق (١٤٦ كلم) تسع ساعات . وهنالك ثلاث رحلات بالقطارين بين اضنة - ومرسينا في الاسبوع وكلفة نقل البضائع والافراد التي حددتها دفاتر الشروط باهظة .

ولا يمكن للشركات زيادة عدد القطارات بدون اذن خاص من الحكومة . ومن الاوفق للتجار والمسافرين استخدام الجمال ، والحمير ، والعربات في اسفارهم ورحلاتهم لكلفتها القليلة ،ومضاهاتها القطارات من ناحية السرعة . ان الشركات التي تجد ان عائداتها لا تكاد

تغطي نفقاتها تلجأ الى مختلف وسائل الاقتصاد بالعتاد والعمال . ولا بد ان الذين زاروا فلسطين وسوريا إنهم قد تأكدوا من الامر على خط يافا - القدس او خط بيروت - دمشق. وهكذا ، تعرقل هذه الشركات المضطرة للاساءة الى نفسها ، تقدم البلاد ، وتخدم نوايا الطاغية على افضل صورة ودون ان تدري .

فرنسا وانكلترا والمانيا

لقد اوكل عبد الحميد حتى اليوم مهمة بناء السكك الحديدية للفرنسيين والانكليز واعطاهم امتيازاتها، ولكنه بعد ان وجد ان هاتين الامتين تنشران حضارتهما في كافة المناطق التي تدخلان اليها ، عدل عن ذلك وصار يفضل اللجوء الى الالمان فهم اقل انفتاحا من الاخرين ، ولا يطالبون باجراء اي اصلاحات شرط ان يضمن لرساميلهم ربحا معقولا . لذلك اوكل اليهم مهمة بناء سكة حديد دمشق - مكة ، كما اراد تسليمهم خط بغداد بكامله ، وسمح لهم مؤخرا ببناء خط تلغرافي يمتد من القسطنطينية الى الخليج الفارسي .

مشروع يزعج الاتراك

يشجع الاتراك المشاريع التي تخدم نواياهم بقدر ما يبعدون المشاريع التي يمكن ان تنفع البلاد . فلا شيء انفع للبلاد العربية ، من بناء خط يصل مصر بسوريا على شاطىء المتوسط . لقد التمس احد اثرياء مصر ، السيد انطوان يوسف لطفي، وهو سوري ، الحصول على امتياز هذا الخط طوال عشر سنوات . فكان عبد الحميد ، الذي لا يجرؤ ابدا على الرفض قطعياً، خوف انكشاف نواياه الحقيقية ، يخدع هذا المواطن الشريف بالوعود الكاذبة، بينما كان حجابه يستثمرون بلا

رحمة امله الوهمي الذي حرصوا على تغذيته . اوقف انطوان عساف لطفي بك مراجعاته ، بعد ان تعب من الوعود الكاذبة ، وهو ينتظر بصبر موت السلطان الحالي وتغيير النظام حتى يستثمر حقوقه الاكيدة أي حقوق الاولوية .

احتياطات غير مجدية

اتخذ عبد الحميد تدبيرا احترازيا آخر لتوقعه يقظة الفكر العربي القومي . فانشأ في كافة انحاء فلسطين وسوريا والعراق ، بعض المستعمرات ، للمهاجرين من الشراكسة الجورجيين ، والبشناق والبلغار الذين يعتمد عليهم كثيرا . على كل حال ، لا قيمة لهذه المستعمرات فهي لا تنتمي لتركيا اكثر من انتمائها الى روسيا ، وجل ما تريد هو العيش في بلاد اسلامية فقط .

ان كافة الجهود التي يبذلها الطاغية ، لابقاء الشعوب تحت سيطرته ، لا جدوى منها . فالمذابح التي تسببت منذ توليه الحكم ، بمقتل مليوني شخص حكمت بالبؤس على عشرة ملايين ارملة ويتيم ، وايقظت الامم من خمولها وهي تستعد اليوم لخلع نيره ، ومحو ذكراه المقيتة ، والعرب الذين كان يعتمد عليهم لتنفيذ نواياه السوداء سيكونون في طليعة الثوار. وما ان ينادي العرب بسلطان عليهم في دمشق ، حتى يطالب الالبان بملك فيتولى ابناء بدرخان باشا امارة والدهم وينظم الارمن حكومة مؤقته . وسيكون الاتراك الحقيقيون انفسهم سعداء باقامة ملكية في ولايات قونية وانغورة وعيدن وبروس وكستامون، الامر الذي يبقيهم حراسا للبسفور . فالاتراك هم اكثر الشعوب نقمة على النظام الحالي . ولقد اقصاهم عبد الحميد عن الوظائف ، فاستبدلهم

بالمهاجرين من الشركس والتتر والبشناق والبلغار الذين وضع فيهم كل ثقته،واستعبد كافة الناس دون تميز بين الاجناس .

مملكة تركية

يعتقد الاتراك في هذه الولايات ، وهم على حق ، انه من الافضل ، ان يكونوا اسيادا في بلادهم ويحكموا على هواهم بدلا من ان يكونوا عبيدا في الامبراطورية الكبيرة المهترئة التي اسسوها وهم اول ضحاياها . فامتيازاتهم الوحيدة تقتصر على دفع الضرائب الباهظة ومعاناة الفقر ، والخدمة العسكرية الاجبارية لمدة تسع سنوات دون اجر او غذاء او ملبس .

خطأ الدبلوماسية الاوروبية

تهتم اوروبا باستقلال هذه الشعوب ، وازالة جذوة الخلاف المسماة بالقضية الشرقية . في الاساس ، لم تتوصل الدول العظمى الى حل هذه القضية لانها لم تطرح معطياتها كما يجب . لقد رغبت الدول الاوروبية حتى اليوم في النظر الى القضية من جانب واحد : التقسيم . ومن المستحيل توزيع امبراطورية غنية وواسعة كامبراطورية السلطان بين دول متنافسة وحسودة . ولو عملت الدبلوماسية الاوروبية عدة قرون جديدة فلن تتوصل الى التوفيق بين مصالح الدول الكبرى المتناقضة في آسيا الصغرى فكيف في البلقان ؟ ستضطر الى تبني الحل نفسه بالنسبة للجميع :لكل أمة البلاد التي تقطنها وبكلمة اخرى يجب اتباع المجرى الطبيعي للتاريخ وتقسيم تركيا الآسيوية ، كما قسمت تركيا الاوروبية الى عدد من الدول المستقلة ، يوازي عددها عدد العناصر المتميزة بلغتها ، وتقاليدها ،واصولها التاريخية ، وحدودها الطبيعية ،

دون ان يؤخذ بعين الاعتبار الدين او المذهب . لماذا لا تقوم اليوم بالعمل الذي سيجبر على تنفيذه غدا متحملو خطر الانقلاب العام ؟ لانه في الوقت الذي تتشاور فيه اوروبا الوسطى والغربية وتتراضى ، يتقدم التياران المتعارضان احدهما باتجاه الاخر بسرعة رهيبة . فبعد قبرص ، ومصر والتيبت ستدفع انكلترا الى السيطرة على الخليج الفارسي ، فتشتعل الشرارة وتشعل معها كل بارود أوروبا .

حل سلمي لقضية دموية

نحن لا نطلب من الدول الاوروبية ان تقدم اي تضحية في سبيلنا او ان تتخذ اي خطوة عسكرية لصالحنا ، فقط نرجو ان تتعاطف معنا اوروبة والولايات المتحدة في اميركا الشمالية ، وذلك لصالح السلام العالمي وخير الانسانية ، وتدعم بالتشجيع الحركات الوطنية الانفصالية التي تحدثت عنها في هذا الكتاب ، وخصوصا للحركة العربية ، فهي أقوى الحركات وأضمنها نجاحا. وفي الواقع لا يحتاج اثنا عشر مليون عربي الى اكثر من اثنتي عشرة ساعة لطرد الف ومائتي تركي يستغلونهم بتجزئتهم .

الحالة النفسية في تركيا

لم يسبق ان اثير الرأي العام ضد الحكومة كما في يومنا . فهناك اليوم تحت السلاح خمسون الف الباني ويستعد ستون الف بلغاري لدخول المعركة في بداية الربيع المقبل .

العرب يثورون

يشتعل اليمن وتثور الحجاز ولا تتعدى سلطة الحكام الاتراك في

هذه المقاطعات حدود جدران قصورهم .وتنزل قبائل بلاد الرافدين ونجد شر هزيمة بقوات السلطان . ان قبائل فلسطين ، لعجزها عن اشباع نهم الحاكم كاظم بك واتباعه ، اتفقت مع قبائل سوريا وارسلت مؤخرا بعثة الى القاهرة للمطالبة بالاحتلال المصري الانكليزي للبلاد . وان قبائل حلب والزور رفضت استقبال الموظفين المستغلين للحكومة البائدة ، وتهدد باللجوء الى السلاح اذا اراد احد التدخل في شؤونها . لقد انتشرت هذه الحركة الوطنية في بعض المدن التي لم تكن لتجرؤ في السابق على اعلان موقفها . فقد قامت الجيوش العربية في بيروت ودمشق وحلب مؤخرا بايقاف عربات الحكام العامين الاتراك في وسط المدينة ، وفي وسط الطريق ، واضطروها لدفع الاجور . وتجمع الشعب بأسره في بغداد والموصل امام منازل الولاة الاتراك ، للاعتراض على الضرائب الجديدة المفروضة على حيوانات النقل والحيوانات الداجنة . وفي دمشق اعترض الجيش العربي بعنف على المرسوم السلطاني الاخير الذي يقضي برفع مدة الخدمة العسكرية من سبع سنوات الى تسع .

الروابط القومية الانفصالية :

لم يسبق ان كانت اللجان الوطنية الانفصالية الارمنية ، والكردية والالبانية والبلغارية والعربية واليونانية بمثل هذه القوة وبمثل هذه الارادة . وللعرب ثلاث لجان في اوروبا واميركا وجمعيتان في مصر ، وجمعيات سرية في المدن الرئيسية في سوريا وبلاد الرافدين، ويتفق الجميع الان على القيام بنشاط مشترك ونهائي .

ان من مصلحة رجال المال الاوروبيين الذين يملكون رساميل في

تركيا ، ومن مصلحة التجار واصحاب البنوك الذين تربطهم اعمال ببلادنا ، ان يشجعوا هذه المشاريع . عندما تسقط السيطرة التركية ستفتح آسيا بكاملها على التجارة الدولية . اما توظيف رؤوس الاموال الذي يعطي اليوم فائدة ٤٪ فسيعطي يوم تحررنا ٥٠٪ .

ليس بوسع المحسنين الكرام ، من اوروبيين واميركيين ان يجدوا عملا اكثر نفعا وخيرا واجدر بتعاطفهم من ذاك الذي يهدف الى تخليص عدة امم كبيرة من الاستعباد، وفتح المجال واسعا للربح امام كافة الناس الشرفاء الذين يريدون العمل .

من سيكون سلطان العرب

لا شيء اكثر تحررا من برنامج « جامعة الوطن العربي » فهي تريد قبل كل شيء لمصلحة الاسلام ، والامة العربية ، فصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية ، واقامة امبراطورية عربية تمتد من الفرات ودجلة الى خليج السويس ومن المتوسط حتى بحر عمان . وستتخذ الحكومة شكل السلطنة الدستورية المرتكزة على حرية كافة المذاهب ، ومساواة كافة المواطنين امام القانون . ستحترم مصالح اوروبا وكافة الامتيازات والمزايا التي منحها اياها الاتراك حتى اليوم . ستحترم ايضا الحكم الذاتي في لبنان ، واستقلال امارات اليمن ، ونجد ،والعراق . وتمنح عرش الامبراطورية العربية الى امير من العائلة الخديوية المصرية يعلن بصراحة انه سيبذل كل طاقاته وكافة موارده لهذه الغاية . وتتخلى« الجامعة» عن فكرة الجمع بين مصر والامبراطورية العربية في ظل ملكية واحدة لان المصريين لا ينتمون الى العرق العربي فهم من عائلة البرابرة الافريقيين واللغة التي كانوا يتكلمونها قبل الاسلام لا تشبه العربية قط .

اضف الى ذلك قيام حدود طبيعية بين مصر والامبراطورية العربية يتوجب اخترامها حتى لا تدخل في الدولة الجديدة بذور التنافر والهدم . كما ان الخلفاء العرب لم ينجحوا في السيطرة طويلا على هذين البلدين .

من سيكون خليفة المسلمين عامة ؟

يقدم الوطن العربي الخلافة الاسلامية الدينية العامة للشريف المتحدر عن الرسول والذي ينضم بصراحة الى حزبه الذي يكرس نفسه لهذا العمل . وسيكون لهذا الخليفة الديني دولة سياسية ، مستقلة تماما تشمل ولاية الحجاز الحالية ومنطقة « المدينة المنورة » حتى العقبة . ويتمتع الخليفة الديني باحترام الملك ويملك سلطة روحية فعلية على كافة مسلمي الارض . ان احد الأسباب الرئيسية لسقوط الامبراطورية العربية العظيمة هو تركيز السلطتين المدنية والروحية والجمع بينهما في يد واحدة . ولهذا السبب اصبح خليفة الاسلام اليوم مشارا للسخرية ، ومحتقرا بين الاتراك . إن خليفة بني الله يجب ان يتمتع بنفوذ او هيبة روحية بلا منازع ، ويجب ان يبقى محترما لا ينتقد طوال حياته ، ولا يرتقى الى سلطته ويجب ان تبقى عظمته مستقلة .

هكذا تكون سلطته شاملة ويحكم من مقره حكماً روحيا جميع مسلمي العالم الذين يخفون الى مقامات محمد المقدسة لتأدية [فريضة] الحج .

امير المؤمنين المزعوم

كيف يجرؤ التركي عبد الحميد الادعاء بانه الخليفة وكيف يكون

خليفة ولا يفهم العربية ؟ وقد بلغ الخامسة والستين من العمر ولم يؤد فريضة الحج بعد ؟ هو قاتل كاذب يسرق رعاياه ، ويحكم بالاعدام على حجاج مكة ، ويوفر الحماية للمجرمين ، ويتلقى رفسات كل السفراء المعتمدين لديه ، كيف يكون القائد الاعلى لدين منتشر كالاسلام وهو لا يجرؤ على الخروج من قصره خشية اغتياله . ويجمع كل اتباعه على كراهيته ولا سيما المسلمون العرب منهم . فمن دجلة الى قناة السويس ومن البحر المتوسط الى بحر عمان لا يوجد مسلم واحد ، او مفت واحد ، او عالم واحد لا يلعن مئة مرة في اليوم هذا الذي يسمى امير المؤمنين .

ان سيادة خليفة الاسلام على كافة مسلمي الارض المجتمعين في دولة واحدة امر يبدو مستحيلا دائما، حتى بالنسبة للخلفاء الاوائل ، واما ان يكون ملكا على بلد لا يضم الا المسلمين ، فحينئذ ليس هنالك بلاد اكثر اسلاما من الحجاز ، وليس هنالك مدن افضل لاستقبال امير المؤمنين كالمدينة المنورة ومكة .

يجب ان يميل الجميع ، نحو هذا الحل السلمي للقضية الشرقية ، المتناسب تماما مع الحاجات الراهنة ، والمصالح المستقبلية لكافة الامم .

ان عدد هؤلاء الذين يمتلكون مصالح شخصية تتعارض مع هذا الاتفاق اتفه من ان نهتم به .

الدور الحقيقي « لتركيا الفتاة »

بختام هذا الفصل عن سياسة الاتراك في الاقطار العربية سنترجم رسالة مقفلة تلقيناها أخيراً من القسطنطينية اجبنا عليها في هذا الكتاب ، لان الكاتب لم يجرؤ على اعطائنا عنوانه الامر الذي نوافقه عليه تماما .

استامبول في ١٠/١٠/١٩٠٤
حضرة السيد نجيب بك عازوري
مساعد حاكم القدس سابقا .
عزيزي السيد عازوري

« استطعنا ان نحصل خفية على نسخة مكتوبة عن تقريركم الى السلطان موضوعه الدوافع التي جعلتكم تصممون على التخلي عن مركزكم والتجاوزات المنكرة التي يرتكبها في كل يوم والي القدس كاظم بك في فلسطين . نحن نفهم تماما ان الرجل الشريف لا يستطيع العيش مع سفالة كتلك . ونوافق على ما فعلته ، تهانينا الحارة لعواطفكم النبيلة ، واننا فخورون برؤية امثالكم في بلادنا ، ولكن امرا سبب لنا الاسف الشديد هو طموحكم لتشكيل حزب قومي عربي وفصل مواطنيكم عن تركيا لتؤسسوا مملكة مستقلة . والرحلة التي نفذتموها ركوبا على الحصان عبر فلسطين وسوريا قبل ترككم القطاع العثماني تثبت انكم مصممون على تكريس جهودكم لتحقيق هذه الفكرة وانكم تمتلكون الطاقة الضرورية لتقودوا مشروعكم الى النجاح . انتم ارفع من كاظم بك الذي اعطاكم اجازة دون اذن سلطاني لتقوموا برحلة طويلة جدا ضد مصالح سيده . يستنتج ايضا من تقريركم ان حزبكم قد تفاهم مع الاكراد والارمن والالبان والبلغار للقيام بعمل مشترك وما تشرعون به انما هو التفكيك التام للامبراطورية . اننا سنكون من رأيكم وسننضم اليكم اذا فقدنا اطلاقا كل امل في انقاذ البلاد .

اتعتقدون اذن ان السلطان عبد الحميد خالد ؟ بالعكس انه فان ننتظر موته بين لحظة واخرى ، ضعف جدا حتى انه لا يكاد يقوى على المشي ويداه ترتجفان بشكل مخيف . ونستطيع التأكيد ان كل شيء في

تركيا سيتغير بموته ، وستختفي معه هذه العصابة من قطاع الطرق التي تحيطه . لهذا نرجوكم ان تقلعوا عن مشروعكم ، وان تنتظروا التغيير الذي ننبئكم به حينئذ سنستدعيكم ونقدم لكم المركز الذي يليق بكم .

نحن نعلم علم اليقين ان عبد الحميد قد اتخذ من التدابير ما يمنع التغيير بعد موته لينادى بابنه من بعده . هذا امر مستحيل ويفهم أمناؤه انفسهم ذلك . والناس المحتقرون الذين لا يبقون على الطاغي حيا الا لانهم لا يثقون ببعضهم ، ولا يستطيعون التحدث الى بعضهم البعض ، ولا التزاور وبالتالي لا يستطيعون التفاهم ، هؤلاء مستقبلهم كئيب جدا . يعلمون تماما انهم بموت عبد الحميد سيعودون الى الظلمة التي انتشلوا منها .أنهم يرغبون في الذهاب للعيش بهدوء في البلاد الغربية بثرواتهم الطائلة التي كدسوها . ولكن انتم تعلمون كم هو صعب بالنسبة لموظف ان يخرج من مركزه ، وذلك اصعب ايضا بالنسبة للذين اطلعوا على أسوأ اسرار الطاغية . وان الجواسيس الذين يلحقون بهم في كل مكان لديهم الامر بقتلهم اذا اقتربوا من احدى السفارات او اذا اندفعوا للتنزه على رصيف « عالاط[٣] » . لذلك تسمع الوشوشة حول انقلاب بلغراد . لقد كوفىء قاتلو الملك اسكندر كلهم وعلى كل حال لم يكن ابن الملك ميلان اشد طغيانا وكراهية من سلطاننا . . يقول الناس هناك : لا يملك السلطان سلطة على من حوله ولا يطاع الا لانه ما زال على قيد الحياة . حاشيته رجال لا ضمير لهم ولا قانون يستخدمونه الا ليكسبوا حظوة لديه . لن يعيره اي انسان انتباها ساعة يغمض عينيه . وهذه العصابة الخسيسة المأجورة ستتحول جميعا الى خلفه لتفتش عن الاستفادة من خيراته بكل المساعي الحميدة ، او على الاقل للحصول على براءة في الجاسوسية التي كانت ناشطة عشية موته . اذن انه

خطر كبير ان يضرب عبد الحميد وتخطىء الضربة ولكن اذا كانت الضربة محكمة سيرتمي كل الذين يحيطون بالطاغية عند قدمي البطل صاحب المأثرة الكريمة لشكره بغية ان يستحقوا انعامات خليفة السلطان عبد الحميد الذي من الطبيعي ان لا يستطيع الا ان يكون وفيا للذي فتح له طريق العرش ، وخلص الامبراطورية من طاغية مفترس اضرت سيطرته بالبلاد اكثر من الحروب التي خضناها ضد روسيا والنمسا منذ القرن السابع عشر حتى الوقت الحاضر .

يا عزيزي عازوري بك ، احرص ان تتجلد بالصبر ، بعد وقت قصير نحيطكم علما باخبار سارة وتستطيع العودة راضيا الى بلادك التي طالما احببتها .

اما بالنسبة للشركسي كاظم بك ، كما دعوتموه في تقريركم ، نحن نعرفه ، منذ زمن طويل ، كما وصفتموه ، وان جزءا من التفاصيل التي سردتموها معروفة عنه في القسطنطينية .

اراد السلطان صرفه من الخدمة ليس لسبب تعسفه ولكن لانه سمح لكم بالذهاب الى بيروت والتجول خلال شهرين عبر سوريا وفلسطين دون ان يشك بمشاريعكم وطموحكم الى ترك مركزكم . لكن التدخل من قبل اهله ومريديه الذين تعرفونهم ، غير قرار عبد الحميد فمنحه الوشاح الاكبر للدولة العثمانية .

لقد بعثنا بهذه الرسالة على العنوان الذي اعطيتموه في تقريركم صدفة ، على امل ان تصلكم وان تستجيبوا الى توسلاتنا وتتقبلوا صداقتنا وتفضلوا بقبول احترامنا العميق وتقديرنا السامي .

جمعية تركيا الفتاة
في القسطنطينة

رسالة رد من نجيب عازوري الى جمعية « تركيا الفتاة »

الفضيلة الاولى للانسان المتحضر

اننا نشكر لمراسلينا الاحباء المشاعر التي عبروا عنها تجاهنا ولقد كنا شديدي التأثر بامارات التعاطف ، ونحن لا نستأهل هذا الذي وجهوه الينا . انه واجبنا الذي دفعنا لتحرير بلدنا من العبودية .

قال نابليون الاول : « حب الوطن هو الفضيلة الاولى لدى الانسان المتحضر . » نحن نأسف لاننا لا نستطيع ان نجاريهم حسب افكارهم لاننا نرى انه من المستحيل ان نبعث جسما في طور الانحلال كالامبراطورية التركية . ليست السياسة التي يتبعها عبد الحميد خاصة به ، فكل السلاطين قبله انتهجوها ، فليس علينا الا قراءة تاريخ اسلافه الثلاثة عبد العزيز وعبد المجيد ومحمود لنقتنع بذلك . تتألف الامبراطورية التركية من قوميات مختلفة ، لا يستطيع الاتراك الاحتفاظ بها تحت نيرهم الا بارهاقها : فلقد الغي برلمان سنة ١٨٧٦ لانه بعد بضعة اشهر انقسم اعضاء هذا المجلس المتنافر الى مجموعات قومية تدعو لقيام دول مستقلة توازي العناصر المتمايزة كما حصل بالنسبة للنمسا . لا يستطيع الاتراك الخروج من هذا الوضع الحرج : اما ان تسحق الشعوب لاخضاعها ، واما ان تترك لتؤسس امارات مستقلة . اذن لم يضف عبد الحميد شيئا الى سياسة اسلافه الا نظام الجاسوسية الذي احاط به نفسه ليضمن سلامته الشخصية . بيد ان التاريخ قد اثبت انه من المستحيل وخلافا لقوانين الطبيعة ان تستعبد أمة واحدة كالاتراك عدة امم لا بل ان تستعبد امة واحدة اخرى ادنى منها . لقد اثبت الاتراك اكثر من جميع الاخرين بالتجربة المرعبة هذه الحقيقية .

اذن من المنطقي اكثر ان نذهب لملاقاة الاحداث بدل التصدي لها . لأن هذا اكثر سلاما وانسانية وبالتالي اوفر ربحا .

من الان وصاعدا يجب ان يتحدد دور « تركيا الفتاة » بحزب قومي تركي يعمل لتأسيس دولة دستورية في المدى الذي حددناه لها سابقا ، وعلى هذا الاساس نسير معا ونساند مطالبها .

عبد الحميد يخدم مشاريعنا

اما بالنسبة للسلطان عبد الحميد فنحن ابعد ما نكون عن الحقد على حياته . نحن نتمنى عكس ذلك ان يحيا طويلا ليشهد بنفسه تفسخ امبراطوريته ، وسيكون هذا عقابه . بانتظار ذلك ، يخدم هذا الامير الوحش افكارنا بشكل عجيب ، ويعمل بفعالية تفوق فعاليتنا للحركة التي نحضر لها . ان وحشيته ونزواته والخوف الذي ينزله بالمحظيين لديه يجعله مكروها من اكثر جواسيسه اخلاصا له . ويدفع نظامه الفوضوي الاثير لديه جميع الشعوب للثورة لصالحنا .

ان اكثار عبد الحميد من توزيع الاوسمة البراقة على اكثر خدامه اجراما ، يجعله اشد اثارة للهزء في عيون رعاياه . وبمقدار ما يزيد من القابه : غاية القداسة ، ورفيع القدر ، والمقتدر ، والفاتح ، وملك الملوك ، وسيد العالم ، سيصبح اكثر احتقارا في عيون الجميع بعد خسارة مقاطعة من مقاطعاته .

اما بالنسبة لخطوط سكة الحديد التي يقصد بواسطتها استعبادنا ، فانها ستفيدنا في استثمار الثروات التي لا تنفذ في وطننا العزيز(*)

---

* راجع خريطة الامبراطورية العربية الجديدة في كتابنا « الوطن العربي » الذي سيظهر بعد قليل .

الهوامش

١) لفظة العربية تعني في الفرنسية « قواد »

٢) هذه الآية لم ترد في القرآن وربما كانت حديثاً شريفا

المراجع

١) انطونيوس ، جورج ، يقظة العرب ، الطبعة الثانية ، تعريب الدكتورين : ناصر الدين الاسد واحسان عباس ، نشر دار العلم للملايين وفرنكلين ، بيروت ـ نيويورك ، سنة ١٩٦٦ ، ٦٥٣ صفحة .

٢) الصالح ، صبحي ، النظم الاسلامية ، الطبعة الثانية ، نشر دار العلم للملايين ـ بيروت ، ايلول سنة ١٩٦٨ ، ٣٦٨ص .

٣) عاصي ، عبد الله ، الصراع ضد اسرائيل ، الطبعة الاولى المكتب التجاري للطباعة والنشر . بيروت ـ لبنان سنة ١٩٦٩ ، ٢٥٦ صفحة .

٤) خير الله ، خير الله ، المسألة الشرقية ، تعريب عارف النكدي الطبعة الاولى .

٥) الجريدة الرسمية ، بيروت ـ لبنان ، ١٩٦٥ رقم ٢٨ تاريخ ٦/ ٤/ ١٩٦٧ .

٦) غالب ، ادوار ، زراعة التبغ وانتاجه ، بيروت سنة ١٩٦٥ ، ٤٠٤ صفحات .

٧) شرابي ، هشام ، المثقفون العرب والغرب ، نشر دار النهار بيروت ـ لبنان ، سنة ١٩٧٠ ، ١٦٣ صفحة .

٨) الكيالي ، عبد الوهاب ، تاريخ فلسطين الحديث ، الطبعة الاولى نشر المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت ، سنة ١٩٧٠ ، ٤٧٢ صفحة .

٩) نيوتن ، فرنسيس اميلي ، خمسون عاما في فلسطين ، تعريب وديع بستاني ، نشر صادر وريحاني ، بيروت ١٩٤٧ ، ١٨٤ صفحة .

١٠) آل صفا ، محمد جابر ، تاريخ جبل عامل ، نشر دار متن اللغة بيروت ، ٣١٢ صفحة .

١١) الزين ، علي ، للبحث عن تاريخنا في لبنان ، الطبعة الاولى ، بيروت سنة ١٩٧٣ ، ٦٠٨ صفحات .

١٢) الكتاب المقدس ؛ المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٦٠

12— Azurî, Nagib; le réveil de la nation arabe; Editeur: plan, Paris— France: 1905; 257

13 – Eujêne; la revolte arabe, deux tomes ; 1re édition ; L'Editeur: Librairie Colbert cH. Baher, 57, rue de richelieu Paris— France, 1925.

1— 224P.

2— 200P.

14— La revue du Liban et de L'orienté No 866, 9 Août 1975

15— La revue du Liban et de l'orienté No 867, 16 Août 1975

13 —Azuri, Nagib; le réveil de la nation arabe; Editeur: plon, Paris —France: 1905; 257

14 —Eujêne; junc la revolte arabe, deux tomes; 1re édition; L'Editeur Librairie Colbert cH. Baher, 57, rue de richelieu Paris — France, 1925.

1 —224P.
2 —200P.

15 — La revue du Liban et de L'orient No 866, 9 Août 1975
16 — La revue du Liban et de L'orient No 867, 16 Août 1975

فهرست

أ ـ تقديم الكتاب بقلم الدكتورة زاهية قدورة ٥

ب ـ توطئة تاريخية ١٣
٢ ـ شخصية عازوري ١٧
٣ ـ كتاباته ومقولاته ٢٢
٤ ـ آراؤه السياسية ٢٤

ج ـ يقظة الأمة العربية تأليف نجيب عازوري ٣٥
١ ـ مقدمة ٣٧
٢ ـ التمهيد ٤١
٣ ـ صفة فلسطين ٤٥
٤ ـ السياسة الروسية ٧٧
٥ ـ السياسة البريطانية ٩٧
٦ ـ السياسة الفرنسية ١٠٩
٧ ـ السياسة الألمانية ـ النمساوية ١٣١
٨ ـ السياسة الايطالية ١٣٩
٩ ـ سياسة الولايات المتحدة الأميركية ١٤٣
١٠ ـ سياسة الكرسي الرسولي ١٤٩
١١ ـ السياسة التركية ١٦٥
١٢ ـ رسالة جمعية « تركيا الفتاة » الى نجيب عازوري ٢٠٦
١٣ ـ رسالة رد من نجيب العازوري الى جمعية تركيا الفتاة ٢٠٩

د ـ المراجع ٢١٢
هـ ـ الفهرست ٢١٤

فهرست

تقديم الكتاب بقلم الدكتورة زاهية قدورة ٥
مقدمة ١١
توطئة تاريخية ١٣
شخصية عازوري ١٧
كتاباته ومقولاته ٢٢
آراؤه السياسية ٢٤
يقظة الأمة العربية تأليف نجيب عازوري ٣٥
١ ـ مقدمة ٣٧
٢ ـ التمهيد ٤١
٣ ـ صفة فلسطين ٤٥
٤ ـ السياسة الروسية ٧٩
٥ ـ السياسة البريطانية ١٠١
٦ ـ السياسة الفرنسية ١١٣
٧ ـ السياسة الألمانية ـ النمساوية ١٣٧
٨ ـ السياسة الايطالية ١٤٧
٩ ـ سياسة الولايات المتحدة الاميركية ١٥٣
١٠ ـ سياسة الكرسي الرسولي ١٦١
١١ ـ السياسة التركية ١٧٩
١٢ ـ رسالة جمعية « تركيا الفتاة » الى نجيب عازوري ٢٢٢
١٣ ـ رسالة رد من نجيب عازوري الى جمعية تركيا الفتاة ٢٢٥
المراجع ٢٢٨
الفهرست ٢٣٠

يقظة الامة العربية



نجيب عازوري

" ان ظاهرتين هامتين ، متشابهتي الطبيعة بيد انهما متعارضتان ، لم تجذبا انتباه احد حتى الآن تتضحان في هذه الأونة في تركيا الآسيوية اعني : يقظة الامة العربية وجهد اليهود الخفي لاعادة تكوين مملكة اسرائيل القديمة على نطاق واسع . ومصير هاتين الحركتين هو ان تتعاركا باستمرار حتى تنتصر احداهما على الاخرى وبالنتيجة النهائية لهذا الصراع بين هذين الشعبين اللذين يمثلان مبدأين متضاربين يتعلق مصير العالم باجمعة . وليس للمرة الأولى على كل حال تناقش في الاقطار العربية مصالح اوروبا في حوض البحر الابيض المتوسط ، لان هذه المنطقة تصل بين ثلاث قارات وثلاثة بحار كانت على مدى عهود متفاوتة مسرحا لاحداث سياسية او دينية قلبت مصير العالم بأسره ."

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية صالحة وصمدي - شارع سوريا - تلفون ٢٥٦١١٠ - ص.ب ٥٤٦٠-١١
بناية برج شهاب - تلة الخياط - تلفون ٣٠٦٢٨٣ - ص.ب ٥١١٩-١٩
برقيًا : موكيالي - بيروت

الثمن ١٠ ليرات
أو ما يعادلها